رحلة في رواق الزمن

سعد العبيدي

رحلة في رواق الزمن

Saad Alobaidy

A journey through the Corridor of Time

LONDON
Printing • Publishing
لندن للطباعة والنشر

GOLDEN
BOOK
PUBLISHERS
غولدن بوك للنشر

رحلة في رواق الزمن

A journey through the Corridor of Time

Author: Saad Alobaidy	المؤلف: سعد العبيدي
Publisher: London Printing and Publishing / Golden Book Publishers	الناشر: لندن للطباعة والنشر / غولدن بوك للنشر
Design: MBG (INT) Limited - London	التصميم: شركة أم بي جي العالمية ـ لندن
Printed in Great Britain: 2025	تاريخ الطبع: 2025م / 1446هـ ـ المملكة المتحدة
© All Rights Reserved	© حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

First Published in Great Britain - 2025

© All Rights Reserved

No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of publisher

©حقوق النشر محفوظة

لا يجوز إعادة نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام استرجاع أو إرساله بأي شكل أو بأية وسيلة دون إذن مسبق كتابياً من الناشر.

محتوى هذا الكتاب يعبّر عن رأي المؤلف.

ISBN: 978 1 835340 77 6

Printed and bound by: London Printing & Publishing Ltd

Headquarters: 282 Harrow Road, Paddington, London W2 5ES, United Kingdom
UAE Branch: Sharjah Publishing City (SPC) Free Zone, Sharjah, United Arab Emirates
Iraq Branch: Baghdad, Al - Mutanabbi Street, Al - Warraqoon Archade, Iraq
Whatsapp: 0044 7709 555 334 **Tel:** 0044 20 7289 9009
londonbookbookuk @londonbookuk londonbookuk

البداية

◄ كان حبّ السفر والتجوّل وكتابة الانطباع مغروسًا في أسس الشخصية، التي تشكلت في الريف العراقي، حيث الأفق الواسع المفتوح. كانت أولى خطواته باتجاه الخارج سفرة إلى الكويت عام 1969، بجواز سفر يحمل اسمًا مستعارًا (عباس عبد علي)، ومن دون موافقة رسمية. لم تكن تلك الرحلة مجرد استجابة لدعوة من الشيخ جرّاح الصباح، صديق كويتي بصري يعشق العراق وأهله، بل وبداية البحث الجاد عن عالم أوسع. تلتها عدة سفرات عام 1970، عندما أدركت الدولة فجأة أهمية حماية الطائرات في ظل عصر اختطافها كوسيلة للمساومة والضغط. فتح إدراكها الباب واسعة لتنفيذ مهام الحماية وزيارات متكررة إلى مصر، البحرين، أبوظبي، لبنان، ودولًا عربية أخرى، تصلها الخطوط الجوية العراقية آنذاك. وفتح عصرًا للتطور، ودعمًا لتوجهات السفر، أتاح للضباط فرص التمتّع بالإجازات السنوية خارج البلاد، وأتاح رحلة هي الأولى عائليًا بسيارة (فيات 132) إلى بلغاريا عن طريق الجارة تركيا، استغرقت شهرًا من التجوّل، مهدت لاستيعاب جزءًا من الطبيعة

الأوروبية، حلم بدأ مع سني النضج طالما تكرر بإلحاح، وزرع الأمل في الوصول إلى حوافها من نافذة البر.

كانت كل محطة على الطريق تفتح بابًا أخرى، تؤكد أنّ العالمَ واسعٌ ومفتوحٌ، وأنَّ الحدود ليست سوى خطوط مرسومة على الخرائط، تتلاشى أمام عيون الحالمين بالترحال. لكن تحقيق الأحلام في العراق غير مضمون إذ جاءت التحولات السياسية بعد عام 1979 ثورية فوضوية جلبت معها موجة من التشدّد والحروب، قيّدت السفر، وأغلقت أبواب الانفتاح، إلّا فرصًا قليلة أبقتها مفتوحة، سمحت بالمشاركة في دورة تدريبية عند الجيش المصري لقيادة سرايا استطلاع، خمسة أشهر في القاهرة، كانت كافية للتجول في شوارع الإسكندرية والاسماعيلية، وزيارة بورسعيد والمنصورة، واستكشاف خط بارليف في سيناء. أعقبها بعثة لدراسة الماجستير في علم النفس بجامعة عين شمس، ثلاث سنوات أضافت إلى التجربة عمقًا جديدًا، في التعرّف على القاهرة بأحيائها الشعبية والحديثة، وأهراماتها، والتجوّل بين كازينوهات الليل، وحضور حفلات كبار المطربين، وزيارة مسارح فؤاد المهندس وشويكار وعادل إمام في عاصمة فتحت النوافذ مشرعةً على عالم أوسع، وعلى قامات الأدب والفن ورّواد الحضارة في كل مكان.

لكن تلك النوافذ التي فُتحت في بلاد العرب ضيّقة في السبعينات، بدت وكأنها تُغلق بداية الثمانينيات، وكأنَّ العالم العربي بغلقها صار يتراجع، أولى محطات تراجعه كانت لبنان

منبع تحضّره. تلك الوردة الجميلة في بستانه الواسع راحت تذبل، تغرق في حرب أهلية تمزق أوصالها حضارة تنوير، كان ذلك واضحًا يوم عبرت اليها من سوريا حيث العنف المفرط والصراعات الطائفية، وتسابق الأبناء لتدمير بلادهم بتمويل عربي وأسلحة عربية وإسرائيلية، وتحوّل قسم منهم إلى قتلة، يستقوي بعضهم على البعض الآخر بحلفاء خارجيين.

أمّا سوريا، التي كانت بوابة العبور، فقد بانت في أول دخول لها خلال حرب تشرين (أكتوبر)، أنها مرشحة للتراجع بقوة، تأكد هذا في العودة إليها ثانية عام 2000 بقصد الاستقرار في ربوعها، بلدًا يستضيف العراقيين الراغبين في التخفّي عن أعين سلطات البلاد. لكن الاستقرار لم يدم طويلًا. ستة أشهر كانت كافية لتأكيد تراجع لم يترك دمشق على حالها متألقة، ولم يترك حيّ السيدة زينب، ملاذًا لأهل العراق، بعد أن حولوه هم أنفسهم حيًا يشبه أحياء الجنوب العراقي، تتداخل فيه التناقضات وتتفاعل وسطه مثيرات التراجع بامتياز.

إنّ تراجع الأمة لم يتوقف عند سوريا ولبنان، ولم يستثن اليمن دولة كان محكومًا عليها بالتراجع من قبل زيارتي لها عام 1986 كمبعوث لتأسيس التوجيه المعنوي لجيشها الفتي. شهر كان المفروض بقاءه هناك، تم اختصاره في عشرين يومًا بسبب سعة التراجع والملل. ولم يستثن كذلك السعودية، البلد الأغنى نفطًا، تلك التي زرتها مرتين: الأولى للحج عام 1973، والثانية للعمرة في 1985، زيارتان ارتبطت الذكريات عنهما بصورة شرطي يضرب

السيارة بعصاه الغليظة وسط الزحام، وآخر يوبِّخ شابًا تأخر عن الصلاة.. صور صغيرة بقت في الذاكرة تلخص حال أمة أضحت تتراجع. لكن الأسوأ في موضوع التراجع لهذه الأمة كانت ليبيا القذافي، خلال سنوات التدريس الأربع في جامعاتها (1996 ـ 2000). أربع سنوات عجاف، لنظام متهالك، جمع بين بداوة قديمة وركود حضاري، مما جعل الحياة هناك تجربة من الجمود. ومع ذلك، كانت هذه الفترة فرصة لإضافة بلدان جديدة إلى قائمة الرحلات، بينها تونس، التاريخ الممتد من الحضارة القرطاجية إلى العصور الإسلامية، وقبرص، تلك الجزيرة المقسومة إلى نصفين: جنوب يوناني يتطلع إلى أوروبا، وشمال تركي بدا وكأنه عالق في لحظة الاحتلال عام 1974.

▪▪▪▪▪

لقد تغير الحال مع بداية الألفية الثانية، وتبدل وضع العراق، فأصبح حق السفر مكفولًا لكل مواطن، بعد سنوات طويلة من العزلة والانغلاق. ومع هذه الحرية الجديدة، عادت الأمنية القديمة تخترق الذاكرة، تثير الرغبة في إكمال النصف الثاني من الطريق الأوروبي برًا، كما هو حلم السبعينيات. لم يكن الأمر مجرد رغبة في السفر، بل كان سعيًا لاستكمال ذاك الحلم الذي أخذ له مكانًا في تشكيل السلوك وتحديد الأولويات. جاء تحقيقه هذه المرة معكوسًا وعلى مراحل، بدأت بالقطار من لندن إلى باريس، تلك المدينتين اللتين تحفران في ذاكرة العالم معاني الحضارة والتاريخ. ومن باريس،

انطلقت الرحلة الأولى بالسيارة إلى هامبورغ في ألمانيا، لتتخذ شكلًا جديدًا من الطواف العائلي. تهيأت له سيارة من نوع فيات أيضًا (سبعة راكب) أخذت طريقًا يعج بالمناظر الطبيعية الآسرة إلى ميونيخ، ومنها إلى زغرب، عاصمة الكروات. طريق كل شبر منه يستفز الحواس ويثير الإعجاب، وكل منظر للطبيعة من حوله يتحدث لغة خاصة، مفرداتها جبال ووديان وغابات وجداول مياه، وكذلك كان الطريق من سلوفينيا إلى صربيا، ومقدونيا الشمالية، أشبه بلوحة فنية متحركة تبعث في النفس هدوءًا وسكينةً لا مثيل لهما. وبينما كانت السيارة تمضي قدمًا على طريقها نحو الحدود اليونانية، بدا البحر الأزرق وكأنه يلتقي بالسماء الصافية في الأفق البعيد. لحظات تداخلت فيها عظمة الطبيعة مع بقايا حضارة الإغريق القديمة، لتمنح المسافر إحساسًا بالعظمة والخلود، وكأنَّ الماضي والحاضر يتمازجان في تلك الأرض. كل هذه المشاهد كانت تتدفق قبل بلوغ معبر إبسالا على الحدود مع تركيا، ومنه الى مضيق الدردنيل، الذي كان في الماضي بوابة العثمانيين إلى العالم، وأضحى عبوره في الحاضر بعبارة ضخمة السبيل الى بورصا، العاصمة الأولى للإمبراطورية العثمانية. بورصا مدينة تحمل في طياتها عبق التاريخ والعظمة، منها بدأت رحلة أخرى الى إسطنبول، حيث المسجد الشهير آيا صوفيا، النقطة التي تم التوقف عندها في السفرتين الأولى والثانية. نقطة لم تتغير طبيعتها وما يحيط بها رغم الفجوة الزمنية التي تفصل بينهما أربعون عامًا. وعاصمة للدولة التركية بقيت كما هي لم تتراجع، حافظت على عظمتها

وسحرها، وما تغير من ملامحها كان الأفضل.

لقد أُعقبت هذه الرحلة رحلة أخرى امتدت نحو الشمال الأوروبي، الى مملكة السويد والدنمارك، وأخرى إلى الجنوب إيطاليا وفرنسا ومنهما باتجاه الغرب إسبانيا والبرتغال، وأخرى خارج أوروبا شملت أمريكا ودولًا من آسيا. محطات شكلت صورة متكاملة للعالم الآخر، بكل ما يحمله من تناقضات بين القديم والجديد، تركت كل دولة ومدينة أثرًا في الذاكرة، وتركت انطباعًا مدهشًا أو تفكيرًا متأملًا، لم تبقَ كل تفاصيله، تساقط بعضها مع مرور الزمن، نتيجة التدافع المحتوم لرواسب الذاكرة وشيخوخة الكلمات، واستبعد بعضها الآخر لكثرة المخزون، فتكونت على إثرها حصيلة هذا الكتاب عشرين فصلًا، اختيرت موضوعاتها وأماكن وقعها بالتأسيس على مديات الإعجاب ومقادير الاستثارة، أو العكس؛ كتاب أريد له تأشير تجربة شخصية ممتدة عبر الزمان والمكان تعطي صورة عن العالم قريبة من الواقع مليئة بالدهشة والانبهار، أو النقد وعدم الاتفاق... صورة بانورامية تختزل في طياتها سني العيش الطويلة خارج البلاد والتجول في الأرجاء، تحمل في تفاصيلها حكاية إنسان قضى ردحًا من الزمن في البحث عن المعنى الفلسفي للحياة، وعن التواصل مع عالم أكبر لتحقيق حلم أكبر في السفر والطواف.

لندن ـ 2025

بين البصرة وبغداد: رحـلات وحكايات

بعد أربعين عامًا

أفقت من حلم، راودني مرارًا مع بزوغ الفجر. وقفت جوار شباك يطل على الشجرة العملاقة، أتأمل السماء، وبقايا نجوم متناسقة في خطوط الضوء واتجاهات المكان، فبديت وكأني أردّد دعاءً بصوت مكتوم.

لمَ الصوت المكتوم؟ سألتْ حال استفاقتها من النوم قلقة.

فأجبت: «إنه الفجر، طالما رددت جدتي عند توسد حضنها الدافئ، إنه الوقت المحبذ للتمني، عندما يكون الناس نيام».

سألت ثانية أو أعادت صيغة السؤال عن شكل الأمنيات التي استحقت درجها في قوائم التمني، والناس نيام، أجبت دون ترد: «أتذكرُ ليلة الزفاف، وسؤال سألتيه عن الأمنيات، لحظة وقوفك مبتسمة بمواجهة شط العرب في مدينة البصرة الفيحاء قبل أربعين عامًا من اليوم.

قاطعت قائلة: «كانت حول رغبتك الطواف حول العالم، دولًا

ومدنًا وأصقاعًا، تسدّ بمشاهدها فراغات كانت ماثلة في خلايا الجغرافية الموزعة في العقل».

نعم هي كذلك، أمنية باتت تعاودني على شكل أحلام، وجدتُ في تطلعي إلى السماء وقتًا في إنضاج فكرتها.

«خير البر عاجله»، عبارة قالتها، وسألت: «ومن أين ستبدأ؟»

جاء سؤالها بصيغة الموافقة على تنفيذ تأجل أربعين عامًا بسبب الارتباط الوظيفي ومشاغل العائلة، وبناء مستقبل في عراق وعر، وكانت الإجابة «سنبدأ من العراق، أصل البداية، ومن على أرضه المقدسة سنختار».

حلَّ اليوم الثاني جلوسًا في الطائرة الإماراتية عند الكرسي المجاور للنافذة شبه البيضاوية. اقتربت من مطار بغداد، وكأن في اقترابها عبور للزمن حفنة سنين، لم تتغير طوالها، أرض المطار، ولا مشاهد اليباس لحشائشها والأشواك، وكأن الطبيعة أبقتها عارية، حزينة تشكو الإهمال، جوار قصور رئاسية أضحت أطلالًا، نبت القصب على حافات بحيراتها الصناعية، واختفى سمك الشبوط من مياهها الراكدة.. مشهدٌ استدرج الماضي البعيد من الذاكرة، كان محبوسًا بين جدرانٍ مغلفة بالاكتئاب.

سماءُ بغداد وقت الهبوط، قريبًا من المغيب، صافية تغطيها سحابة لم تكن غيمًا، ولم تكن كذلك دخانًا، كان كأنه الوهج الذي تخرجه فتحات العادم لمحركات الطائرة النفاثة، قالت «سيختفي ليلًا كي يعطي بغداد سعةً في النظر هو الأحلى من النهار».

قلت بصوت يغطيه الشجن: «ومع هذا تظل بغداد فتاة هي الأحلى، تُعشقُ في الليل وفي النهار».

لم يتغير مدرج الهبوط والإقلاع لعقود، ولا قاعات المسافرين وسقوفها من الأسطوانات البيضاء المتدلية بهدوء ناعس، ولم تتغير كذلك أساليب المعاملة، وتشابه الأسماء في سجلات أمنٍ تورمت من كَثرتها. وضع الضابط ختم الدخول على الصفحة الرقم تسعة من الجواز، بعد التأكد أن القادم بعد غياب طويل ليس الشخص المثبّت في السجلات.

غفوة آخر ليل بغداد، قبل الأذان، انفتحت طوالها أبواب اللاشعور بتداعيات أفكار محبوسة، أو كوابيس، لم أعد أميّز في مثل هكذا مواقف بين التداعيات وبين الكوابيس في نوم قلق. ومع هذا، فالعقل نصف النائم ميّز شيخًا ثمانينيًا مظهره وقور، يرتدي جلابية بيضاء ممسوسة بمكواة فحم قديمة، وكوفية أهل الجنوب، سلّمَ سلامَ متدينٍ من قريب، يُلزم رد التحية وتقديم الاحترام. قال: «مرحبًا في بغداد»، وسأل عن حيرة في تحديد الطواف والاتجاه، تبرع من عنده لتخفيفها، معروفًا يقدّمه من أجل آخرة عنها ينتظر، هكذا قال واستمر مخاطبًا: «حيرتك سيدي، تيه، وضيق أمرٍ لا تعرف له اتجاه، أنصحك عدم اتباع العواطف، ولا من سبقك في المشي على الدروب ذاتها».

أجبت وما زالت الحيرة تسيطر على غالب تفكيري: «إذًا سأبدأ من وادي السلام بزيارة قبور من غادرونا، ومنها أنطلقُ نحو العالم الفسيح».

أجاب باستهزاء باهت «زيارة القبور لا تجدي نفعًا في هذه الأيام، ولا في قادم الأيام». ضحك من بعدها بصوت معلم رخيم، وأتم قوله: «ألم تصبح أكوام حجارة». لكن زيارتها وفاءً لمن سبق، وسعيًا لتخفيف الهموم، وفكّ ضيق الصدور، هذا ما قاله الأجداد يوم ضاقت بهم الأمور.

عاود الضحك بطريقة وكأنه يقهقه، وقال: «ليس كل ما قاله الأجداد والأولون صحيح، لقد تغيّرَ الزمنُ وأنتم باقون لا تتغيرون. فَتِشْ عن مكان تكثر عند أهله الهموم لتقارن بين همك وهمهم فتهون عليك الهموم، ويتبدد ضيق الصدور». قلت: «البصرة وأهلها، والنفط وما بقيَّ من موانئها، وذكريات زواج في ربوعها وفصل من فصول الشباب». وقبل أن يُعلقَ قولًا، جاء الصوت قويًا من الجامع القريب (الله أكبر)، فأختفى الشيخ بلمح البصر، واستمر النوم عميقًا، مع بقاء صورته في الذاكرة القريبة، كأنها رُسمت بماء الذهب، وكأنه حدّد البصرة بداية المشوار.

▪▪▪▪▪

كان الطريق السريع إلى البصرة طويلًا، تتسابق على سطحه الموسوم بصلاحية السير، سيارات الدوج الأمريكية (چالنجر) بسرعات تتجاوز المائة والسبعين كيلومترًا في الساعة، من دون تحديد أو رقيب، إلا من سيطرات عسكرية تنتشر وسطه بين الحين والحين للتدقيق الأمني، لا علاقة لها بالسرعة وحوادث فاقت في كَثرتها خروقات الأمن المتفرقة.

رتابة الطريق، وما حوله في المحيط تدفع إلى الكسل، وتشتِّت الانتباه بين عداد السرعة وبين قواعد أسمنتية هي بقايا أسيجة أكلها الأعراب الساكنين قريبًا منه، وتلاعبوا بممراته، وسرقوا الدعامات الجانبية، باعوها بقليل من الدنانير، ألزموا الدولة إعادتها بمليارات الدنانير، هم هكذا تعودوا التلذذ في الكسب من حصة الدولة، وإن كان على حساب أرواح تزهق، وأموال تدفع من استحقاقات الرفاه المستقبلي.

وقفت إلى جانب الطريق، بعد انتهاء تحويله إلى ممر واحد لتسعين كيلومترًا، عجز أهل الحاضر إكماله ممرين، لا أحد يعرف السبب. أردت إراحة ساقيَّ بقليل من المشي، وتبديد النعاس وأخذ جرعات من الهواء قليل الغبار. قالت: «لنتبادل أدوار القيادة، فالطريق طويلة». وحال جلوسها خلف المقود، تقدم منها راعي غنم كان قريبًا، سلم وسأل عن أسباب الوقوف في هذه المنطقة التي أسماها بلهجته المحلية (المنگطعة).

حاولت مقاومة غيظي وسألت: وهل هناك ما يمنع الوقوف على حافة طريق عام؟

ضرب عصاه في الأرض وقال: «أولا تعلم بأن أولاد الحرام بالمنطقة أكثر من أولاد الحلال، والسلّابة في كل مكان، وأنت لوحدك مع امرأة؟ هذا وحده يكفي لعدم الوقوف».

صارت أصابع يديها تتراقص من حول المقود، لم تدع مجالًا لتبادل الحديث مع الراعي المنصف، ولا إكماله بالشكل المعروف.

رفعت يديها ثقيلة للتعبير عن الشكر من خلف الزجاج الجانبي، وضغطت على دوّاسة الوقود، فأخذت السيارة مكانها على الطريق، بسرعة فاقت المعتاد. ولما استوت وهدأت المشاعر، رحت في نومة مستعجلة، حضر في أولها ذاك الشيخ الجليل، ظهر هذه المرة بهيئة قاضٍ وقور يمسك مطرقة. حاولت الاستفسار منه عن كثير من أمور ظهرت على الطريق، وقبل التفوّه بكلمة، قال: «لقد نجحتَ في الامتحان، وستتأكد أن التجول في البصرة والسير على هذا الطريق في هذا الوقت العصيب سيعرفك بنفسك، والعراق من حولك، والمستقبل الآتي من بعدك».

من أنت لتحكم هكذا؟ وكيف لك أن تغيّر هيأتك؟ سألته، فابتسم هذه المرة ابتسامة عدم رضا، وسأل: ألم تود السؤال عن حال الطريق؟

نعم، لأني واثق من صعوبة التعرف على ما جرى ويجري، وإن سألت أهل الشأن، ستأتي الإجابة محورة تبعًا لموقع المجيب، والمكان، والوقت الحاكم للإجابة.

عاود الابتسامة بهدوء الناسك وأجاب: «سببُ التحويلة على الطريق وكثرة الحفر، والتشققات الظاهرة عليه، مقاولات أُحيلت، ومن بعد إحالتها أحيلتْ، ومبالغ منها اقتطعتْ، على أحزاب وُزعتْ، جميعها سكتتْ، بقالُ السلطان آخر من عليه رَسَتْ، وزّع منها كثيرًا، ولم يبقَ من مال وجبْ، فأخذ ما تيسر من آخر دفعة وهرب».

مرت السيارة على حفرة هزّت بدنها، صحوت بسببها مفزوعًا لأتبين أن الشيخ حلم، يتوافق مع الرغبات الشخصية في تفسير الواقع.

▪▪▪▪▪

اقتربت الشمس في محاقها من حال الغرق في صحراء التيه الزاحف صوب البصرة، وانعكست أشعتها خفيفة على مجموعة بيوت في الطرف الشمالي شُيدَت حوسمة[1] على أرض الدولة. وارتد الباقي منها على الباقي من البصرة خيوطًا حمراء باهتة، مخلوطة باللون الأصفر. شوّه الغبار المتصاعد من كل الأطراف جمالها الأخّاذ، وحال دون التمتع بمنظرها المبهر لمن قضى ست ساعات نصفها قيادة على طريق دولي رطب، مليء بالتشققات والحفر.

دقائق صمدت هذه الشمس الشاهدة على علل البصرة، توارت خلف أفق مفتوح لتثير ذكرى أول تواجد على أرضها خدمة في الجيش. يوم كانت «الشعيبة» اسمًا يرمز إلى القوة، وعساكر تمتثل للأوامر ضبطًا، تعطي الحياة قدرًا من القوة، وبصرة تزهو بأهلها الطيبين، وأنهارها النظيفة، ونواديها المزدحمة، وميناء معقلها النشط، وزوار الخميس يأتون من الكويت وأطراف الخليج. أسموها عروس خليجهم، فكانت حقًا أحلى عروس، وقبلة سياحة شتوية، تستحق التقبيل. لكن أهل الخليج تركوها عروسًا تغتصب

1) كلمة شعبية شاعت بعد 2003 تعني التجاوز على أموال الدولة وسرقتها علنًا، وتصف مجموعة القائمين بالفعل بالحواسم.

ليلة الزفاف، تبادلوا وأهلها والجيران وأبناء العمومة والزمن الغابر، خناجر مسمومة لطعن طهارتها، غسلًا لعارهم المأزوم. شاخت من بعدها وهي في سن الشباب، حتى بات من يدخلها بعد فراق طويل، ومن تركها عروسًا جافاها الزمن اللئيم، يسأل لماذا شاخت قبل الأوان؟

أين بواخرها، وتلك الحركة التي لم تهدأ على أرصفتها ليلًا وفي النهار؟

أين البنات الحسان، وبحارة ذاك الزمان، و(شناشيل) بيوت تزين واجهات لها مزخرفة بأعواد الخشب الزان؟

التفتُ صوب اليمين، وأخرى نحو الشمال، أقلِّب في رأسي وكأنه قربة مثقوبة في بيت من الطين، تتساقط منها الأشياء. فتشت بينها عن تلك الأنهار التي زادت عن الستمائة نهر قبل الزفاف، لم أجد بالمعنى الحرفي نهرًا كامل الأوصاف، كأنها أضحت دوارس أنهار، ملأها الجهّال زبالة هواؤها مشبع بنفاياتهم، وإطارات قديمة، وأبدان مبردات صدئة، وقناني مياه، كأنهم ينتقمون من أنهار بصرتهم، أو تبلدوا فأضحوا بلا إحساس.

سرتُ مسافة ثم توقفت عند الناصية، وقبل معاودة السؤال عن «ساحة سعد»، وسائق الدبابة الذي هدّم تمثال الرئيس، وتلك الوجوه النظرة، وابتسامتها السمراء، أخذت نفسًا عميقًا من شدة الأسى والاكتئاب. وفي وسط الاكتئاب تخيلت سماع صوت آت من جوف الصحراء، كنت قد سمعت نبرته من قبل، فشككت باقتراب حالي من هلوسة أنتجتها شدة التعب.

دعينا نتوجه إلى الفندق، قلت، فكان فندق البصرة الدولي، خمس نجوم فيه الماء الحلو مضمون وكذلك الكهرباء، قصدناه إلى موقعه على شط العرب، محطتنا الأولى لاستراحة سفر لازمة بعد ساعات الطريق. باحته الوسطية المميزة هي ذاتها يوم كان اسمه الشيراتون، وزرع يتدلى من شرفٍ مطلة يعطي الباحة خيالًا وسعةً للمكان، كأن خضرته أرجعته في العمر عشرات السنين إلى الوراء يوم كانت البصرة ناهدةً ساعات الزفاف. تبدلت بعد زفافها اللوحات الزيتية المؤطرة على الحيطان، وتغير الفرش، وبعض خطوط الزخرفة، وكذلك مكان الاستعلامات. نظر موظفها نظرة استغراب، كأنه أدرك في العقل علامات تعجب واستفهام، فبادر من جانبه بتقديم شرح موجز عن الفندق، وفي أثناء تسليمه المفتاح قال: «لقد حُرق بعد السقوط عمدًا، لينهب الجهّال موجوداته وأشياءه والأثاث، ويسجلون الفعل ضد مجهول، وأعيد ترميمه استثمارًا واستبدل الاسم إلى البصرة الدولي، وأكمل قوله، البصرة سيدي تستحق مثل هذا الفندق وأكثر، لأنّ فيها ستة آلاف وخمسمائة شركة، وفيها قنصليات، وجامعات، ومراكز أبحاث، ومنافذ حدود، وشباب عاطلون».

دون سيطرة على الذات المتعبة، وكرد فعل انفعالي فلتت مني العبارة (نعلة الله على الشيطان) سمعها نزيل بهندام نظيف، قال: «لمَ تلعن الشيطان؟، كل ما جرى ويجري في البصرة لم يفعله الشيطان، ولا دخل له بمثل هكذا أفعال، إنها من فعل إنسان، فاقت شيطنته ذاك الشيطان».

رصيف الشط

صحونا من نومنا العميق على ضوء بداية النهار وعلى وهج الحرارة، المصحوب برطوبة تتسرب من الفتحة التي أبقيت صغيرة لتبادل الهواء، فكرتُ بتغيير خطة التجوال، وقفت أمام الفندق الذي استضاف الكبار، وجدت كومة أزبال تتوسد الرصيف، وألواح خرسانة تطوّق المكان، حتى الأشجار الباقية نشازًا لا تتحرك، كأن إنسان هذا الزمان والقدر جاءا عامدين لتخريب الجمال. مشيت على رصيف الشط قبل الفطور، تخيلته مرهمًا لرتق الجراح، فلم يكن كذلك، إذ كانت السماء في البصرة السابحة في الحرارة والرطوبة ليست على وئام مع أرضها، والهواء في أرجائها كأنه معتقل.. رسائل عدم الرضا حملتها الرطوبة الخانقة واضحة لا لبس فيها بعد شروق الشمس، حتمت أن تكون البداية من تمثال «السياب»، شاعر المعاناة والألم، وحمامة وقفت على يده الممدودة مشدوهة، كأنها تناجي تلك الروح التي أبقتها الملائكة هائمةً، تعتب في هديلٍ حزين على من تركها تحوم غريبةً في المكان. حمدتُ الرب على نجاة التمثال من تجار النحاس، لم يبيعوه قوالب مصهورةٍ أيام القتال، ولم يمحوا ذكراه من هذه البصرة التي وضعت في غربال للقدر، يتساقط آليًا من فتحاته كل شيء جميل، حال هزّه من قبل السياسيين. هم خير الناس في الهزّ في جميع الأزمنة والأوقات.

نظرتُ إلى الماء في الجوار، كان هادئًا إلا من قارب يدفعه محرك صغير، يعكر صفو العبور إلى الجهة الثانية من الشط، يقل

شخصين يؤشران معًا على باخرة أبحاث المركز البحري ترسو صدئة جوار الرصيف. قال الواقف على مدخل مهمل يفضي إليها: «ما زالت تنتج أبحاثًا»، قلت مع نفسي «لكن المشكلة ليست في الأبحاث، بل في الشمس التي ترفع الحرارة في النهار، وتضاعف وقع البلادة في عقلٍ لا يعير اهتمامًا لتطبيق الأبحاث».

▪▪▪▪▪

كان الرصيف إلى الباخرة ومنها إلى الأمام مكسوًا بحجر مستورد من إيران، بعد فشل إكساء سبقه عدة مرات، أبقى وسطه حفرًا، وكأنّ الحجر المرصوف قد اقتلعته أرجل شباب يتسكعون على حافاته منتشين بمنتجات الأفيون، أو يتحدوّن الوقع بحبات من الكريستال، يُمَنونَ أنفسهم بإعادة إعلانه مقاولة رصف جديدة تعالج بطالتهم، شباب غارقين في الهموم. غابت من ناصية الرصيف تلك المقاهي التي كانت تتزاحم على حافات المياه بعوائل بصرية، وأخرى من السياح، وظهرت في مكانها مصاطب جلوس بُنيت بعد رحيل الفن وغياب ألق العشق المخمور. يبست أشجار الحناء عطشًا، وذوت بشكل غريب أنساق النخيل الشامخة على شاطئ التنومة المقابل. نبتت بدلًا عنها بيوت بلا انتظام، تكدست على جوانب الشوارع بشكل فوضوي، تتباين في ارتفاعاتها وألوانها وأشكالها. بذخَ أصحاب البعض منها وأفرطوا في زخرفتها بينما وقف البعض الآخر متواضعًا، بسيطًا، متمسكًا بقدر من العراقة. أسطحها المتعرجة ونوافذها المتباينة في الأحجام والتصاميم أضفت على المشهد شعورًا بالغرابة والتفرّد، كأنّ

كل شيء فيه كاذب أو مشوّه بضمنها الألوان التي بدت ليست صادقة، وكأن الزمن قد ترك بصماته المختلفة على كل بيت بشكل منفصل.. إنه تنوع صارخ، خلق سيمفونية بصرية فريدة، تمتزج فيها الفوضى بالجمال، وتجتمع فيها الفروق لتروي قصة مكان تشكّلَ من تجاوزات ما بعد التغيير لعام 2003، لا تساعد الذاكرة على الاستدراج، ولا تشجع على إكمال التجول مشيًا، فكانت العودة إلى الفندق لتناول الفطور معًا واللجوء إلى السيارة حلًا هو الوحيد لجولة أخرى صوب المعقل، والميناء، ومحطة القطار وجزيرة السندباد.

أخذتُ من شارع الجزائر طريقًا يؤدي إلى تلك الجزيرة، بدا وكأنّ حافاته قد زحفت إلى وسطه فصار أضيّق مما كان أيام زمان، وبانت المعالم غيرها، كأنها تغيرت فلم يعد أي منها دالًا على المكان. عندها أضحى السؤال لازمًا للاستدلال، وَجهتهُ الى شاب يقف خلف عربة، يبيع من عليها طعامًا في لفائف صمون، رائحة الزيت المحروق من كَثرة استعماله قليًا لبيض مقاوم لحرارة الصيف، قد غطت محيط الدائرة بنصف قطر لا يقل عن عشرة أمتار. فكان السؤال: أين قيادة القوة البحرية؟

أشار إلى جانبه من دون أن يرفع رأسه عن المقلاة.، ودون أن ينبس بكلمة. قلت «لكنها صرائف وبيوت مشيّدة دون انتظام». رفع رأسه هذه المرة وقال بفخر الواثق من نفسه «كانت». ثم توقف عن تقليب محتويات المقلاة قليلاً وأكمل: «دخلناها يوم تركها بحّارتها أول ساعات السقوط، أعلنّا من وسطها الانتصار، شيّدنا على أرضها بيوتًا نعيش فيها الآن».

ركز على الوجه بشكل حانق وأكمل «ما نفع البحرية ونحن جياع؟».

وأين النادي العسكري؟ سألته، فأومأ بيده صوب اليسار.

لكن ما أراه مجرد مسقّفات. رد بفخر: «نعم، صار قسمًا منه مخازن، وقسمًا سكنته عوائل، والآخر تعشش فيه الغربان». التفت حوله وعاود الكلام «ألا تعلم أن العسكر الجديد لا يحتاج نوادٍ للترفيه، لأنَّ المنتسبين منغمسون في القتال ليل نهار، وإن سنحت الفرصة لأخذ قسط من الراحة ينغمسون في أعمال لتحسين الحال المعيشي، أو يستعدون لقتال ثانٍ مع عدو مجهول». عند هذا الحد المسموح تركتهُ، وهو من جانبه لم يعر أي اهتمام، حتى عاود الانتباه على المقلاة دون سلام. سرتُ قليلًا ثم توقفت باتجاه برج مراقبة، هيكله الكونكريتي يدل على أنه مطار البصرة القديم، وفندق شط العرب التراثي الشهير. لا حاجة هنا للسؤال، فالمطار ومدرجه تقطعت فيه الأوصال، ونمت من حوله الأبنية والعشوائيات، وسُيِّج الفندق بقطع الخرسانة اللعينة بعد استعماله مقرًا للقوات. توقفت ثانية عند آخر كتلة خرسانية، اتكأتُ عليها، هنا بالذات حَضَرتْ صورة الملك غازي يوم افتتاحه منتصف الثلاثينات فندقًا عصريًا آنذاك، وحَضَرتْ كذلك عناوين كتبت عن المطار في حينه، (أنه قد أنشئ ليكون همزة الوصل بين شرق العالم وغربه). قلت لحظتها: «ها قد بات في نهايته خرابًا بلا همزة وصل».

اختفاء الجزيرة

نظرت إلى جهة الجزيرة السياحية، التي أحسست يوم وصولي اليها لقضاء شهر العسل ما معنى أن يكون للإنسان عائلة، قلت وأنا أبلع عجبي: «لم أرَ معالم جزيرة، الذي أراه واجهات بيوت مبعثرة أُنشئت حسب أعراف الحوسمة وقوة النفاذ، تتشابه في ربوعها الشواهد والآثار، وكذلك شحوب الألوان». من بعد هذا سألتها وهي جالسة في الجوار: هل ترين ما أراه أم أني قد أصبت بعمى الألوان؟

ردت والحسرة ملء شفتيها الجميلتين: «أرى الأغبر لونًا لها، كأنه صار سيدًا عليها، وكأن باقي الألوان اختفت من أمامه قسرًا». أجبتها والألم بادٍ على مخارج الكلمات: «أو طُعِنتْ بخناجر الجهل الآتية من الريف، ألم تلاحظي أن اللون الأخضر في هذه المنطقة التي كانت مكانًا للسياحة ومطارًا للبصرة المكنّاة يومها بالفيحاء، قد اختفى إلّا من نخلة تتحدى الملوحة والزمان، بقيت شامخةً تنازع البقاء، تبكي وحشتها في لهيب النهار».

كانت المنطقة التي تتوسطها النخلة مقفرة، كأنْ أهلها البصريون الأصلاء قد انسحبوا من واجهتها أمام زحف العشيرة القادمة من خلف مقابر الوادي السحيق، لتنافس حضارتهم. يبدو أنها تمكنت منهم، باتت تحكم المكان بقوة السلاح، ويبدو أن كبار البصرة هجروها، مثل أهل بغداد، أو انعزلوا ينتظرون الخلاص على يد قدرٍ تقول عرافة مشهورة تخفي أصولها اليهودية أنه مكتوب. إلا شيخًا ثمانينيًا، بان من خلف نظارته الزجاجية السميكة لمعان

عينيه، بطريقة توحي وحسن ملقاه، والجلوس في ظل النخلة إياها، أنه لم يبرح ماضيه، وأنّ إصراره على ارتداء الجلابية البيضاء، حرص على العيش في الماضي وترفه المعهود، وهو مثل غالبية البصريين، من لهجتهم وحركاتهم أناس يسهل أن تحبهم. توقفت قربه ثم ترجلت لأسأل عما جرى في هذا المكان؟

رد السلام بلسان البصريين المعسول، تُشَم منه رائحة استنكار ملفوف بالدهشة، أعقبه بالقول: «لم يعد لنا وجود نحن البصريين أصحاب المكان، ابتلعنا أولئك القادمون من بعيد، خربوا عقول صبيتنا بطاعون المخدرات، سمّموا أفكارنا وآراءنا عن الحياة، والوطن الذي يريدون. كانوا وما زالوا أدعياء دين، تعمدنا انتخابهم تقربًا إليهم، وتفاديًا لشرورهم، حتى باتوا أسيادنا في الدنيا، ويقال في الآخرة هم كذلك أسياد».

لقد ملأ قوله عقلي المرتاب بشيء لا أعرفه، لكني أستطيع القول إن أول انطباع تركه عن نفسه أنه إنسان حكيم، وإنه صادق، لا أدري مدى صحة هذا الانطباع ومدى صدق هذه الاحكام، ولكنه مجرد إحساس. أمالَ رأسه قليلاً الى اليمين وأكمل: «انظر إلى ذاك البناء، فندق شط العرب الشهير، نام فيه الملك غازي، ومن بعده فيصل الملك الذي قتلناه، ونوري السعيد، وأمراء الخليج، وأقامت فيه الروائية الشهيرة أغاثا كريستي عدة أيام». من بعدها غيّر مجرى الحديث، جعله بصيغة سؤال:

ألا يستحق التخليد؟

لمَ يضعونه مقراً لقوات أمن يمكنها الإقامة في أي مكان؟

لمَ يجعلون البندقية قَيّمَةً تعلو التاريخ؟

عاود تغيير الصيغة لتكون على شكل راوٍ يجيب على أسئلته وأخرى باتت تتوالى عليه تباعًا» لكنهم يجهلون وقع التاريخ، لأنهم لا يفهمون إلّا البندقية سلطة بزنادها يحكمون. لقد ضاقت بنا البصرة سيدي».

لِمَ لمْ تحتج؟ سألته فأجاب: «لا فائدة من الاحتجاج.. لا فائدة من التمرد.. إنها أحكام الديمقراطية التي لم يفهموا منها شيئًا سوى الانفلات... ثم أني لوحدي وإن صرخت محتجًا لا أستطيع اصلاح من حولي، ولا أتمكن من تغيير الطباع، كي تعود الحال الى ما كانت عليه أيام زمان، بالإضافة الى أنّ رصيد صبري قد نفد. هدأ قليلًا، أعاد التوازن إلى ذاته المنفعلة، سأل عن الوجهة إلى أين؟ ولما عرف القصد تجولا لاستدراج صور الماضي البصري الجميل، استأذن الرفقة، فكانت المحطة القريبة جسر خالد بن الوليد، قال: «توقفْ هنا، انظر إلى ذاك النادي البحري، في زاوية من الشط، ما زال يرقد ميتًا من ضربة جاءته عمدًا من قوات الاحتلال سنة 2003، لم تصلحه السياسة لأنها لا تحتاجه مكانًا للترويح، فالترويح عندها بندقية ومهوال، ولا تحتاج قاعاته لمناقشة شؤون البحار فهي لا تهوى البحار. ثم أن مياه العراق تعتقدها محروسة من الإله، لا حاجة لها إلى قوات بحرية، ولا إلى نادٍ يتسكع في صالاته البحارة الضباط». التفت من بعدها إلى ضفة الشط القريبة، وأضاف: «لقد شوّهوها، بنوا عليها أكواخًا بغير انتظام، وسط هذه الأكواخ تعقد صفقات بقصد الابتزاز، تحسم «فصول» العشيرة ممهورة بدعاوى

الابتزاز، تصلها المخدرات عبر هذا الجسر الذي سيتغير اسمه حتمًا، تُخزن في دكاكينها، يعاد تصنيع بعضها، ومنها توزع جملةً ومفردًا إلى البصرة، وباقي المحافظات».

كفى شرحًا أيها الشيخ البصري، لنغادر المكان، قبل أن نصبح سلعة للابتزاز، قلتها بوضوح، فابتسم بحسرةِ ناسك، وقال: «لا تخشى الابتزاز، فهم هنا لا يعرفون أصلي، يسمعون كلامي بحكم العمر، يحسبوني صديقًا لهم لأني لم أحتج، وعمومًا دعك من هذا القلق غير المبرر وأسأل عن المكان الذي تريد، فالجسر يفضي إلى مناطق عدة جميعها كانت ساحة قتال فيها ذكريات».

سألته عن جزيرة السندباد التي شككت بواجهتها، فأشار بسبابته صوب أطلال لبقايا جزيرة، وسأل:

ما شأنك بالجزيرة؟

أتذكرها، قِبلة سياحة، يتبارك بها العرسان، قضيت في أحد بيوتها (شاليهاتها) الرقم 43 شهر عسل ما زالت حلاوته باقية تحت اللسان.

غصّ الشيخ في ضحكته حتى كاد يختنق، ثم قال: «كانت جزيرة»

لكنها موجودة، أتذكر مدخلها.

لم يشأ أن يهتم، وكرر القول: «كانت هنا جزيرة اسمها السندباد، في أول يوم احتلال استولى عليها المعدان، والشاليه التي تحاول مشاهدتها إحياءً لذكرى الإقامة فيها يوم الزواج، ترعى

في باحتها أربع جواميس، لعائلة بيت عليوي تدير عصابة تهريب.

وما أدراك بكل هذا؟ سألته، فضحك مرة أخرى وقال: «إني أقيم هنا، وسأبقى هنا شاهدًا على التلويث المتعمد لحاضر البصرة، أنتظر اليوم الذي تعود به إلى ماضيها بصرة مثلما كانت، وستعود».

فاتحة العريف جبار

قالت: «حانت العودة إلى بغداد فجعبة العقل قد امتلأت»، فكان لها ما أرادت. وبدأنا الرحلة بقصد العودة صباح اليوم الرابع. سمح الوصول عصرًا بأخذ ما تبقى من اليوم استراحة طوعية، وفي اليوم الذي تلا، جاء صوت من الهاتف النقال يؤكد وفاة العريف جبار، حال بلوغه السبعين من العمر. سارع الأبناء إلى إقامة عزاء له في الجامع القريب من سكنهم قضاء «الحسينية» المحسوب على بغداد جغرافيًا وعلى الجنوب العراقي اجتماعيًا. هذا المكان الذي حطت به راحلتهم أولًا بعد مغادرتهم مدينة العمارة عام 2003، يوم استلام الابن الأكبر قحطان وظيفته ملاحظ في أمانة العاصمة بغداد، بتوصية من رجل دين يشارك حزبه في الحكم.

كبير العشيرة أو رئيس فخذها في «الحسينية» كان قد سكنها يوم بدأت الدولة في ثمانينات القرن الماضي، تخطيط مدن تجاور بغداد أملًا في تخفيف الضغط عليها ضغطًا ناتجًا عن تكاثر السكان. هو من أشار على ابن عمه جبار بالسكن في الحي الذي يقيم فيه، وباقي أبناء العشيرة القادمين من العمارة موطنهم الأصلي. نوّه

يومها إلى أن جميع أبناء العمومة يسكنون هذا الحي، وعوائل أخرى من عشائر جنوبية أخرى تسكن باقي الأحياء. قرر عندها أخذ الحي هذا موطنًا جديدًا لتقاعده رغبة منه في الحفاظ على التقاليد، والشعور بالاطمئنان بعيدًا عن أرض الأجداد. تكاثرت الأعداد، ازدحم المكان، تغيرت التقاليد، ضعفت سلطة القانون، وصارت الأحياء تسمى بالتسميات الدارجة على العشائر الساكنة، وصارت الثقافة والقيم السائدة عشائرية، وأصبح العيش وسط القضاء أقرب وقعًا إلى الريف القائم لمدن الناصرية والعمارة، وأبعد كثيرًا عن وقع الحياة البغدادية، حتى صارت الدلالة وسطه لمن يأتي من خارجه أسهل بذكر العشيرة من دون الاسم الرسمي للمكان.

توجهت صوبه عصرًا لقراءة الفاتحة على روح المرحوم، حق علاقة قديمة استمرت فاعلة يوم كنت آمر فصيل في الفوج الثالث لواء الخامس عشر، وهو العريف الأصلي للفصيل. أوقفت السيارة عند جوقة شباب كي أسأل، لم أجد الإجابة، فالواقفون من أبناء عشيرة تعادي عشيرة جبار، (تگاومها) لخلاف على سرقة دجاجة. تكرر السؤال عند جوقة ثانية وثالثة، أبطأتُ حركة السيارة عندها، فتقدم مني شاب حليق الرأس بطريقة تظهر شعره المُنشّأ مثل ذاك الشعر الموضوع فوق خوذ المقاتلين الرومان، لونه أسود فاحم. أعدت عليه السؤال، فكان حذرًا من الإجابة، فالعشائر هنا، كل منها مطلوب للآخر، وجميعهم مطلوبون للقانون، فاعتادوا التغطية، وعدم الإجابة على أسئلة الغرباء، بل والاندفاع أحيانًا

وفي حالات الشك بسوء النوايا إلى التضليل في إجابات تعطي عنوانًا بعيدًا عن المكان المطلوب. لكنه اطمأن بعد أن عرف الغاية، قراءة الفاتحة على روح جبار أحد وجهاء عشيرته، قفز إلى السيارة مثل قرد في مقتبل العمر، وقال: «عد بالسيارة إلى الخلف، واتبع إشارتي».

بدأ من بعدها سلسلة أوامر متواصلة ترهق أعصاب من كانت أعصابه ناقعة في ماء بارد قائلًا: «رَكِّزْ على الطريق». قالها بصيغة الدليل المتمكن، وأعقبها سلسلة تحذيرات:

هذا «تُكتك» سيقطع صاحبه الشارع عرضًا.

ابقَ متيقظًا سيتبعه آخر، وآخر.

لا تبتئس هم هكذا يسيرون، سلسلة بالرتل المفرد، مثل رهط مشاة يسير جنوده على أرض وعرة، وبعد أن أكمل أوامره، سألته: وما أدراك بهذه المصطلحات العسكرية؟

أجاب: «أنا شرطي في الحمايات الخاصة (FBS)» ثم أشار الى ضرورة الاستماع إلى ما يصدر في الأرجاء من ألوان أغان وأهازيج للتمتع وقضاء الوقت.

كان «التكتك» الأول من بينهم أو قدوة الرهط كما شبهه الشرطي الدليل يصدر صوتًا مجسمًا للمطربة غزلان بعلو نبرة تشبه تلك التي تحدث في قاعات الأعراس تصم الآذان. ومن بعد هذا التكتك، تكتك آخر يكاد يلامسه، من وسطه ظهر صوت الفنان حاتم العراقي، يغني مقامًا بوقع يعلو مستواه الأول قليلًا حسب

الظن. وثالث لمطربة ريفية، يكاد صوت الطبل وآهات المنتشين تخنق صوتها الشجي. ومع هذا يمكن تمييزها من بحة الصوت، أنها البنت الأكبر لحمدية صالح.

ترك التكتك الرابع في خط سيره، مدركًا بفطنته أنه بعيد نسبيًا عن النزول إلى معترك الشارع والتأثير فيه، وأدار بصره محذرًا من سيارة كيا جاءت تسير بالمواجهة عكس السير، وقد أمسك سائقها المقود بيد واحدة، بينما تدلّت اليد الأخرى من على الباب اليسرى كأنه لم يسيطر عليها، أو وضعها هكذا صيغة استعلاء على الشارع وثقة مفرطة بالذات، ولتأكيد هذا الاستعلاء والثقة لا إراديًا، وضع بين أصابعه سيجارة لم يُشاهَد أنه قد أخذ منها نفسًا. حمولته راكب واحد وخروف أبيض، قال الدليل عباس بصيغة أمر: «لا تنحرف عن الطريق». كذلك لم ينحرف سائق «الكيّا»، كاد الأمر يصل حد الصدام. بسببه توقف السير في هذا الشارع، تعالت أصوات المزامير مثل زفة عرس بغدادية. ترجل عباس من مكانه، اتجه إلى السائق المقابل، تكلم معه بكلام غير مسموع، وعاد مسرعًا ليعلن أن ذاك السائق من عشيرته، سينحرف عن خط السير احترامًا له، ولو لم يكن من عشيرته، لجلب شبابها طرفًا لتحطيم سيارته وفضّ النزاع.

استمرت سيارتي الجيب في حركتها تحاذي مارة يتحركون بين السيارات كأنهم في موسم حج، لا يعيرونها اهتمامًا، وأنا كذلك لا أعيرهم أي اهتمام. كانوا يشتمون بأصوات لا تسمع، كأنهم تعودوا على نمط سير لم يكن موجودًا إلا في هذه المدينة الصاخبة،

كانوا بطبعهم ميالين إلى المخالفة. استمر السير، ومتابعة حركة الشارع والمارة، وما على الأرصفة وقريبًا منها. كان على طولها معامل حدادة، تخدش أصوات تقطيع ألواح حديدها حياء السمع، تزيد من تشويه الصورة السمعية لطرب تتداخل وسطه الأغاني والألحان، وجنس المطربين. تجاورها ماكنات لحيم تتطاير شرارتها على المارة من دون حساب. وسطه جزرة ترابية أراد المخططون وضعها أداة تعريف أو وصلة ارتباط بشارع نظامي ذي اتجاهين. حوّلتها الحاجة وتجارة العوز إلى سوق شعبي تملأه «بسطيات» تجاوزت على التخصص في البيع. أوكل أصحابها شأن الدعاية لبضائعهم إلى أجهزة صوت من أقراص مدمجة، تسمعها تباعًا:

(كيلو تفاح بألف ـ الموز بألف ـ البرتقال بألف ـ كل كيلو من كل شيء بألف).

أسطوانة مشروخة تتكرر، يختلط صوتها مع صوت أسطوانة أخرى من جار يبيع الدجاج يعلن بالطريقة ذاتها:

(الدجاجة بخمسة ـ مذبوحة بخمسة ـ منظفّة وجاهزة بخمسة).

إلى جوارهما دهين أبو علي يعلن عن دهينه بالدهن الحر بالطريقة ذاتها. وهكذا استمر الحال حتى نهاية الشارع، وكأن لكل بائع فيه اسطوانته الخاصة، وكأن المدينة أضحت مدينة أسطوانات. أشار عباس بطرف أصابعه إلى شارع، أو شبه شارع ترابي زحفت على باحته البيوت، لتقام عليها مضائف، ودواوين، ودكاكين، رفعت عليها رايات طوائف وعشائر. أراد أصحابها

الاحتماء بها رمزية ذات دلالة، وأبقوا فضلًا منهم على الدولة ممرًا يصلح لنفاذ سيارة واحدة سائقها نبيه. أمر عباس بالتوقف في نهايته، سأل: هل تعرف مكان الجامع؟ ثم أجاب هو عن سؤاله واثقًا: «لا يمكنك التعرف على المكان».

كان القصد من السؤال واللف في أكثر من شارع والدوران هو المساومة على مبلغ لإكمال مشوار الدلالة، وترك العودة شأنًا ليس من شأنه. خاطبته بلهجة فيها قدر بسيط من الاحتجاج والصرامة بالقول: «لكنك لم تكمل المشوار، ولم تدلنا على أصل المكان». فأجاب واثقًا من وقوفه على أرض تمتلكها العشيرة: «خمسون ألفًا سأوصلكم إلى باب الجامع، من طريق قريب، شرط استلامها مقدمًا».

ومن يضمن عدم الغدر؟

رد وابتسامة خبيثة تعلو وجهه الأسمر: «أنا أخو هدله أغدر بكم، وأنتم ضيوف عشيرتي».

استلم الخمسين ألفًا ورقة نقدية واحدة، وضعها داخل الجيب الخاوي، وسار في طريق آخر، نصفه شارع، ونصفه الآخر مستنقع، حتى وصل الجامع المنتصب بهيًا على شارع نظامي، توقف قبله بمائة متر أشار اليه ثم نزل، ليغوص بين البيوت كأنه واحد من الجن في مدينة لا يمكن للجن العيش وسطها من دون معاناة.

* * *

ليلة عيد عراقية

خيالات من الماضي

انتهت فترة الطواف المقررة في بغداد وبابل والبصرة، قالت ها قد استحق الأمر عودة إلى الديار، فكانت الوجهة مطار بغداد، طريقًا سالكةً لها أو الوطن البديل، هذا المطار الذي يُشعر من تعوّد السفر منه وإليه في هذه السنة (2016)، وكأنّ ذرات الغبار التي علقت فوق أقواسه الأندلسية، على مرّ السنين بدأت تزال تدريجيًا، وأنَّ أهله، أو بعضهم أدركوا ضرورة محو الترسبات الراكدة في العقل عن أهوال السياسة والكسل، وشرعوا بالتنفيذ.

درجتْ على أرضه الإسمنتية طائرة الخطوط القطرية متجهةً صوب الدوحة، ومنها إلى لندن، وَقَفَت بداية المدرج، أقلعت مرتفعة قبل بلوغها نصفه الأول، وكأنّ طيّارها يستعجل الارتفاع، لرحلة له هي الأولى من بغداد، أو لبقايا قلق قديم من إرهاب استهدف المطار علق في قعر بوصلته الشابة لم تمحُه أيام تتجه فيها بغداد الى الهدوء، قالها الرجل الجالس على الكرسيّ المجاور،

فأجاب آخر، أو لأن الريح في الواجهة استعجلت الاقلاع.

دارت نصف دورة لتأخذ طريقها باتجاه الجنوب، انخفض جناحها الأيمن قليلًا لإكمال نصف الدورة الآخر، بانت من تحته بغداد صورة عروس تشكو أهلها قبل الزفاف، موكب عرسها وساحة الاحتفال، وباحة بيتها، والجيران انحسرت من حولهم الخضرة، وأنْبِتَ بَدل النخيل وأشجار الرارنج بيوتًا تشبه حاويات رصت قبل الشحن، وبان من بعيد وحش التصحر كمن يريد التهامها عروسًا لم تهنأ بليلتها بعد.

لقد تغيرت الصورة، وتبدلت شكوى العروس، صارت عتبًا على العريس وأهله، وسؤال مع دمعة نزلت غصبًا عن الجنائن المعلقة، والنهرين، وقلق من غد تعتقده سَيُغيّر من طعم الحياة بعد العرس، أمّا أنا فبت أنتظر استقرار الطائرة عائمة في أجواء خريف هي الأحلى في العراق، لاحظت من تحتها دجلة العملاق نصف نائم، هدأ الشخير في مجراه، وتكاثرت وسطه جزر الرمل، وعلى حافاته حزم القصب تحرس غفوته والمنام.

قلت سأترك دجلة نائمًا، وأغادر خوفي من الغد والتصحر، وعراقيل البناء، وأفعال السياسة، وَشحتُ بنظري صوب الأهوار، سألت عن موقعها، وهل بقيت متعامدة على خط الطيران لأقارن صورها مع صور في رأسي عن قصبها والأكواخ وسومرية تجوب مياهها بـقارب خشبي (مشحوف)، يوم كنت طيارًا أحلّق بطائرتي السمتية فوقها مستمتعًا بالخضرة وزرقة المياه وأكواخ القصب، وفحول الجاموس في ثمانينات القرن الماضي. مازالت أتخيل

الماضي، وأنا كذلك أتخيل لاح لي التواء النهر جليًا، وقد اتسعت رقعة مجراه وانتشرت بقع مياه تسربت من حوله، ابتعدت عنه مرة واقتربت إليه في أخرى، كأنها تريد احتضانه قبل موت محتوم. جلت بنظري يمينًا وإلى الشمال، غيّرت موقع جلوسي في الطائرة إلى الجهة الأخرى، وصفت المشهد بقايا هور، سألتها بلسان محموم أين القصب والبردي وخضرة كانت يانعة؟

أين المشاحيف وفوانيسها، وأسراب الطيور المهاجرة، والصيادون بفخاخ تركها الأجداد؟

أين ذاك التنّور ودخان الساجور برائحة الخبز المطعم بأنفاس الأمهات؟

أين النسوة اللواتي حملن جمال الطبيعة في وجوههن السومرية السمراء، وعباءات لفت وسطهن وقوفًا حول التنّور؟

ماذا حلَّ بحورية الهور، وحامل الفالة، وبقايا الأجداد؟

لم تجب على أي من أسئلتي الوهمية، لأنها وغالبية المسافرين مشغولون بهموم ليس من بينها الهور.

تركت الأسئلة، حاولت إعطاء عينيَّ استراحة إجبارية، لم تنفع عندما لاحت في الأفق بقعة ماء لا حدود لها، ألزمتني إعادة الحملقة قسريًا، وفتحت الأسارير، ودفعتني إلى الالتفاتة صوبها لأقول: «هكذا كان الهور مسطح ماء أبعد من أن تحدد حافاته العين، يوم كان مركزًا لهذا الكون». نشوة فخر لم تدم، إذ ظهر من بعد جرفًا مقوسًا، وممرًا، وباخرة تدخل وأخرى تغادر وجزيرة

تخنق المسار، ألزمتني هي الأخرى معاودة الالتفات اليها لأقول: «هذا ليس الهور.. إنه الفاو ساحل العراق على الخليج، وأرضه الجرداء، وبداية الماء المالح ليس فيه من روائح الهور». بسببها وصدمة هروب الهور أغلقت نافذة الشباك ورحت أفتش في ذاكرتي عن صورٍ لأرض الفاو يوم ملأتها حفر القنابل، ومتاريس الجنود، وطائرة سمتية هوَت بقائدها محمود، وجنود أبطال يخوضون في مملحتها معارك البقاء، وستون ألف من القرابين، وهكذا استمررت ألوك في رواسب ذاكرتي حتى أخذتني غفوة نصفها إحباط، ونصفها الآخر إحباط.

غربة عيد

حل الصباح في العاصمة البريطانية لندن، تناثرت عبر الهاتف النقال آلاف الرسائل المصممة للتهنئة الكترونيًا مثل غزارة المطر الذي ينهمر في هذه المدينة مدرارًا طوال السنة، تيقنت منها ومن لقطات عبر قنوات التلفاز أنه العيد.

تلفت يمينًا وكذلك إلى الشمال لم أحس رائحة العيد البغدادي، ولم أتأمل فطورًا من الكاهي وقيمر السدة المشهور، ولا زيارة يجتمع فيها الأولاد عند دار العائلة الكبير يلعب الأحفاد في باحته ساعين لتعزيز رابطة الدم، شعرت بقدر من الغربة، أعادتني انفعالاتها عقليًا الى رتابة لا معنىً فيها للعيد، سوى الرد على تلك التهاني التي لا تنقطع، صورًا ولقطات مستنسخة خالية من دفء المشاعر المكتوبة بأصابع اليد.

قالت بشرى مبتسمة ابتسامتها المعهودة لقد وجدت الحل سهرة مع مطربة المقام العراقي السيدة فريدة تقيمها في فندق وسط لندن يمكن الشعور في محيطها ببهجة العيد، ووجدت نفسي سائرًا في طريق الحل كمن يفتش عن مبتغاه.

دخلت المطربة قاعة أحتل فيها جمع غفير من الراغبين في إيجاد حل لغربة عيد، وعشاق المقام العراقي الأصيل أماكنهم حول طاولات مدورة. مشت ببطء واثقة من نفسها، ابتسمت بنكهة عراقية رافعة كلتا يديها تحية تقدير إلى جمهور صفّق لها منذ لحظة اطلالتها حتى جلوسها على كرسي في مقدمة عازفين تميزهم السدارة الفيصليّة، في مشهد لو صُوِّر بتقنيات الأبيض والأسود لانعكست على أخاديد الذاكرة صورة عملاق المقام العراقي يوسف عمر جالسًا يشدو مقام الرست أواخر سبعينيات القرن الماضي.

مرت بصوتها الرخيم من الأغنية المشهورة آه جميلة إلى (گصري زبونچ)[1] واشكان الدلال، ومن بعدها أويلاه يابه، وغيرها أُخرْ تنقلت بينها بسلاسة واقتدار، تنظر إلى جمهورٍ لم يرتوِ من عطش الغربة، يتعالى وسطه التصفيق مصحوب بزفرات، وأنين يأخذ الحالم إلى بغداد أيام تألقها نجمة في سماء الدنيا الفسيحة.

في استراحة عشاء وجبة طعام غلبت عليها النكهة العراقية

1) الزبون قطعة ملابس تلبس قديمًا في المناسبات بقصد التزيين مفتوحة من الأمام وذات ألوان غالبيتها ترابية، وهي تكاد تكون قد اندثرت في الوقت الحاضر.

سأل البعض بعضًا عن آخر زيارة له إلى بغداد كأن سلسلة الذكريات في عقولهم قد تقطّعت، وفقدت منها وصلات، أو أنهم يرومون إجابات وصفية تعينهم على تجميع صور تنعش ذاكرة أخذ العمر منها مأخذًا كبيرًا، إلّا شيخًا وقورًا إلى جانبه سيدة مُسنّة تسايره مثل ظله، يتكئ عليها وتتكئ عليه، سأل عن أحوال بغداد وعن حي البتاويين بلهجة موصلية فقدت من نصوصها بعض كلمات، قدم نفسه داوود وزوجته ڤيوليت، يهوديان هاجرا وأولادهما الأربعة من بغداد عام 1963 إثر عملية دهم بيتهما بعد انتصاف الليل، فسراها خيارًا بين الهجرة، أو الذهاب بعيدًا في غياهب المجهول، فتركا الدار محبوسة في ألقها ومجد بغداد، سكنا لندن على أمل العودة إليها أم حنون يومًا من الأيام، لم تفارقهما العراقية، عادات، ولهجات تخاطب، وغناء، ونوع طعام وأمنيات عن أمل الموت في تلك الدار الموروثة ومواراة الثرى في بغداد بين قبور الأجداد، وعندما وجدا ودٍ في الاجابة عن كثير من الأسئلة التي تشغلهم، وعن ما جرى ويجري في بغداد، تقدما برجاء تغلب عليه لغة التوسل بالحصول على صورة حديثة عن قرب للدار، قالا إنها مازالت موجودة يتابعان وجودها من موقع (گوگل أيرث).

أنهت السيدة وصلتها الغنائية الثانية بتألق كما بدأت، هَمّتْ ملوحةً بتحية الجمهور، وتقديم الشكر لحضوره، أنعشها التصفيق فعاودت الغناء ثانية سلطانة طرب حتى الساعة الواحدة بعد انتصاف الليل.

في طريق العودة إلى البيت وسط زخات مطر خفيفة ودرجات حرارة تقترب من الخمس عشرة درجة، تيقنا حقًا أنه العيد.

* * *

باريس المحطة الأخيرة لقطار اليورو ستار

عودة مجد القطار

قلت صيف أوروبا ما زال قائمًا، وباريس وسطه الأجمل والأنشط، تستحق منا الطواف، ردت دون تأخير «باريس قريبة وجار»، وأضافت تستحق الزيارة والطواف طوافًا نستذكر فيه سنة العمل التي تمت في ربوعها قبل خمس سنين، فكانت خطى التنفيذ قد بدأت بعد يوم، واسطتها القطار هذه المرة، إذ لم تعد الطائرة وحدها سيدة تغوي مسافري المسافات المتوسطة والقريبة، بعد أن عاود القطار مجددًا لم يشأ مغادرته وسط حمى السفر وتقدم التقنيات، كأنه رجع إلى الأصل سيدًا عند البعض لهدوء يهواه، وعند البعض الآخر تأملًا في الطبيعة، وقدرًا من الأمان، وعندي تلبية لرغبة في حلم قديم لإكمال سلسلة السفر برًا حتى العاصمة بغداد، ظلت منقوصة هذه المسافة القصيرة بين لندن وباريس.

رحلة القطار الأوروبي (Eurostar) تبدأ من محطة (سانت

بانكراس الدولية) (St Pancras International)... وسط لندن، التي أُفتتحت سنة (1868)، ضخامتها، وتعدد طبقاتها، والمطاعم فيها، والمحال التجارية داخلها، وكثر الأرصفة، وعشرات القطارات الداخلة والخارجة منها إلى أوروبا، وباقي المدن البريطانية، ومكاتب الجوازات والتفتيش، وعدد المسافرين تقربها من هيأة مطار، أو أقرب إلى مطار منه إلى محطة تجثو فوق أرض لها جذور تمتد شائكة تحت شوارع، وعمارات كأنها مدينة تحت الأرض.

أشارت اللوحة العارضة (الشاشة) الكبيرة، إلى أن الرصيف الرقم (9) قاعدة لانطلاق القطار المتجه إلى باريس، إجراءات تدقيق أمني وأجهزة سونار، ونظر في الجوازات دون ختم توصل إلى الرصيف المطلوب، بإزعاجات أقل من نظيرتها الجارية في المطار.

كانت العربة الرقم (6) هي المثبتة في التذكرة، وكذلك الكرسيين المحددين. حال اكتمال الثانية الأخيرة من الساعة الخامسة مساءً شرع القطار بالمغادرة قاصدًا باريس العاصمة، والتاريخ، ونابليون الذي تتذكره أجيال، وترددده على ألسنتها أجيال، سار بطيئًا بداية المشوار، كأنه يتحين فرص الخروج من المدينة، أو التخلص من قطارات تشاركه السكة ذاتها، وَلَمْا تفرد بها أعلنت شاشة مثبتة في أعلى السقف بلوغ سرعته ثلاثمائة كيلومترًا في الساعة، ومع هذا بقيَّ هادئًا، لا صوت قد تغير ولا محرِّك زأر، فمحركه الكهربائي لا يزأر، واثق من قدرته سحب ثمانية عشر عربة، تنساب جميعها متصلة مثل أفعى دون حفيف، أو طائرة

تحلق دون مطبات تزعج الركاب. في رحابهِ لا يهتز كأس الشاي من على الطاولة، ولا طبق طعام، ولا يتوقف قارئ يتصفح كتاب يريد إكمال موضوع بدأه قبل الصعود، ولا يعجز شباب يتحاورون في هواتفهم النقالة مع أقرانهم، ولا يثني سيره الرائق مَنْ أخذ الشباك موقعًا للتمتع بمشاهد الطبيعة متى أراد.

كان النظر ممتعًا الى حقول خضراء ومراعي أبقار مرقطة وحمراء، وغابات وخطوط أشجار لمزارع، وبيوت متناثرة على طول الطريق، وسطها وفي لجة التطلع بخلقها أعلن سائقه اقتراب الدخول إلى نفق القنال الإنجليزي تحت سطح الماء خمس وسبعين مترًا، لمسافة تمتد أربع وخمسين كيلومترًا وأربعمائة وخمسين مترًا، قطعها بعشرين دقيقة، طل بعد انقضائها على الجانب الفرنسي، أرضًا لا يختلف شكلها عن تلك الماثلة على الشاطئ البريطاني، ولا خضار لونها والأبقار، ومُزارع يحرث، وقطيع أغنام يعود إلى حضيرته طوعًا مع ساعات المغيب.

في الكرسي القريب رجل ستيني، يقلب أوراقًا، رفع عينيه، ترك قلم الحبر الأسود جانبًا، فاستغللت الموقف لأبادله الحديث «أتذكّر وجهك سيدي وهذه الابتسامة، لكن العقل لا يسعفني لإكمال دورة التذكر والتحديد». ردّ بأدب: «سأقصر لك المشوار، أنا وزير في حكومة السيدة ماي، أظهرُ كثيرًا في التلفاز».

أين حمايتك سيادة الوزير، وطوابير المتزلفين؟

خلعَ نظارته، ضحك قائلًا: «لا حمايات لدينا، ولا بطبعنا هواية المدح والتقديس، ولا الخوف من شعب ينتخب بالشكل الصحيح،

ولا الشعب يخافنا بأي حال»، وبعد أن وضع النظارة على الطاولة سأل: من أي بلد تكونين؟.

من بلد للوزير فيه حمايات يُوقفون السير، يُغضبون الجمهور، وجمهور يتزلف الوزير، ووزير يفتش عن جمهور ينتخبه من جديد.

آووووه... أنتِ من العراق.

سألته: إن كان يعرف العراق؟ فارتجف في مقعده وتعثرت في داخله الكلمات والمشاعر، واصطبغ وجهه بقدر من الحمرة الخفيفة كالتي نراها عند غالب الاوروبيين البيض، قبل أن ينطق، وأخيراً نطق قائلًا: «كان هناك عراق أدمته الثورات»، قالها وأستأذن ماسكًا حقيبة أوراق مؤكدًا وصول القطار محطة نورد الباريسية وسعيه اللحاق بموعد لقاء يعود منه إلى لندن في المساء.

باريس قوس النصر

وقفت عند قوس النصر وسط باريس مزهوًا، أدقق في المكتوب على الجدران، سألت على نحو عشوائي كيف تُخلدُ الشعوب كبارها والأحداث؟

لم يجب أحد فجميع الحضور من السواح مشغولون بالنقوش والتواريخ، وأسماء جنرالات قادوا معارك فاصلة رفعوا فيها علم فرنسا، وإلى جانبهم جنود قُتلوا في معارك ليبقي العلم مرفوع، وبين جنرال قاتَلَ وجندي قُتِل، شعلة نار ترمز إلى أرواح بقت خالدة، وأكاليل ورد تعزز أجواء الخلود. سألت وأنا قريب من نار الخلود: أين شهداء لنا مازالوا يتساقطون؟

ردّت بصوت حزين: «إن الخلود عندنا لمسؤولين أحياء». وبإحباط جله يأس مسكنا أيادي بعضنا، وأدمنا النظر الى قوسَ النصرٍ تلف حوله السيارات، منه واليه أربعة عشر شارعًا بعمارات لا تعلوه ارتفاعًا، سائقون وركاب حوله يطوفون، يُعلُونَ الشأن وطنًا مجيدًا، لا يقصدون الحج وليس إليه يرومون فهم قد تركوا طقوس الحج من زمن بعيد، لكن من صممه، ومن خطط ساحته، تخيل الدوران من حوله طقس حج ميمون، ومراسم أداء التحية همسًا لأولئك القادة، وبعض رجال عظام نقشت أسماءهم على جدرانه من الداخل. يبطئ الجميع حركته التزامًا بقوانين السير، كأنها تحاكي سرعة العربات التي كانت تمر مستعرضة، والجنود المدججون بالسلاح سيوفًا مسلولة، وبنادق شارلفيل (Charleville) للاحتفال بيوم النصر صباح الرابع عشر من تموز زمن الإمبراطور نابليون، وإلى يومنا هذا ما زالوا يستعرضون في ذاك اليوم الموعود.

من وسط النصب بانَ شارع الشانزليزيه خارجًا، كأنه شريان باريس، على أرصفته الممتدة عرضًا يزيد عن الثلاثين مترًا مقاه يؤمّها سواح، وأخرى يتردد عليها أدباء وفنانون ورجال دعارة مشهورون، عليها وضعوا أوراقهم كتبوا ألفوا أشهر الروايات، مضاء هذا الشارع بمصابيح ونشرات كأنها خيوط من اللؤلؤ الياباني، جعلته مَعلمًا لباريس يُعَبرُ عن طبيعتها مدينة نور، وثقافة وحبور جلها فنون.

قال علي عراقي من سكنة باريس، جلس حول طاولة مجاورة

في مقهى (فوكيتس Fouquet's) هنا على هذا الشارع مسارحٌ عدة، أشهرها الليدو بعروضه الفنية والتقنيات التي تحاكي العصر بشكل ليس لها مثيل، وأكمل وصف الشارع، إنه عريض مثل شوارع أخرى في عموم باريس، خُططَ لها وأعيدَ بنائها بعد تهديم ما قبلها، عبروا بها عصورًا صُنِّفت وسطى، وُضَعوا لحيطانها حجرًا وكسوا بعض شوارعها حجرًا، ليبقوها عمدًا عملاق كونٍ لا تخدشه السنين، أو فتاةٍ جسمها غضٌ لا يشيخ.

باريس لا تشيخ شاهدتها قبل ثلاثين عامًا ناضجة، وشاهدتها مرة أخرى قبل عشر سنين متوردة خدودها، وأشاهدها اليوم ندية مثل غصن البان، وضعوا بُناتها العظماء تمثال في كل مكان، وزاد من بعدهم عظماء وضعوا في كل ركن تمثال لقائد مشهور، ووسط الساحة تمثال لفنان معروف، وفي الواجهة لوحة نقشت على الحجر لواقعة مشهورة، وفي أعلى باب البناية تمثال امرأة نصفها الأعلى مكشوف، وفي الأخرى تمثال رجل نصفه الأسفل مكشوف، هم من جيل جعلوا المرأة إله حب، يقابلها رجل إله إخصاب، كي يتعادلان في الألوهية ودوام الحال، وجعلوا من باريس متحف مفتوح قِبلة سياح، تقول نشرات السياحة والمال أن زائريها بلغوا في العام (2016) تسع وثمانين مليون هو الرقم الأعلى في العالم، ويخططون إلى المزيد.

سألت علي الذي اقترح المشي على رصيف الشارع العريض عن مزيد من المعلومات عن باريس، قال: «المزيد قطارات تحت الأرض تمتد مائتي كيلومتر، وعدة مطارات، وانفتاح مكشوف

وتسهيلات وابتسامة صباح، ثم أشار إلى ساحة في الواجهة قال عنها ساحة الكونكورد، نصبت على أرضها مقصلة قطعت رأس الإمبراطور وزوجته ماري أنطوانيت يوم اقترحت توزيع الكيك على جياع يتظاهرون». ابتسم ابتسامة عابرة وأكمل: «لقد توقّف الفرنسيون عند ذاك التاريخ، ألغوا عقوبة الإعدام، انتقدوا انفعال الثوار وخشونة الرعاع، اتجهوا إلى الاستكشاف وإدارة نصف العالم يوم أضحوا بعد الحرب العالمية الأولى، دولة عظمى، سبروا أغوار العلم والأدب وفنون الحياة».

مشينا حتى رصيف الشارع المحاذي لنهر السين قال عن أكشاك تحاذي الرصيف «إنها مئات المكتبات تعرض كتبًا قديمة، وأخرى مستعملة ومجلات، لإدامة النهضة والحياة»، وقال عن الفرنسيين: «أصحاب ذوق رفيع، ومجاملة، بهم ارتبطت عروض الأزياء، وعلامات العطور، وسعي لتعميم اللغة الفرنسية على الشعوب التي استعمروها، يريدونها تقرأ بالفرنسية، وتفكر بالفرنسية، وتحلم كذلك بالفرنسية». وقبل استئذانه الذهاب لموعد مسبق ختم فكرته عن باريس قائلًا: « شوارع باريس لا تبهر في الليل أو في النهار، إذ أنها شوارع من الممكن أن تجدوا لها مثيلًا في عديد من دول أوروبا، لكنكم لن تجدوا مدينة على شكل متحف مثل باريس، ولن تجدوا متحفًا مثل اللوفر اختزل فيه الفرنسيون حضارات العالم.

باريس: اللوفر والسين

صار القرار تخصيص اليوم الذي تلا جولة في متحف اللوفر، قلعة بنيت في الأصل خوفًا من الغزاة سنة (1196)، فأصبحت قصرًا يطل على السين لملوك تعاقبوا كان آخرهم لويس الرابع عشر في (1672)، تحوّل من بعده معرضاً للتحف الملكية والمنحوتات، فأكاديمية فنون لمائة عام، جعلوه إبان الثورة الفرنسية متحفًا لعرض روائع الأمة، لكنهم تجاوزوا الأمة يوم أصبحت فرنسا امبراطورية تغزو وتأخذ، فجمعت من مصر فرعونيتها، ومن العراق آشوريتها، ومن اليونان والرومان، وكل ما وقع تحت اليد شراءً، أو استيلاءً فالأمر عندهم سيّان.

هرمٌ زجاجي يدخل من وسطه آلاف الزوار، ومثلهم يخرج في اليوم آلاف، يدندنون عن روعة المكان، وعظمة التاريخ، وحسن العروض والترتيب، حتى احترنا ونحن في طريق الدخول من أين نبدأ، فكل شبر مغرٍ، سألت زائر خارج توًا: من أين أبدأ؟

قال: «هناك مرشدة جميلة، تجدها في كل مكان»، أجابت أحداهن: «لك الخيار سيدي في أن تبدأ، وأن بدأت وركزت وقضيت النهار كله، ستحتاج ثلاثة أيام وربما أكثر قليلًا كي تشاهد كل المعروض، أكثر من مليون لوحة وقطعة فنية، وتمثال، وسطها الموناليزا لامعة تجلب وحدها آلاف السواح».

لكن الإنسان بطبعه يفتش عن تاريخ له، عن أجداد غادروا وحضارة غابت، فكانت البداية من آثار وادي الرافدين، تكدست منها في هذا المتحف الأكبر في العالم (5664) قطعة عُرضت في

قاعات متداخلة، بوابة لها صممت على شكل أقواس مثل حضارتها الأصلية، يقف عندها ثوران مجنحان، نحت الواحد من حجر كأنه مرمر، ضخامتهما، وأناقة النحت دفعتنا الى التقاط صور، أشعرتنا الانتماء اليها أو انتمائها إلينا، ورغبة في احتضانها مثل عزيز فرّق الدهر بينهما، تركناها غصبًا في وداع جاء من لمسة يد كأنها لحبيب.

هناك على الحائط نقش، وإلى جانبه رُقُم طينية، وجِرار وبقايا صحون من فخار، وقطعة من بابل احتفظت بألوان لها كانت تزيّن جدران، وتحت الزجاج عرضت قلادة ذهبية وَحُلي، وبعض ألواح وضعت وسط قاعة تؤدي الى قاعة تجاورها قاعة، انتصبت على أراضيها تماثيل بالحجم الطبيعي لإنسان الوادي بلا رؤوس، سألت: لِمَ قُطعَتْ تلك الرؤوس؟

وهل في الحضارة القديمة قطع رؤوس، أم أن أهل الحاضر قطعوها غيلة مثلما يفعل البعض إمعاناً في قتل الروح؟

أجابت إحدى المرشدات كانت قريبة: «للحروب، والصراعات، والغزوات، والزلازل، والإهمال حصص متفاوتة في القطع والفقدان»، وختمت إجابتها الموجزة بالقول: «مع أنها مقطوعة الرؤوس فإنها تعكس قيمة تاريخية وجمالية كبيرة، وتظهر كم التحديات التي واجهت بقاء الفن عبر العصور».

مرّ الوقت سريعًا، شعرت بحلول وقت العصر، وقد أكملنا توًا حضارة وادٍ طمرته الأقدار، تلفت من حولي، لعنت أقوام غزت واستكشفت ونهبت، شعرت حيفًا في النفس، ودعوة صراخ، لآثار

حضارة توزعت بين الأمم، وإنسان حاضر هاجر مكسورًا بين الأمم، ومع هذا فهناك حقيقة قد تخفف من شدة الحيف من أن آثارنا لو قُدر لها البقاء في أماكنها لفجّرها الإرهابيون ودعاة السلفية. جوارها معروضات حضارة إسلامية، وأخرى فرعونية، ومن أفريقيا حضارة قبائل تقطعت أوصالها، وغاب عنها الذكر. قالت: «قد حلَ وقت العشاء»، اقترحت مكانًا عائمًا، مركب في نهر السين المجاور، هو مطعمٌ ووسيلة تجول يقطع النهر ذهابًا وإيابًا، لثلاث ساعات، منه يمكن رؤية معالم باريس تطل من على جانبي النهر، ومنه نأخذ وجبة عشاء كُتِبَ عنها أو لم يكتب حلال.

تقرّبنا الى النهر مشيًا، بانت حوافه مغلفة بالحجر، وأرصفة رصت بالحجر، تخللتها مراسٍ لزوارق، تصطف إلى جانبها مئات المراكب متعددة الأحجام، اخترنا واحدًا عليه إشارة مطعم، أشار الربان بعد تحركه بقليل إلى كنيسة نوتردام، قال بالعربية: (مريم العذراء) وقال عنها: «قبة ترتفع ثلاث وثلاثون متراً وتستند إلى أقواس، مُثِلَ فيها فلم (أحدب نوتردام) لفكتور هيجو»، وبعدها بقليل قال: «التفتوا يسارًا هذه حدائق عائمة في النهر، ومسبح كذلك عائم، وهناك على اليمين عمارات أربع، عالية صممت على شكل كتاب إنها مكتبة ميتران، تضم ملايين الكتب بكل اللغات».

دارَ المركب دورة كاملة، اقترب من تمثال الحرية، تبيّن التمثال نسخة مصغرة من تمثال الحرية الضخم الذي أهداه الفرنسيون إلى أمريكا، وأقاموه في مدخل خليج نيويورك. أبطأ ربانه السرعة في أثناء العودة، أرسى قريبًا من برج إيفل، محطته الأخيرة،

توجهنا معًا الى موقعه صرحًا هندسيًا شامخًا يغري المتأمل سبر أغواره، وتحمل الوقوف في الطابور قريبًا من الساعة بانتظار الحصول على تذكرة صعود الى أعلاه. وصل الطابور الى مبتغاه، بدأ الصعود بمصاعد كهربائية تتجه مائلة، وبدأت المعلومات عنه تتناثر منذ البداية الأولى للتشييد سنة (1887)، وعن مصممه وصاحب المشروع غوستاف إيفل، والمعارضة التي واجهها من فناني باريس ومثقفيها، بعد أن وصفوه وحشًا حديديًا يخشون تشويهه منظر مدينتهم، ومن بعض المهندسين والمعماريين الذين شككوا في قدرته على الوقوف بثبات، لكنهم سكتوا جميعًا بعد النجاح في إتمام تشييده، وصيرورته معْلمًا سياحيًا رئيسيًا ورمزًا لباريس وفرنسا، لعب دورًا في الاتصالات بعد استعماله في البداية كهوائي للإرسال الراديوي، واستمر إلى يومنا هذا، تردد في أدبيات الحرب العالمية الثانية عن أمر أصدره هتلر لتدميره عند احتلال باريس سنة (1940)، لكن الجنرال فون تشولتيتز، لم ينفذ الامر حتى كتب عنه في سجلات التاريخ أنه سلم باريس إلى الحلفاء في آب (1944) من دون أن يلحق بها دمارًا واسعًا، وبذلك نجا البرج ومعالم أخرى من الدمار لتكون جزءًا من التراث الثقافي الغني لباريس وفرنسا.

* * *

برلين في الحاضر والماضي

واجهة برلين

قالت أسبوع في باريس كافٍ لإشباع الرغبة في الطواف، اقترحت الذهاب منها إلى برلين عاصمة الألمان، أمرًا يستحق المناقشة، فكانت الحافلة وسيلة طواف بدأت رحلتها في الصباح من محطة (غار دي ليون) وسط باريس، تاركة خلفها برج إيفل، وسحر المدينة الخالد، وشوارع كانت مزدحمة في الساعات الأولى للدوام، عبرت ريفًا، ومزارع كروم، وحقول ذرة صفراء، دخلت غابات كثيفة وخرجت منها بحماس في السير لم يتغير. توقفت للاستراحة في محطة على الحدود تعج بالمسافرين من مختلف الجنسيات، يتبادلون الأحاديث بلغات متعددة، ليس من بينها العربية. فنجان من القهوة الدافئة كان كافيًا لإعادة النشاط، والطاقة اللازمة لمواصلة التمتع بما تبقى من الطريق في الجانب الألماني الذي تبدلت في أمتاره الأولى البنية التحتية، وزادت السرعة واشتد النظام. مرت من عدة مدن وقرى، كان النظر إليها

من النافذة ممتعًا، وكانت المناظر في العموم مزيجًا من الطبيعة الخلابة والتقدم العمراني، ظهرت وسطها طواحين هواء تقليدية، ومصانع حديثة في توليفة تعكس تاريخ وثقافة هذا البلد، ونشاط أهله المفرط في البناء.

بدأت أضواء برلين في الظهور عند الاقتراب، مهدت لإعلان السائق دخولها بسلام. توقف عند محطتها المركزية في ليل قد حلَّ ساكنًا، وأضواء تنعكس أشعتها على المباني، والمياه لتضفي عليها جمالًا وسحرًا خاصًا، أعطاها نكهة ليل مميزة، أبقاها مدينة لها من التاريخ الوسيط حصة، وفي الحديث منه أكثر من حصة، كونتها الأقدار، وفهم الشعوب لمصالحها في العيش الآمن والاستقرار، متجاوزة أصلها قبل ألف عام مستعمرتان مستقلتان، متجاورتان كونتا مدينة عالية الشأن في ذاك الزمان، وتجاوزته مدينة آلمتها الحرب في هذا الزمان، لتعود مركز ثقل مرموق بين الأقوام والأمم.

برلين مثل غيرها أوروبية النشأة والتفكير، وتسلسل الأحداث، أكلت منها الحرائق جانبًا، وطالت أمراض الطاعون جانبًا آخرَ، وكذلك الغزوات، وأخذت منها الحرب الكونية الثانية القسم الأكبر من الدمار، لكنها عملاقة من يومها الأول، لم تركع للعابر من أحداث ولا تؤمن بالأقدار، كأنها في كون أراد لها أن تبقى بعمر الشباب، عصية على المشيب، لتعود بعد كل وطر تنبض بالحياة، عاصمة اختيرت للإمبراطورية الألمانية في عنفوانها، وحال أفولها، ونفي الامبراطور الذي خسر الحرب الأولى، أبت إلّا أن تكون عاصمة لجمهورية ألمانية جديدة، وكأنها لا تقبل الموت. التوّتْ

قليلًا ساقيها، يوم حَمَلْها هتلر توجهات انحياز، ومفاهيم عنصرية، وغطرسة مصاب بالجنون، ونقاوة لا أساس لها في مفاهيم التفوق والنوع. بسببه وخسارة النوع، وفعل الحرب، والتزام الخاسر بالتنفيذ من دون جدال قُسمت غصبًا بين أربع كبار (أمريكا، روسيا، بريطانيا، فرنسا) ربحوا الحرب، أضحت من بعد التقسيم واستمرار الصراع شطرين شرقي اشتراكي شيوعي، وغربي رأسمالي ربحي، لكنها ذات نفسٍ طويل عادت من جديد موحدةً، أسقطت الجدار، أزاحت دشم الأسلحة والمتاريس، عادت عاصمة دولة نهضت من بين ركام الحروب وتنافس الكبار، لتكون شامخة باقتصاد هو الأقوى في أوروبا، ومن بين الأقوى في العالم الجديد. قيل لأهلها يوم خسروا الحرب، لا سلاح تنتجوه، ولا عسكر يَستعرضُ في السوح، ولا حِلفٍ دوننا تقيموه. نفذوا الأمر بحذافيره وزادوا فوقه دفع تكاليف، وخسائر تدمير وبعض إتاوات، صمتوا واتجهوا بدلًا عن كثر الجدال والتفريق والاستحواذ، وكذلك القيل والقال والنهب وتزوير الانتخاب إلى العمل ليل نهار، لتقوية الاقتصاد، والصناعة وإكثار المال، فكانوا الأقوى همةً بلا جدال، وكانوا أناسًا وطنيين.. هكذا هم الألمان، يعملون بصمت، لا يتكلمون كثيرًا، ولا يبتسمون إلّا بالوقت المناسب، جادون، يعيشون يأكلون، يشربون، همهم الأول فوق باقي الهموم إعلاء شَأن الدولة، ومن بعدها تأتي الذات. لكن أهل برلين يختلفون قليلًا، فهم أكثر الألمان شعبية ومرحًا، وهم أكثر من تلقى الضربات يوم حلّقت في سمائهم إبان الحرب العالمية الثانية أسراب القاصفات والقلاع الطائرة، لتأخذ

من عمرانهم ثلث الأبنية، والمشاريع، والتراث الناقل للتاريخ، وتركت نصف الثلثين الباقيين خراب. ضن يومها البعض، أنها قد لا تنهض من جديد، وإن اريد لها النهوض سيستغرق هذا عدة عقود، لكنها نهضت من جديد بما يقل عن عقد من الزمان.

وقفنا أمام جديدها، وقديم بقيت منه أطلال، وشواهد جدران عافاها الزمن، وَنُصبُ تذكار ليس من بينها تمثال سياسي أفاق، وعاودنا التركيز على صورٍ لذاك التاريخ عُلقَتْ بالمتاحف والكنائس وسوح الفرجة ومراكز الأبحاث، قلت لها وهي تمشي في الجوار: «أن الحاصل هنا غير معقول» قول أخذني غصبًا إلى ذكريات عيش لنا في بلاد العراق، وعقدين من الزمان بعد خسارة الحرب والسقوط توقفت في تخومها مشاريع البناء إلّا القليل، وعوضًا عن بناء يعد أكثر من مطلوب تناخى الأخوة من يعرب، وكسرو، وآل عثمان إلى طعن بعضهم ضربًا تحت الحزام لسمرة بشرة، أو لسوء حال، وفوقها شَيَموا باقي الأقوام للاستقواء بهم على بعضهم لاختلاف نهج التفكير، وأصل لم تثبت جذوره بأي حال من الأحول.

أهل برلين بنوا كل ما تهدم وأضافوا له جديدًا، وأهلنا انشغلوا في بناء طقوس، وخلاف مذاهب، واختلاف أديان، وَحِرزٍ من ساحرة شمطاء، وخاتم حظ مجرب، وقارئ كف دجال.

تركت المقارنة ونبش الذكريات، وواصلت وإياها السير في الشوارع على غير هدى، قلت أتلمس فروقًا في الهندسة والبناء، وبقايا صبغة حكم شيوعي لقسمها الشرقي الشعبي في ربوعه شوارع عريضة وبنايات متشابهة واجهاتها، وكذلك الشبابيك،

وكتابات على الجدران، وساحة (كوت بس أور) مازالت مركزًا لتجمع، وانطلاق اليسار في التظاهر والتعبير، ومطعم كباب لازان يقدم زاده بنكهة عراقية كوردية.

بوابة بندنبرغ

قالت: «سأقف على مكان كان يومًا هو الحد الفاصل لدولتين، أُمَنّيَّ نفسي ومن بعدي بما آلت إليه دنيا الدولتين»، فوضعَت قدمها اليمين في مكان، ومدت يسارها إلى مكان، المسافة بين هذا المكان وذاك مقدار شبر بقياس الأشبار يشير إلى بقايا دولتين، أو إلى نصفي مدينة برلين، وإلى الأساس الذي أقيم عليه الجدار العازل بينهما لعقدين وسبع سنين، بان من بين قدميها الممدودتين حجرًا أحمرَ رسم مسار الجدار الذي أراده الألمان الشرقيين سدًا يمنع هروب الأبناء من شرقهم الشيوعي إلى غرب ظنوا يومًا أنه جنة أحلام. تابعنا معًا مسار الجدار داخلًا في شارع ليخرج من ساحة ورصيف قديم، وقفنا أمام بقايا له، تخيّلنا تلك العوائل التي انقسمت بسببه نصفين، وأقارب فقدوا أعزاء، باتا يسمعان أصواتًا كأنها أنين لمن تقطعت بهم أوصال القرابة، فعاودنا المشي من جديد مشغولة عقولنا بتلك الأيام التي تلقفنا بعض أخبارها من بعيد، قصص عن شباك غرفة جلوس بات فاصلًا بين دولتين، وعن شابة جازفت بالقفز من شباك فاصل سعيًا للالتحاق بنصف عائلة تسجل نصفها الآخر مفقودًا. توقفنا عند بقايا شواخص لنقطة حراسة كانت أمريكية في مقابل نقطة أخرى روسية شهدت أمتار

المسافة بينهما توترات، وأحداث وقصص وأفلام، ووقوفٍ للرئيس الأمريكي كندي عندها قائلًا أمام جمهور قلق: «أني برليني» بقصد الطمأنة من هواجس حروب أسهم هو ومن بعده في إنهاء حقبتها الباردة. قفز الألمان الشرقيون بانتهائها من على الجدار، وضعوا سلالم وحبال، وتجمهروا آلافًا هدموا بعض أركانه في أكثر من مكان لينهوا مثيرات الخوف البارد، احتجوا على الخوف، رفعوا على عمود أقاموه في مكان نقطة التفتيش صورة جندي أمريكي قُتل في المكان، وفي الجهة الثانية من العمود صورة جندي سوفيتي كذاك قُتل في المكان، أرادوهما علامة فارقة لوأد الخوف، أبقوا أكياس الرمل التي استخدمت في جدران النقطة مصفوفة مثلما كانت في ذاك الزمان. هي وصور القادة الكبار، وبنادق جنود، ودبابات متقابلة، وحجم دمار يُزكم، وبقايا خراب وضعوها شواهد حثٍ لأجيال المستقبل كي تبتعد عن الحروب. سألت في لجة هذه الذكريات، وشخوصها: هل يستطيع الأهل هناك في بغداد وعلى طول الحدود مع ايران، والكويت، وأماكن أخرى في داخل العراق أن يضعوا بعض شواهد حروب تكون قادرة لتخليص نفوس أجيال بقيت مملوءة بحقد الحروب؟ وعندما وجدت الاجابة في داخلها نفيًا قالت: «كفى فليل برلين لسعة برد وساحة الجندرمة قريبة، الوقوف عندها والكنيسة الألمانية، والأخرى الفرنسية المتقابلتين يستحق المشي إجلالًا للتاريخ، وللتسمية وفخامة بناء جاء بعضه تيمنًا بالفرنسيين، وزمن كان الألمان ينظرون إليهم قدوة تحضر، يقلدونهم في أعمال الفن والبناء، وتقديرًا لدار الأوبرا التي

بُنيت بينهما، وما رافق عمرها المديد من عروض عالمية قدمت على مسرحها الكبير». قلت وأنا ماشٍ إلى جوارها صوب بوابة (برندبورغ)، وشارع أمامها عريض: «إنّ برلين ليست مزدحمة، وإن بدأ عدد سكانها ينمو بمقادير ملموسة عكس مدن أخرى ألمانية باتت تشكو تناقصًا بسبب عزوف الشباب عن الإنجاب». هكذا جرى الاستمرار في السير على أرصفة أرضياتها مزينة بأنواع من البلاط الإسمنتي الخشن، والحجر الرملي الصغير، حتى البوابة البرلينية التي انتصبت أعمدتها الاثنتا عشر سنة (1791)، وكتب جوارها لقد هَدمت الحرب بعض أركانها، وأعيد بنائها فيما بعد، وكذلك العربة من فوقها والخيول الأربعة التي تجرها بعناد، كأن صاحبتها تنظر من موقعها إلى ساحة باريس في الأمام، يوم كانت أرض حرام بين الدولتين الألمانيتين، وإلى شارع التسوق (انتر دين لندن) العريض حيث بنى المنتصرون الأربعة في الحرب على حافاته سفارات لهم، كانت الروسية هي الأكبر مساحة وفخامة، تأتي بعدها الأمريكية، ومن ثم البريطانية والفرنسية، قريب منها بقيَّ البرلمان الألماني (**البوندستاغ** Bundestag) رمزًا قاوم حريق نشب سنة (1933) استغله هتلر لمهاجمة الشيوعيين وبناء ديكتاتورية نازية، وقاوم كذلك قنابل الحرب الثانية، ليبقَ النشاط فيه سياسة وإعادة بناء وترميم عدة مرات، وقبة حديدية تحولت إلى زجاجية كي يدخلها الجمهور ينظر منها الى عظمة المدينة، ورفعة إنسان، وروعة فنان، وأمة غيرت ثقافة الحرب إلى جهاد اقتصاد وعيشٍ بأمان.

عشاء برليني

أقام ناجح في برلين منذ الحقبة السوفيتية، وعمل فيها باختصاص المحاسبة، وبات معْلمًا من معالمها، لا يمكن تخطيه عند زيارة المدينة التي يحسبها مدينته، بعد أن ترك العائلة وقرية الجمجمة التي أحبها، وسنة ثانية طالبًا في كلية العلوم منتصف السبعينات، كأنه وجد في برلين جذورَ حلمٍ بالوطن الحر والشعب السعيد، كبر فيها، وتنقل بين الأصقاع والدراسة والتدريس والمحاسبة، حجة في علوم المال، قال عند الاتصال به: «أعمل حتى المساء، سأرتب وضعي في جولة تجمعنا في المساء، فمساء لبرلين يستحق التجول مشيًا في بداية المشوار».

وقف عند أعمدة البوابة البرلينية أشرّ على ما تدمر منها في الحرب، وعلى تمثال العربة (الكوارغا Quadriga)، والفنان (يوهان غوتفريد) صاحب التصميم، وأنتقل في التأشير صوب المقر الرئيسي للمستشارية الألمانية مطبخ السياسة، تمهل في المشي أمام سياج وضعت عليه علامات صليب لأسماء مَنْ قُتلَ في محاولة اجتياز الجدار، صارت تذكاراً للحاضر والقادم، اقترب من أشجار كثيفة بلا سياج، قال هذه حديقة (التير بارك) غابة تمتد داخل المدينة عدة كيلومترات، لوحة خضراء تزين وجه برلين، ورئة يتنفس منها البرلينيون حتى أنهم ويوم فكرت البلدية استغلال بعضها لمشاريع بناء خرجوا محتجين، وَقَعْوا عريضة رفضٍ امتثلت لها الحكومة، وأبقتها كما هي تتخللها ممرات للمشي ولراكبي الدراجات، وسناجب تمرح بين الحين والحين، وأرانب وثعالب

تناسلت منذ كانت غابة صيد حكرًا للأمراء أيام الإمبراطورية، زادتها حديقة حيوان في قسمها الغربي، بانت من حافاتها بحيرة، تجاور مساحة خضراء وعلى الجانب برج يرتفع (368) مترًا بناه الشرقيون ليراقبوا الغربيين، صار حاضرًا موقع بث للتلفاز، ومطعم في الأعلى تُشاهد منه كل برلين. قال: «نجلس هنا، مطعم ألماني، مطبخًا وتراثًا في مدينة امتلأت بمطاعم من كل الأجناس»، فكان له ما أراد، وكانت السياسة، والتنقل في دهاليزها بين العراق، وبين ألمانيا وبابل والقرية، هي المادة الرئيسية، وحديث عن مستقبل يراه واعدًا للعراق، وأسباب الفساد». سألته: هل في دولتكم فساد؟

لملم شتاتَ أفكاره، أخذ رشفة من كأس بيرة برلينية مُطَعّمةٍ بالخُمْرَةَ، تَغَزَلَ بها قبل الطلب، ثم قال: «نعم في قضية مطار كان مؤملًا إنشائه ثالثًا في برلين، بعد عجز المطاران الآخران عن سد الحاجة المتنامية إلى السفر منها وإليها، شرعت ببنائه الحكومة عام (2011)، رصدت ثلاثة مليارات ومائتي مليون يورو، ظهر موظف حكومي وسط المشهد، قدم مشروعًا تتبنى شركته الحكومية بناء المطار، لتوفير ثلاثمائة مليون، أقنعَ الحكومة، تم الشروع بالعمل، تلكأ العمل، تبدل مشرفون ومقاولون ثانويون عدة مرات، ارتفعت التكاليف إلى خمس مليارات، لمْ يُفتح المطار، ولم يعرف السبب ومتى وأين؟ وقبل الوصول إلى حل يسمح بفتحه أشار المختصون أنه بحاجة إلى توسعة فعدد المسافرين من والى برلين قد تضاعف، وسيتضاعف في قادم السنين، تلك قضية عدت قصة

فساد». غيّر من بعدها وقع الحديث قائلًا: «لا يذهب تفكيركما بعيدًا، فالفساد الموصوف لم يكن فسادًا ذميًا، بل فساد من نوع خاص، فساد كفاءة، وَتَدخلٌ حكومي في تفاصيل التنفيذ، ولدعم وجهة نظره هذه أكد أن شركات ألمانية، ومنذ العام 2011 بنت في الصين فقط خمسة مطارات أكبر من هذا المطار المؤمل إكماله في برلين وبكلف أقل، خاتمًا حديثه بالقول: إنها قصة فشل حكومي ألماني تعد غريبة».

ترك السياسة والفساد، وأعمال الاقتصاد وأكد حلول وقت العشاء، واختياره الوجبة الرئيسية أكلة برلينية مشهورة، سأل النادل عن وجودها، فكانت إيماءة رأس تعني نعم، وعند السؤال عن طبيعتها قال لا يجوز السؤال، سَتُعْجبُ حتمًا دونما سؤال. نصف ساعة كلام عن الذكريات، وبابل الأثرية، وجيل يكبره ثماني سنوات، جاء العشاء صحون معدنية فضية يملؤها اللحم، وكأننا في دعوة عربية، قال لا داعي للقلق من دهون فوق السطح، هناك شراب نباتي خصيصًا للهضم يقدم بكأس يشبه كأس الشاي بعد إتمام العشاء. سألته بعد الانتهاء عن نوع الطعام، فقال بكل هدوء: إنها كوارع خنزير.

ـ ستتحمل ذنب الحرام.

ـ نعم سأتحمل ومفهومي لحساب الذنوب عند الله نصفها غفران، ونصف ما تبقى من النصف كذلك غفران، والربع الباقي مرشح أن تمحو الحسنة عشر سيئات، جعلتني أشعر بالأمان.

فضلنا المشي بعد انتهاء مراسم العشاء لتصريف الفائض من السعرات، وأثنائه بدأ ناجح شرحًا عن المدينة قال: «لقد أكمل كبار الحرب العالمية الثانية أهدافهم في برلين، أنهوها عاصمة، كادت تحكمهم لو أسعفَ الوقت هتلر في إكمال برنامجه النووي». تذكر ساعة إعلان انتهاء الحرب وكيف لم ينم الحلفاء ليلتها، إذ احتفل البعض رقصًا حتى الصباح، وأحتفل البعض شربًا لنخب الانتصار حتى الصباح، وأرتضى البعض حلمًا لنوم هانئ في حضن حبيب قبل حلول الصباح، وسار البعض الآخر أبعد من هذا وذاك، سهرَ الليل وامتد إلى ما بعد الصباح سعيًا بوقع محموم يتدافع بقصد النفاذ إلى جسم فاتنة اسمها برلين أثخنت هيأتها الجراح، كان السوفييت من ذاك البعض أسرعُ من باقي الحلفاء وأجرئهم، فأحكموا حصة الأسد في التطويق والنفاذ، وَقُسمَ الباقي حصصًا بين الأمريكان، والبريطانيين، والفرنسيين، الأكثر صبرًا، والأطول بالًا في التخطيط، وإعادة البناء، أعلنوا وضعَ مناطقهم سلطة غربية واحدة، فأصدر ستالين رجل السياسة، والحرب الأقوى أمرًا لقواته كي تطوق برلين، تسد منافذها، توقف تبادل تجارتها إحراجاً لتلك السلطة، والضغط عليها.

توقف ناجح عن الشرح لحظة كأنه يتذكر، وأكمل يومان ارتفعت فيهما وتائر الخشية من احتلال سوفيتي محتمل للمدينة، وخوف من جوع يعم، حط في ثالثهم العقيد الطيار الأمريكي جيل بطائرته ذات المحركين في مطار تيمبلهوف (Tempelhof)

شبه المدمر، وحال ملامسة عجلاتها الأرض ألقى حلويات من الشباك على أطفال يلعبون قرب المطار، أنزل أول شحنة، أثبت أن التقرب إلى المطار طيرانًا منخفضًا من على أسطح المنازع ممكن، والاقلاع منه على نفس الشاكلة كذلك ممكن، لتبدأ من بعده طائرات النقل جسرًا جويًا، وأضاف بعد عام من حادثة العقيد، ومائتين وسبعين ألف طلعة جوية، وملايين الأطنان من علب الدواء والملابس والغذاء، ومواد البناء تم إنقاذ برلين الغربية، وتغيير وجه التاريخ، وتبديل مشاعر الألمان من الأمريكان، لكن هذا المطار الذي أفتتح سنة (1923) كأحد أكبر المطارات العالمية في زمنه، أغلق رسميًا أمام حركة الطيران سنة (2008) ليتحول الى مساحة عامة، ومتنزه كبير يستخدم لأغراض ترفيهية، ومناسبات ثقافية.

▪▪▪▪▪

كان اليوم الثالث في برلين مخصصًا لحاضر المدينة وتاريخها، والصلة التي وضعها أهل الدار شاهدًا ليقربوا وقع التاريخ في عقول المعاصرين، كأنهم يعتبون، أو يريدون القول هذا ما فعله الأجداد في الماضي، وكيف أثر على الحاضر، فكان موقع الجستابو، أي الشرطة السرية الألمانية، أو ما تبقى منه موقعًا حكم منه هملر، وهيأة ركنه عموم ألمانيا أمنيًا... موقعٌ أخذَ مساحة قطاع كامل ينتصب شاخصًا بين شوارع أربعة، لم تُبقِ فيه طائرات الحلفاء في الحرب إلّا أساسات بناء وبعض غرف

كانت سراديب اعتقال، وتعذيب مخفية تحت الأرض. أبقوه الأبناء مُهَدمًا دليل حرب، وذاكرة اغتصاب لما كان من حريات، شَيَدْوا فوق قسم من أرضه قاعات ملأوها صورًا لذاك التاريخ وأدلة تعذيب، بين الصورة والصورة صورة لهتلر تحتل لها مكان، هنا اجتمع وهنا ألقى خطابًا، وهناك أخرى يوم فاز في الانتخاب، وانتقل إلى البرلمان في سيارة مكشوفة ليبدأ عصرًا جديدًا، وجمهور التف حوله يهتف بإسمه ويشيد، لا يعلم أصحابه ما سيؤول إليه الجديد في دلالة أنه وأينما يكون الناس في ذروة الانفعال التسويقي يتحولون إلى قطيع يهتف ليقنعوا أنفسهم، ويفسدون المسؤول. إلى جانب تلك الصور، صورٌ أخرى وأخرى لأشخاص يُعَذبون، وآخرين وقفوا صفًا عند مشانق ينتظرون إشارة الإعدام، وحفر لمقابر جماعية، ومن قُتل في سراديب الجهاز أثناء التعذيب، وأخرى لمحاكم نورن بيرغ لمجرمي الحرب، وأطباء أجروا تجارب على البشر، وهملر رئيسًا للجهاز وإن مات منتحرًا. أدمنا النظر إلى كم الصور والشواهد، وأفلام تعرض في قاعات، وبقايا جدار عرضه متران وكتل اسمنتية، تأسفنا على تراث بلدنا العراق، وأحداث ألمت به جلها تجاوز وإجرام، وثورات مؤدلجة، ونوازع إرهاب من عام 1958، السنة التي تغير فيها شكل النظام الى جمهوري وإلى اليوم، لو فكر في حالته حزب أو مسؤول جليل أو عالم بلا عمل، لشيدوا لهذه الذاكرة السلبية، قاعات، ومراكز ونصب قد لا تستوعبها بغداد بأي حال من الأحوال. نظرت في نهاية المطاف إلى ساعتي،

وجدت الوقت قد حان من أجل الذهاب إلى المطار، فتوقف ناجح عن سرد بعض من تاريخ برلين، أجاد سرده فهو من أهلها، وفي تاريخها ضليع.

* * *

تايلاند بنسختها الآسيوية

لقاء في مطار أرلاندا

رَنَ جرس الهاتف بنغمته العادية في ساعة متأخرة من ليل كان ممطرًا، لا يدرك فؤاد فرق الوقت بينه في السويد وبين لندن، أو بالأحرى لا يأبه، فهو صديق نصف قرن لم تُخَرِب الطائفية جدار صداقته، ولم تغيّر السنين قدرته في التخفيف من وقع المناكفات، عارضًا فكرة المشاركة في الطواف حول تايلند، الحضارة الآسيوية التي تستحق الطواف، وأكد وجود عرض لتذاكر هي الأرخص أوائل نيسان، مؤكدًا بلغة لا تخلو من المرح «ستُذَكرنا متعٌ وضعتها سني العمر في خلايا المكبوت، وأحَلَتْ مكانها تجليات هموم الهجرة والشتات». أجبت: «لم لا، وقد طفت نصف هذا العالم، وأحلم بطواف قسمه الآسيوي، ومع هذا سأطرح الفكرة على الشباب لجمع المعرفة عن بلد بعيد وحضارة مختلفة، أترُك لهم الحبلَ على غاربهِ يدلون بما يشعرون ويريدون».

وقف الأصغر مثل خطيب جامع يئمه غلاة قائلًا: «أوَلَا تعلم

أن تايلند التي جعلتها قبلتك في الطواف، ماخور كونه الأمريكان للترفيه عن جنودهم إبان حرب فيتنام، وتركوه للعرب المسنين.

نعم أعرف هذا، وأعرف أن بلادنا العربية باتت مواخير أفكار تُهتك فيها أعراض عقولنا البكر كل يوم ألف مرة، وأعرف أيضًا أنه عدم وجود حد فاصل للإثم بين النوعين من المواخير».

رد الأوسط قائلًا: «دعك من التكهن واشبع رغبةً في داخلك للاطلاع، أنا مثلك أسعى جاهدًا للاطلاع، الفرق بيني وبينك في أني مغرم أفتش عن ذاتي في الطبيعة وقمم الجبال وأدغال الغابات، وأنت تفتش عن ذاتك في عقول الأقوام».

تلفت من حولي، تذكرت الحاجة إلى سماع الابنة البكر، تأسفت غيابها لعامين لم يبقَ منهما إلّا القليل وسط غابات الأمازون تدقق بين قبائل بدائية هناك عن أصل النسخ الوارد للأرواح، وكيفية انتقالها طاقة لا تفنى من إنسان لإنسان، وعن صحة رؤيا تظهر في جلسات التنويم المغناطيسي من أنها كانت فتاة أندلسية ماتت هناك.

وقفت الزوجة الحبيبة، ضحكت ضحكة طويلة مرحة ختمتها بالقول: «رُبع عمركَ قضيتهُ سفرًا، وربعهُ الثاني دراسةً وبحثاً ومثله الثالث حربًا وعملًا في أكثر من مجال، وما تبقَّى من الرابع حصتي أتبرع بها لإكمال مشوارك في التفتيش عن ذاتٍ لن تجدها سوى في بيتنا الهادئ هذا وإن كان شقةً صغيرة، وفي كتابٍ تقرأه وجهاز حاسوب يشغلك عنا في غالب الأحيان».

ـ سأنتظر عودتك بشوق.

▪▪▪▪▪

لم يهدأ فؤاد في تدخله طوال الليل الفائت، وصباح اليوم بأدق التفاصيل حتى مكان الانتظار الموعود في المطار السويدي أرلاندا (Stockholm Arlanda Airport) الذي يصله بالقطار قبل خمس دقائق من موعد اللقاء، وكذلك نوع الطعام المفضل، أعده بنفسه سفريًا لخمس ساعات انتظار قبل التوجه الى الدوحة، المحطة الأولى في الطريق إلى بانكوك.

لم يقتنع أن عمله هذا خرق لمتعة السفر في تناول وجبة طعام من يد مضيفة خطوط جميلة، ومع هذا سايرته، وتركت له الخيار، مؤمن بحاجة الرفقة في السفر إلى المسايرة والتنازل عن الشأن الخاص.

بدأت ساعات الصباح تتبدد مثلَ غيمة صيف قائظ، كل لحظة يقترب فيها موعد الخروج من البيت تزداد الحبيبة قلقًا فوق قلقها المعهود من السفر، سألت نفسها بصوت مسموع وبعاطفة ملأت فضاء البيت حنينًا:

ـ لمَ رفضت المشاركة في هذه السفرة؟ وأجابت عن نفسها بنفسها: «لقد منعني طول الطريق، لكني ندمت»، ثم أكملت: «سأوصلك الى مطار هيثرو، أملًا في الحصول على ساعة رفقة أحس الحاجة اليها في كل خطوة سفر.

مرت الساعة كأنها دقيقة، بأن هيثرو المطار مدينة فضاء

بأحياء خمسة هي منافذ له يتزاحم في ممراتها المسافرون، وكأن القادمين منهم والمغادرين في يوم حشر، يعبرون منه الى عوالم جناتهم، ليس مثل ذاك اليوم الذي ورثناه ثقافة خوف من يوم الحساب. سرت معهم في العبور، مشيت مثلهم بخطوات سريعة، جلست على الكرسيّ المخصص قرب شباك الطائرة، فتحت الحاسوب، فأخذني التفكير بعيدًا الى الماضي حتى لم أحس وقد حطّت طائرة الخطوط البريطانية بوقتها الثابت في مطار أرلاندا السويدي، فأدركت حال الدخول أنه مطار يختلف عن هيثرو في كل شيء، إلّا النظافة فهما فيها متساويان.

كان المكان الذي حدده فؤاد لغرض اللقاء، مصطبة خشبية أمام البوابة (51)، أتممنا عندها فعل السلام أوروبيًا، ومن بعدها أخرجَ من جعبته ما أعدّه للسفر، وكأنه أحد حجاج بيت الله الحرام، فكان مناسبًا لتجاوز ضغط الوقت خمس ساعات انتظار، وأكثر منها ساعات طيران ليلي إلى الدوحة، لكن الطائرة القطرية الحديثة، وخدمتها المميزة ومضيفاتها الجميلات قد خففت ضغوط الوقت وطول المسافة ونكد النعاس، استمرت هادئة طوال ساعات الطيران الستة وحطت في مطار حمد الدولي كذلك بهدوء في تمام الساعة الخامسة صباحًا... مطار يبدو واسعًا، نظيفًا، كل شيء فيه حديث، لو لم تكن هناك اشارات دلالة كتبت باللغة العربية مع اللغة الانجليزية، لما أمكن التعرف عليه مطارًا قطريًا، إذ لا يمكن مشاهدة قطري يعمل فيه، أو يراقب من يعمل، لغزارة العمال الهنود.

الطريق إلى بانكوك

لم يكن هناك كرسي شاغر في الطائرة القطرية المتجهة إلى بانكوك، أغلب ركابها آسيويون يقضون إجازات وخليجيون سواح، قال عنها راكب إماراتي من مكانه في الجوار: «عجبي من خطوط، تستهل رحلتها بآيات من القرآن الكريم، وتوزع الكحول على الشاربين بالمجان» أجبته: «وما العجب في هذا، وهي شركة تُفصِلُ عملها التجاري على تديّن الدولة، وقد نجحت فهي الآن شركة عملاقة». هز الاماراتي رأسه علامة التأييد، لكنه وبانتقاده المنحاز هذا فتح الأبواب المغلقة للذاكرة، فتدحرجت على سطحها المزدحم بالأفكار فكرة استدخال الخطوط الجوية العراقية فلسفة التدين أو ما يسمونه الالتزام الشرعي على جميع رحلاتها، فبانت أفقر من بدايات تأسيسها يوم صنفت آنذاك الشركة السباقة في المنطقة.

بدأ الليل يرخي سدوله على العاصمة التايلندية حال الخروج من الطائرة التي تأخر درجها عند الهبوط ساعة لشدة الازدحام في مطار يتوسط عدة بلدان يأخذ منه البعض محطة انتقال إلى بلدانهم القريبة. ليل هذه العاصمة، ليس ساكنًا، جعلته المصابيح المضاءة وواجهات المحال أقرب إلى النهار، وجعلت حركة السواح وكثرتهم بعض شوارعها صاخبة، مزدحمة، يتلاطم الماشين على أرصفتها مثل أمواج البحر، ليل خاص كأنه قد عُمِلَ بقصد إيقاف الخدر وعبث النهار، جميلٌ بالكثرة والاكتظاظ بالباعة المتجولين، وعربات الطعام وأصناف الشباب الذين يصعب التفريق بين

ذكورتهم وانوثة البنات ينادون بكل اللغات، يعلنون عن بضاعة مساج، واسترخاء وحفلات رقص وغناء، تخدم غاية الليل، وسطهم المئات من بنات الليل، كذلك يصعب التفريق بين أجناسهن.

قال فؤاد وقاربت الساعة الثانية صباحًا، وقد أرهقته ساعات الطيران الطويلة «ما هذا الليل؟ لم أرَ فيه ماشيًا من أهل البلاد الّا من كان عاملًا لخدمة السياحة لمدينة فيها كل شعوب المعمورة». ثم عرّج على مقال كان قد قرأه قبل السفر أشار إلى أن تايلاند تهتم بالسياحة، وتقدر الأوساط المختصة أنها تستقبل بحدود ثلاثين مليون سائح سنويًا، وإن شعبهم، وبالإضافة إلى طبيعة البلاد الجميلة، شعب يتمتع بأخلاق السياحة فهم في الغالب ودودون، يبتسمون، يجيبون، يساومون على الأسعار، ومع هذا فالبعض القليل منهم قفاصون[1]، والشيء المهم الذي يجلب السياح اليها مدينة مفتوحة هو منظر الفتيات على الأرصفة من كل الأشكال والأعمار.

معبد بوذا

قال سائح ياباني قارب الثمانين من العمر، جالس على طاولة الفطور المجاورة في مطعم الفندق، لن تكتمل الصورة عن أهل تايلاند، دون مشاهدة القنوات المائية وساكنيها، ودكاكين بيع عائمة. كان الرجل محقًا في قوله فقد بدت من الوهلة الأولى

1) قفّاص كذلك من الكلمات التي دخلت القاموس الشعبي العراقي بعد (2003) وتشير إلى الشخص النصّاب الذي يختار ضحيته ليستفيد منه أو يستولي على ماله.

عالم خاص، تجمعت على جدران مواقعه المتناثرة كل النقائض الفاعلة في هذا الكون:

قصورٌ فارهة يسكنها أمراء، وأكواخ صفيح بمساند خشب ينعم فيها فقراء.

امرأة بقاربها الصغير وبضاعتها الرخيصة، مقابل يخت الشيخ القادم من بعيد.

جامع يجاور معبدًا بوذيًا، يتشاركان مرسى واحدًا على النهر.

انتهت جولة الطواف في القنوات المائية تركت انطباعًا قيمته العليا بقدر شحة الماء في بلادنا التي يزحف الى وسطها التصحر، ومهدت الدخول إلى المعبد البوذي. دخلناه مع وجبة كهول، خلعنا الأحذية قبل الدخول ومشينا مثلهم حفاة، رفعنا أيدينا مثلما رفعوها بالتمام والكمال، وانحنينا إلى الإله. كانت الحشمة ظاهرة، تقيدت بها شابة نصفها الأعلى عار، غطته بقطعة قماش قبل الدخول، لم ينصحها أحد ولا أحد قد أمرها عنوة. مر بعض الداخلين على إناء دائري مملوء بالماء، وضعوا فيه أشياء، وتمتموا بكلمات لم نفهمها فسّرناها طلب المراد، قال فؤاد: « إنها طقوس تشبه طقوسنا في خضر الياس وتلك الصواني المدورة يوم تملؤها نسائنا بالشموع وأغصان الياس والحلويات، وتعوّمها في دجلة، طلباً للمراد».

مشينا بضع خطوات، وتوقفنا عند حوض ماء يأخذ منه الزوار قليلًا يضعونه في أكياس، يقولون عنه ماء مباركًا، وقال عنه عربي

يراقب المشهد من قريب ربما يكون عندهم بئرًا مثل زمزم، أو على شاكلته، فأهل الشرق يتشاركون العديد من الطقوس. وفي طريق العودة أصرّ فؤاد على ركوب التك تك «الستوتة» سبيلًا للعودة إلى الفندق، فالهواء والماء، ووجوه الحسان تستحق الركوب، والتجوال في زحمة السير، وتستحق التأمل في حركات السائق الذي أقلنا من وسط الجموع، وولعه بالمراوغة، وكثر استعمال المنبه وتغلغله في شوارع وأحياء، وأسواق لا يمكن مشاهدتها إلّا بهذه الوسيلة المعبرة عن فقر البلاد.

بتايا (Pattaya) الجزر المتناثرة

أخذنا المكان المخصص لنا في الحافلة المتجهة من بانكوك إلى بتايا، وأخذت لها هي الأخرى مكانًا قريبًا، بانت منه وكأن السهر غلف محاق عينيها الزرقاوين بقليل من السواد جعلهما ناعستين، لون بشرتها الخمري وطول قامتها، يعبران عن جمال فيه ملامح من خارج هذه البلاد، تمسكُ في يدها اليسرى كتاب تقلب بعض صفحاته بإمعان، وفي اليد اليمنى قطعة قطن مضغوط، تزيل ما بقي على وجهها من مساحيق الليل.

تمتمت بلغة محلية كلامًا يكاد لا يسمع، حركات جسدها تعبر عن تذمر من شيء ما، ظننتُ تأخر الحافلة عن موعد الوصول أكثر من ساعة هو السبب... فكان سببًا شجع الدخول معها في حوار فضفضة في الوقت، وتخفيف قلق التأخير.

قالت دون تردد، أمها أمريكية جاءت تبحث في الديانة البوذية قبل ثلاث عقود، عشقت أباها الفلاح التايلندي الساكن في ضواحي بتايا، فجاءت هي الثمرة الوحيدة لزواجهما الصامد حتى الآن.

ضحكت دون استهزاء، عدّلت من جلستها على الكرسي، وكأنها في صف دراسي عندما سمعت همسًا بالعربية عن رشاقة لا تمتلكها إلّا عارضة أزياء. ردّت ببضع كلمات عربية، وأكملتها بالإنجليزية قائلة: «أفهم العربية، لأن كثيرًا من زبائني عرب».

أجبتها «وما علاقة العرب بعرض الأزياء؟»

ردّت بثقة أكثر رصانة: «لم أقل أني عارضة أزياء، أنا راقصة تعرٍ في نادي ليلي، أوفر بعملي هذا، مصروف دراستي الجامعية، للسنة الأخيرة في قسم الفيزياء».

لم تتحرج من الإجابة، بل كابرت في الرد على سؤال صريح حول مستقبلها، فقالت: «يئست الحصول على عمل، يكفي تسديد مصاريف الدراسة، فاستثمرت جسدي ذي العشرين عامًا».

توقفت قليلًا وكأنها تتحسر، وأكملت: «لابد من العمل، وإن كانت تجارة جسد، لأن الأهل هنا لا يستطيعون تسديد المصاريف، ولا يمكن الحصول على قروض دراسية كما هو حال الغرب والأمريكان».

التفت فؤاد قائلًا بكلام شبه صامت «أيقنت توي أننا في نعيم». فسألت مستعجلة: ماذا تقول؟.

أقول: «العمل شرف».

خفف الحوار الشيق هذا إزعاج التأخير عن الوصول المفروض إلى بتايا عبر طريق يزيد عن المائة كيلومتر بأكثر من ثلاثين، يدفع سالكيه من أصحاب السيارات دفع رسوم للمرور، مزدحم جدًا، لم تنقطع عن جوانبه مشاهد المخازن، ومعارض الشركات، والمصانع، ومحال تصليح السيارات، وبحيرات أسماك، وأشياء أخرى، كان الحوار سببًا في عدم التركيز عليها، ومع هذا فانه طريق سريع لا يقترب في الحال من تلك الطرق السريعة في الغرب، قالت مؤكدة نهايته: «هذه محطة بتايا للحافلات، فندقكم ليس قريبًا، عليكم الذهاب بسيارة أجرة، واذا تجدون صعوبة في هذا، لدي الاستعداد إرشادكم اليه». فشكرناها قولًا وتلويحًا باليد، فردت هي كذلك تلويحًا باليد.

ساحر بتايا العجيب

يظهر گوگل في أيامنا هذه سيداً للقوم، أو عرافًا مضمونًا يجيب عن كل سؤال. غَيَّرَ من عادات القوم في السؤال، اتباعه من الشباب في حِلّهم وترحالهم لا يسألون إلّا هو عرافًا في كل شيء، وأبقى الشيوخ لا يتغيرون، يسألون من يكون في المواجهة حضوريًا، كان من بين السائلين زوجان صينيان كهلان توقفا عند استعلامات الفندق يسألان عن معالم بتايا التي تستحق المشاهدة.

أشار العامل الى شارع للمشي يجاور البحر هو المناسب في الليل. تلقفنا الإشارة على الفور، وعَدِلنا عن السؤال، لنسير

خلفهم حيث المكان ورائحة البحر ودخان السجائر، بانت على جانبيه مطاعم ومسارح، وفنادق من كل الدرجات، وفرقٌ ترقص على الناصية، وأخرى تستعرض فنًا شعبيًا بأحد الزوايا القريبة من الرصيف، وفي الزاوية الأخرى بائع مثلجات تركي يرتدي لباس السلاطين وقد عمل من شاربه هيأة سلطان، يمشون إلى جواره أناس من الشيب والشباب، وبعض أطفال، وآخرين يتحركون أفواجًا، يسبقهم حامل راية، يُدلهم على الدرب، يبقيهم متلازمين، وكأنه من أولئك المحاربين حملة الرايات في معركة حطين، وأبعد منهم بقليل مجاميع أخرى يتقدمهم شخص، لا يحتاج طول قامته لراية يحملها مثل راية حطين، يده عند رفعها تكفي علامة نصر مبين، على يمينه رجل يتجمع حوله المريدون، داعية يمسك أوراقًا بِسَوّقْ بضاعة محلية، ومثله آخر يروج لمساج هو كذلك محلي، وآخر يعرض ساعات يدعي علاماتها عالمية يحاول بيعها لمن لا يعرف الساعات وحقيقة التزوير، ومع هذا فغالبية السواح يعرفون، وبين هذا الجمع كان هناك سحرة، يعملون بخفة اليد لا يحتاجون إلى تمائم، ولا بخور ورياحين، أكثرهم شطارة روسي مجنون، يسحب النقود بمسافة متر من أفواه الواقفين، بكلمة يقولها واشارة لا يفهمها المتابعون، بارع في تلطيف الأجواء والكسب وزيادة عدد المتفرجين، دخن سيجارة، جعلها أربع، أدخلها في فم سائح، حمد فؤاد الرب في أن لا يكون، أخرج الدخان من مؤخرته فزاد التصفيق وتضاعف عدد الجمهور، وفرح صاحب الشأن،

وهتف شاب مخمور، قائلاً: «بالسحر وحده نتمكن من العيش بلا هموم».

جزيرة جيمس بوند

قَلَبَت في النت، وبعض صفحات المواقع التي تغطي العالم الافتراضي، نظرت إلى ما حولي من طبيعة أقل ما يقال عنها جميلة، ثم غططت ثوان في التفكير، أخرجت من بعدها هاتفي النقال كتبت رسالة نصية إلى نعمان صديق ينوي اللحاق بنا، أصف فيها المكان:

عزيزي نعمان، سألتني عن المكان في الأمس، يسرني الكتابة لك والقول: «لو أدرت وجهكَ صوبَ الحج توبةً، أو السياحة متعةً، أو ما شئت. لو تنقلْت في هذا العالم الواسع يمينًا، وشمالًا ما شئت لن تجد في حلك وترحالك أجمل من هذا الخليج البحري التايلندي (بان ناه). إقصْدّهُ في أول يوم تصل الجزيرة الأكبر فوكيت. إصعد مركبًا قديمًا، أو يختًا جديدًا مع جماعات تتوجه أفواجًا الى جزره الأربعمائة وستين. أدخل بقدمك اليمنى حافيًا، ولك ان تنتعل ما يصنع من المطاط نعالًا، فالجولة في عالم ماء، يقربك المركب الى جزر تختارها مسبقًا، ينقلك اليها زورق بمجاذيف، أو بخاري، أو تسبح اليها ان كنت مقتدرًا، لك ما شئت. عالم غريب هذا الذي نحن فيه الآن، الجزيرة صخرة، أو الصخرة جزيرة خضراء، تنبت عليها أشجار، بعضها يميل بزوايا تتحدى قوانين الفيزياء، نحتت الطبيعة في سطوحها أشكال، أحدها يوحي وكأنه بوذا، وأحدها الآخر على شكل فيل، تجاورهما ثالثةً لها شبه بجسم البعير، نحت

الماء في جوفها كهوف تدخلها بمصباح، هي أبدع وأدق من فعل الانسان. جزر قريبة من بعضها، وأخرى عزلت نفسها كأنها، تُفضل العيش بعيدًا مثل الانسان، وأخرى تبرز وسط ماء أزرق فيه خضرة، عند النظر اليها من بعيد توهم الناظر أنها ملوية، أو مئذنة جامع، أو برج كنيسة فيها ناقوس. وسط عالم الجزر هذا هناك جزيرة (كو تابو) مَثَلَ فيها جيمس بوند أفلامه، أحب السكان تلك الأفلام، سعوا الى استثمارها في تحسين عيشهم فغيروا اسمها الى جيمس بوند فزادوها شهرةً، عملوا لها مراس لبيع التراث المحلي، تطُلُ على مياه تخلو من صخب الموج، تلك التي سَبحَ فيها بوند مع حسناء فاتنة، وأشجار تتدلى أغصانها من الأعلى، وبعض جيوب بين صخور توارى خلفها ليتفادى أهداف يطاردها وتطارده، وتلك الصخرة الناتئة وسط هذا الماء الهادئ يوم دار حولها بزورقه السريع في لقطات مثيره، واذا ما كنت بعيدًا عن تاريخ السينما وشغف الفرجة على بوند، وأفلامه يمكنك التمتع بالطبيعة الخلابة، فأنت على هذه الأرض ومراكبها، وبين البسطاء من أهلها، حرٌ لك ما شئت. لا أنصحك اختيار المجموعة التي ترافقها في الرحلة الى الجزر مسبقًا، اتركها للحظ كما تركناها نحن فحظينا بمجموعة شباب بالصدفة ملأت القارب، أمريكي وصديقته الهولندية، وبحريني وزوجته السورية، وسعوديان أكملا دراستهما الجامعية في أمريكا توًا، وآخرين وسطهم قبطان الرحلة جو، شاب تايلندي مسلم، وبعد أن أخذ الشراب من بعضهم مأخذاً كبيرًا عملوا من وسط المركب في العودة مسرحًا، رقصوا فيه، غنوا واقفين على مصاطبه، رَشوّا الماء البارد على بعضهم والمتفرجين

المصفقين من حولهم، تأسفوا نهاية رحلة لم تدم سوى تسع ساعات. وقف جميعهم من بعدها على المرسى، وَدَعّوا بعضهم كل على طريقته، مصافحة، أو تقبيلًا، أو بإشارات اليدين، تركوا الأمر لنا أصحاب الشأن في القرار على التحية التي نشاء. نحن بالانتظار».

مسدس ماء في عيد الماء

في بتايا شارعٌ أسماه الأولون بيتش رود (Beach Road) يوازي شاطئ البحر بممرين عريضين، المشي على أرصفته الضيقة يقرب الماشي من البحر، يقحم رائحة البحر الطازجة في الانوف بطريقة تنعش النفس، يسمعهم هدير المياه الزرقاء، كان بعد الظهر قد غص بالمارة من أهل البلاد، والسواح من كل الأرجاء، كأنه لا يهدأ، وكأن ناسه لا ينامون، وان ناموا لا يستغرقون في النوم. آلاف السيارات، وأكثر منها دراجات نارية، وبائعي أرصفة متجولين، وطفل في الخامسة من العمر، يحمل مسدس ماء، يرشق الماشين زخات من الماء، يغص بضحكته، يلزم المستهدف الضحك على ضحكته، وتحمل فعلته، طفل بريء، ليس عليه حرجْ.

استمر المشي على الشارع، كان على الرصيف المقابل تاجر منوعات يعرض مسدساً محشوًا بالماء، يستخدم فن الاغراء بتخفيض السعر، يثير بحركات يؤديها الضحك حد الاستهزاء، يدفع الماشين الالتفات إليه، النظر إلى هيأته شكًا في لبس لا يثير الاستهزاء، وحال التأكد من أن كل شيء مألوف، يتلقى رشقة

ماء من امرأة شابة تحمل اناءً، تفرغه على من يمر الى جانبها، يقفز إلى المخيلة المليئة بالظنون تفسير لما جرى أنه قد جرى بقصد التحرش، في بيئة لا تعير اهتمامًا الى التحرش، تلعن شيطان التحرش بطريقة دفعت الى الاستفسار عن قصة هذا الماء، فأجاب شيخ أسمر مسك هو الآخر مسدسًا، وقف في حال الاستعداد، كأنه جندي محارب يمتع نفسه بذكريات حرب لا يريد فقدانها من خلايا فرغت رواسبها حدود اليباس... اجابة بصيغة تعجب مصحوبة بضحكة منتصر في الحرب: «ألا تعلم سيدي أنه عيد الماء (سونغران) بداية سنة بوذية جديدة». عندها حان الوقت محتومًا لشراء مسدس ماء.

فتشنا نحن المحاربين القدامى عن مسدس بعيار ثقيل فيه عدة فتحات وشاجور يكفي لَتْرَيْنْ من الماء، وان كان الماء ذخيرة كُدست من أجلها البلدية براميل على الأرصفة، كاحتياط إستراتيجي تديم ملأها طول الوقت. مسكتُ المسدس مثلهم، ورششت الماء على المارة مثلهم، وتخيلت الجاري معركة ود، مقاتلوها ناس من كل الأعمار، وكذلك من كل الأجناس، وعموم البلدان، يضحكون، يفرحون يمرحون، يريدون بداية سنتهم بوذية كانت أم هجرية أم ميلادية بجرعة تفاؤل وتمنيات خير، يتم تمنيها آخر النهار.

قلت لنتمنى مثلهم، ورفعت يديَّ، صوب إله يعبدونه، قلت: «بوذى العظيم أتمنى أن تدخل مدنكم مليشيات، تخرب تسامح دينكم ما فات منه وما هو آت، تعيدكم الى عصر الظلمات، أو تبيد أجيال غرقوا في الملذات، وتصنع أجيالًا تعبد وكلاء الله

بانتظار خمر الجنة والحوريات». ومن بعد إتمام هذا الدعاء أدرت وجهي صوب إلهنا في السماء، قلت داعيًا: «ربي اجعل بلادنا جميلة هادئة كبلادهم. وأن يحصل فلاحنا مثل حاصل فلاحهم. وينتج عاملنا بقدر إنتاج عاملهم. ويتسامح إنساننا كتسامح انسانهم».

بوذا Buddha إبن الإله

بَقيَ لهذه الجزيرة فوكيت من الوقت المخصص يومًا واحدًا، أماكن السياحة فيها كثيرة وخيارات السواح أقل، الأفضل في حالتهما الذهاب الى مكتب سياحي، فالمكاتب عندهم جيدة في الدلالة، منضبطة في المواعيد.

عرضت مديرة مكتب قريب، تدلُ ملابسها، وبعض أسئلتها أنها من أهل المنطقة، أسهبت في تقديم الصور والايضاحات، فضلَ فؤاد شيئًا، وفضلت شيئًا آخرَ مختلفًا تمامًا، ولتخفيف حدة الاختلاف اتفقنا ترك الأمر لها، تختار كي لا تفتح ثغرةً في طريق سياحي سالك، فَحسمتْ الأمر، قائلة: «الساعة الثامنة صباحًا وقت الانطلاق في سيارة ميني باص، فيها مرشدة، وعشر سواح مختلفي الأديان والبلدان».

تحركت السيارة في الوقت المحدد، دخلت غابة تقيم على جبل يشرف على المدينة والبحر، كان الطريق داخلها متعرجًا مثل أفعى في سير لها بين أعشاب شائكة، قالت المرشدة: «سأتوقف

هنا عشر دقائق لتتمتعوا بمنظر المدينة من أعلى»، فكانت وكأنها لوحة أبدع في رسمها فنان مشهور، ومن بعدها طلبت ترك السيارة ساعة ونصف، ليأخذ الجميع أفيالًا في التجول، كان الفيل خاصتي مخلوق ضخم، تذكرت حال امتطاء ظهره، إبرهة الحبشي، وفيلة الجيوش القديمة، واستغلال الإنسان البشع لمملكة الحيوان.

لم يكن القرد استثناءً من الاستغلال فعرضه ممتع في لعب كرة السلة، والدلالة على الأرقام، ومثله الأفاعي في عرض تسمع فيه صراخ النسوة مع كل حركة تؤدى بإمعان.

في أعلى قمة الجبل تمثال ضخم لبوذا الحكيم، أو ابن الله كما يعتقد البعض، أو النبي حسب ظن البعض الآخر من غير البوذيين وغيرهم الذين ينظرون اليه، مُعَلِمًا مُستنيرًا، يكنوه المستنير، أو المبجل، يحسبونه نموذجًا لتحقيق الحكمة والتنوير[1]، يرتفع خمسة وأربعين مترًا، وجهه إلى المدينة كمن يضعها والبحر بين ذراعيه ليحميها، أقيم تحته معبد، في أحد أجنحته كاهن، يزحف إلى مكانه من يقصده عدة خطوات، لا يسأل هذا الكاهن عن ديانة قاصده، فهو يبارك الجميع، يبادر بالتحية، يشد على الذراع حبل رفيع منسوج من خيوط ملونه، ثم يرش من عصا في آخرها قش، ماءً مباركًا على الرأس.

1) الاسم الحقيقي لبوذا سيدهارتا غوتاما، يُعتقد أنه عاش في الهند القديمة في القرن السادس قبل الميلاد، يؤمن البوذيون أن تعاليمه تقود إلى التحرر من دورة الولادة والموت (السامسارا) والوصول إلى النيرفانا، وهي حالة من السلام الدائم والسعادة الخالصة، هدفهم ليس عبادة الإله، ولا يوجد في البوذية مفهوم لإله خالق، بل تحقيق التنوير الشخصي في الحياة والتحرر من المعاناة.

المؤمنون والزوار، وكذلك السواح يتبرعون نقودًا ملأت صناديق.

في الجناح الآخر، يجلس تلاميذ شباب، وأطفال بملابسهم البرتقالية، يتناولون غداءهم ليعودوا الى الدرس، والى جانبهم امتدت مائدة طعام بأصناف عدة لمن يقصدها من الزوار، لا أحد يسأل عن الثمن فهي تقدم بالمجان، تبرع بها أحد الأخيار تبركًا... طقوس عبادات كثير منها موجود عند المسلمين، تجعل أصحاب النيات الحسنة من كل الأديان يؤمنون أن العبادة الحقة لله يمكن إتمامها من أي مكان، ومن أي دين كان.

في الجناح المجاور تقيم فرقة فنية للشباب مسرحًا لها، تغني فوق خشبته أغانٍ محلية وأخرى أجنبية، صعدت حميّة الطرب في رأس بريطاني مسن، قام من مكانه ليرقص أسفل المسرح، لم يمتثل إلى زوجته التي حاولت ثنيه خوفًا عليه، أنتظر الجميع لحظة سقوط قد تحدث في أي لحظة من جهد يبذله في رقص تشتد فيه الحركات، لكنه لم يسقط، قاوم وأكمل الأغنية، وثانية بعدها ليعود إلى زوجته وسط تصفيق الجمهور الحار.

نبيذ الثعابين

أخذنا الحديث أثناء التجول في العاصمة بانكوك عن سمات الوجوه، وصعوبة التفريق بين أهل البلاد التايلنديين والأقوام القريبة منهم وخاصة الصينيين، قال فؤاد لم الاستغراق هذا في التفريق، والتحديق، وسأل: ألم يكن من الأجدى الذهاب إلى الحي

الصيني؟ وأجاب: «لقد قرأت عن الأقلية الصينية في هذه البلاد هي الأكبر بين باقي الأقليات، وتجارها هم الأغنى».

لم يكن الحي بعيدًا، وكانت الواسطة، قطار كهربائي حديث العهد. بانَ عند الترجل في محطته حياً مزدحماً بالناس والبضائع والأشياء، في شارع رئيسي تصطف على جانبيه مطاعم، ومحلات تؤشر اليافطات المعلقة فوقها باللغة الصينية أنّ أهلها صينيون، هاجروا الى هذه البلاد منذ عقود، أصبحوا بحكم الإقامة والعمل مواطنين يدافعون عنها أكثر من دفاعهم عن الصين، يتميزون بالوجوه المدوّرة، وكثر النشاط، ورسوم التنين، وأزقة شابَت معالمها، تمنعوا عن إعادتها شباب.

وقفنا أمام صاحب محل عطور صيني، على وجهه ضحكة ترحاب، تدعو الواقف إلى الدخول، قال: «إنه التراث لا نريد تغييره، رغم تغير كل شيء في هذه البلاد، وأننا الصينيون هنا نمثل التجارة وجزءًا من الثقافة وغالب الحياة الأرستقراطية، عددنا في هذه البلاد يزيد عن التسعة ملايين، ستجدون في هذا الحي الدنيا بأسرها، سلع من كل الألوان، مرح بكل الأشكال، وستجدون الأطعمة الغريبة، وصالات الرقص»، وقبل إنهاء حديثه قدم نصيحة، قال عنها: «كل ما تشترونه من هنا قابل للمساومة، ساوموا على السعر على قدر ما تستطيعون، فلا توجد أسعار محددة لأي شيء». وأشار إلى ضرورة الاستمرار في السير إلى آخر الزقاق لفهم معنى التراث... زقاق يذَكِرُ الماشين وسطه بأزقة بغداد سبعينات القرن الماضي، يدفع إلى التأسف على عمر قد

توقف في العراق عند تلك السنين لينطلق في عالم آخر يريد أهله اللحاق بالعالم الجديد.

انفتح الزقاق إلى زقاق آخر ممتد، بانت المعالم وكأنها لم تتغير، وبان الحي بتراثه القديم ولمسات الحداثة وكأنه حديقة تصور حياة الصين كلها ماضيًا وفي الحاضر، بما فيها من عادات وتقاليد وخرافات ومفاسد، ومكارم أخلاق، وبانت الحركة فيه ذهابًا إلى العمل والعودة منه وكأن الصيني في هذا الحي لا ينام إلّا ساعة أو ساعتين طوال اليوم إثر إصابته الدائمة بأرق تحقيق الذات. ظهر عند نهايته شارع بممرين على ناصيته مطعم شعبي صيني، تفوح منه رائحة القلي، قلت: «إذا كنّا عاقدي العزم للتعرف على الحي الصيني، لابد وأن ندخل مطعمًا صينيًا، نتناول طعامًا صينيًا، نتنحى عن أكل المألوف، نجرب ما ترغبه العين وإن كان كبد حصان مشوي، أو عقارب مقلية، أو طبق من الحشرات، ولا بدّ أن لا نتوقف كثيرًا عند الحلال فهو في الأصل غير موجود، وإذا كان مكتوبًا على الواجهات فهو ذر رماد في العيون»، وقبل عبور عتبة المطعم قال فؤاد: «يعني ذبها براس عالِم واطلع منها سالم».

بانَ المطعم من الداخل بناء في حد ذاته تاريخ، تقول تلك الصور المعلقة على جدرانه الأربعة إن تاريخه يرجع إلى العشرينات. شهد سيارة وقف حولها سكان هذا الحي مبهورين، ومدّ سكة حديد، وعربة يجرها حصان يركبها تاجر صيني ثري، وشباب صينيون يجلسون على الرصيف كأنهم قدِموا إلى هذه البلاد توًا.

قال فؤاد: «سأتجنب تناول طعامًا من غير المألوف، سأتناول رزًا صينيًا يشتهرون به»، خالفته الرأي سألت عن الوجبة الأشهر في مطعمهم هذا المدعومة جودته بالتاريخ المكتوب وكثر الحضور، تبين أنها عقارب مشوية ونبيذ ثعابين، فكانت وجبة أشبعت جوعي، لكنها أبقتني مشغولًا بالتفكير في نتائج قد تترتب عليها مصحوبة بكل الاحتمالات.

سوق الأحد

أصر فؤاد قبل يوم الختام، الذهاب إلى سوق الأحد (شاتو شاك)، قال: «سمعت عنه، إنه سوق في الهواء الطلق، معروف للسياح وأهل البلاد، مشهورة محاله الخمسة عشر ألف، المقامة على ثلاثين فدانًا». لم ينفع التمنع في الرد، لتغيير وجهته، كان مقتنعًا بما سمع، ولا مناص الا الموفقة ومجاراته طول الطريق بقطار معلق، وعشر محطات على سكته المرتفعة عن الأرض عشرة أمتار.

أشر على المحطة، وعلى الطريق منها مشيًا الى السوق. بان السوق بحجمه كبيرًا، وبأقسامه واسعًا لأنواع البضائع من الملابس إلى النباتات ثم الصناعات المحلية، والطيور، وساعات اليد المعروفة بجودة التقليد. تتشابه فيه المحال، وتتدافع مع بعضها بعضًا، وكذلك الأكشاك، وعربات الطعام، يصعب إكمال مشاهدته مشيًا في يوم واحد حتى لمن كان شابًا في مقتبل العمر، سحبنا التجول بين محاله والوقوف للاستراحة، أو تناول جرعة ماء إلى

الاقتناع بأن هذا السوق يمثل قديم هذه البلاد، ويمثل فلسفة الشرقيين في عرض البضائع والمساومة على الأسعار، لا يخجل المتسوق من إعطاء السعر الذي يريد وإن قلّ عن النصف، كل شيء هنا وفي هذا السوق قابل للمساومة.

لقد أوشكت الساعة الأولى على الانتهاء في وقتها المحسوس طبيعيًا، قال فؤاد وجدت ضالتي حزام جلد بمائة (بات) يعادل ثلاثة دولارات، وحال دخول الساعة الثانية صار وقع الوقت المحسوس ثقيلًا، أكمل خلالها ما تبقَّ من ضالته، حافظة نقود بمائة بات أيضًا، عندها أذن للعودة، فالجولة تحت وهج الشمس متعبة حقًا، أجبته بهدوء وروية: «من الإنصاف معادلة الرغبات، ما يعني جولة في سوق عصري». لم يعارض، فهو عادة سهل لا يعارض، بادر من جانبه بإخراج خريطة يحملها، أَشَرَّ على منطقة (أسوك)، وسوق لها (مول) بعدة طبقات كل طابق منه بعلامات، وهندسة معمارية يعكس حال دولة. طابقه الأول بريطانياً، واجهته محطات القطار، وأسماء أحياء مشهورة، ومن بعده التركي بتمثال لمغنٍ، يلبس لباسًا تقليديًا، يمسك آلة الساز (البزق)، صعودًا إلى الأمريكي ومجسم جسر سان فرانسيسكو المشهور، ومطاعم بابها نصفين يفتحان باتجاهين، أما الفرنسي فتشم منه رائحة العطور جلية، والياباني تزينه لوحة رسمها الفنان الياباني سايكي لسيدة بلباس تقليدي تحمل (مهفة)، وفي الداخل أحدث تكنولوجيا الإتصال.

أخذته قصدًا إلى الطابق التايلندي، وإلى محل بضاعته جلود،

سألت عند حزام وحافظة نقود، مشابهان لما اشتراهما من سوق الأحد، كان سعرهما سوية أكثر قليلًا من سعر ذاك السوق وجودتهما هنا أحسن بكثير، تركته واقفًا عند البائعة بوجهها المدور يساومها على السعر الذي يقنعه بالربح الذي حققه في صفقة سوق الأحد، لكنه لم يفلح، ولتفادي النقد توجه إلى الطابق الأرضي، بمطاعمه متعددة الأصناف والثقافات، غيَّرَ الحديث الى ما يناسب الغداء، طعامًا يابانيًا، سألت عن أشهر طبق ياباني، أجاب النادل، لديهم أنه الفوجو (Fugu)، قدم شرحًا عنه من سمك الينفوخ الياباني السام، ذات الخطورة العالية، أكد مهارة طهاتهم في إزالة السموم من هذه الأسماك، وتقديمها وجبة شهية وأمينة، وكعادتي في تجريب الأطباق الغريبة، طلبت واحدًا منها، بينما طلب فؤاد صحن رز يابانيًا (سوشي رايس)، فكان ذاك آخر طبق في تايلاند، إذ حكم وقت العودة مساءً وفي الطريق إلى المطار في سيارة أجرة قال: «غريب أمر هذه البلاد تجمع بين القديم والحديث، لقد تجاوزت آثار القديم، واقتربت من الغرب فهمًا للحياة، ومتعة عيش خلال عقدين من الزمان، وأنّ نشاط أهلها وتسامحهم وطبيعة أرضهم، وفهمهم المعقول للسياحة الفضل في هذه النقلة الكبيرة، ومع هذا مازالوا يكافحون لتجاوز عتبة الفقر التي تركها القديم، وسيتجاوزونها في القريب على الأرجح».

* * *

ريف بريطانيا وصيفها

سواد الطبيعة

لقد توقف الطواف بعد رحلة تايلاند أشهرًا، للاستراحة وأخذ الأنفاس، امتلأ خلالها جُبُ الهموم انفعالات أسى من أخبار مثيرة وممارسات سياسية فجة، ومواقف أقلها سوءًا:

داعش تفجر منارة التسعة قرون، تلغي التاريخ.

أستاذُ التاريخ يشتم الخليفة الأول ومن كان معه يوم التنصيب، يصر على إعادة كتابة التاريخ ومراسم التنصيب ليمد الاختلاف الأعسر أجيالًا لألف عام.

طبيبٌ بلا تاريخ يترك جرحًا مفتوحًا ينزف تيهًا منقوعًا بالذل في ظهر صبي لأب مشغول بقتال الدواعش حتى تسديد الأجور.

شابةٌ لا تعير وزنًا للحاضر تتعمد إهانة التاريخ، تبصق من صفحتها على أسماء ملأته غلًا، وعلى من زوّرَ، وقال نحن وغيرنا لن يكون، وتختم الكتابة علنًا أنها والعائلة تتمتعان بالعيش الرغيد من تجارة الدعارة على موائد الكبار.

عمارة لم تشِخ، يسكنها أقوام هربوا من تواريخ بلدانهم ليكتبوا تاريخًا جديدًا خالٍ من الأنا المتضخمة، والذبح على طريقة الأجداد، تحترق وسط عاصمة اشتهرت بالتقدم وتكنلوجيا الإطفاء، فيكتب الضحايا على جدران اسودت من كثر السخام أنهم ماتوا بعيدًا عن الأوطان.

وسط هذا كله وتزاحم الهموم، وأنين الذات المكبوت ارتفعت حرارة الجو في العاصمة لندن، حدود الثلاثين، تقطعت مع ارتفاعها أوصال الغيوم، خرج الناس من مخابئهم ينفضون من على أجسادهم ما علق من برد الشتاء، يُمَنُونَ النفس بالعودة إلى الماضي بلا تاريخ.

قالت بشرى البحر مكان يناسب الهروب من جذوة الحر، والتخلص من الهموم، وسبيل طواف في هذه البلاد التي أضحت وطنًا بديلًا دون سبق إصرار.

سألتها عن البحر المناسب، فاختلفنا في التعريف، وتحديد الجهة والمكان، فبريطانيا جزيرة تحيط بها البحار من الجهات كلها. قالت: «لنترك الخلاف والاختلاف، ونأخذ بخيار الخريطة وآراء من سبق، لجنوب هذه البلاد الغربي، المعروف بحسن الطبيعة والجمال، التي لم نصلها من قبل، فظهرت على السطح وَيْمَوثْ (Weymouth) المدينة والساحل وجموع الساعين إلى العيش بأمان، وددت البدء في رحلتها أو الطواف في ربوعها عند الصباح المبكر، وقبل حلوله نهضت وبدأت التحضير وحال اكتماله قلت: «عَلَنّا نبدأ الرحلة صوب المكان المتفق عليه»، ردت والنعاس

يملأ عينيها الجميلتين: «لم التبكير؟ وهل تريد زيادة الهم همًا لرغبة في الاستعجال؟ أم مجرد إصدار الأوامر في دورة حياة بدأت في الثكنات العسكرية، لا تُريدَ إيقاف زخمها وإن تلاشت تلك الثكنات». قولٌ ألزمني التوقف عنده، فالديمقراطية الجديدة، وثقافة التعامل تقتضي التوقف، والاتفاق، فكانت النتيجة وقتًا للانطلاق ليس قبل الشروق ولا بعد انتصاف النهار، وقتٌ تترك فيه لندن المكتظة بالناس والمحال التجارية والمصارف وزحام السيارات، لتدخل من بوابة لها واسعة مفتوحة إلى عالم آخر مختلف تمامًا، عالم الريف الذي تتدرج فيه الخضرة حدودًا تجبر على التدقيق فيها بكل خطوة تخطوها، لمشاهدة الفروق باللون نسبًا تبهر الناظر من قريب لشبه فيها من بساط جميل حاكته أنامل حسان.

أخذتنا السيارة بعيدًا في هذا الريف، دخلت شوارع ضيقة مسيجة بأشجار، ونباتات تتشابك في الأعلى، تسمح لأشعة الشمس الخجولة، التسلل منكسرة فتجعل منها بعض قطرات المياه العالقة على أغصان الشجر قوس قزح متعدد الألوان، أحسسنا لحظتها وكأننا نسير في غابة استوائية، حيثما توغلنا أكثر ضاق الطريق أكثر حتى اقتضت بعض أجزائه من السائقين القادمين التوقف عند فجوات أعدت لغرض التوقف انتظارًا لاجتياز الذاهبين، وهكذا نكمل جميعنا السير بسلام.

كانت الطبيعة في هذا الريف جميلة، وكان الانصياع لجمالها أخذ استراحة عند بحيرة نبتت حولها أشجار أحلاها الصفصاف

الأبيض (Salix alba)، بأغصانها التي تتدلى في الماء متمايلة بفعل الريح كما تتدلى أغصان شجرة الصفصاف في ديارنا العراقية. وأخذ استراحة ثانية عند قمة جبل، تركنا السيارة في أعلاها لزيادة المتعة بتعرجات وادٍ يمتد بعيداً ليحتضن بيوت متفرقة، وسواقي مياه متشعبة وبعض قلاع قديمة.

في هذا الريف لا تنقطع الخضرة، ولن يختفي الطير، ولا تهدأ الريح، ولم يتوارَ الشجر، غابات بعمر الحضارة أقتطع الانسان مساحات من أشجارها لينشأ حقول، آلاف منها للقمح والذرة لا ترى فيها فلاح يعمل، وآلاف مثلها مراع للبقر والغنم لا ترى فيها راع يرعى، ولا حيوان تاه عن مجموعته، ولا بقرة سُرقت، أو شاة ذبحت وعلق لحمها على سنارات القصابة الشعبية قريبًا من الشارع العام... حيوانات هذه المراعي تعودت الخروج من حضائرها صباحًا حال فتح الأبواب لتعود وقت المساء قبل غلقها بمزلاج. تلملم أصحابها قرى وفرت لهم الدولة كل شيء حتى لم يفكر أحد في ترك المكان إلّا بقصد التجول مشيًا، أو ركوب الأحصنة أو الدراجات. ساعتان هو الوقت الافتراضي للوصول صار ثلاثة بحكم البطء المحتوم في السير من أجل النظر إلى الطبيعة حتى ظهرت المدينة المقصودة ويموث، ولاح البحر وتضاعف الأمل في إغراق بعض الهموم.

ويموث المنتجع والساحل

تُوقفت السيارة عند العنوان الذي وضع على جهاز الـ (GPS) فندقًا على الساحل الممتد طويلًا بامتداد البصر، جذبتنا إلى المكان رائحة البحر، وأشعة شمس تَصادفَ بقاؤها ساطعةً طول النهار، أخذتنا الغريزة إلى الشباك المطل على الناصية، وجدنا أنفسنا مجبرين على النظر بعيدًا إلى أفق الماء، كمن يفتش عن بداية مقنعة لهذا العالم، قالت: «هو البحر الذي سَأغرقُ فيه الهموم. دعنا ننزل إلى شاطئه فالوقت يمر وزرقته الفارهة تشعرني بالحيوية وهدوء الأعصاب، لا أريد التفريط بدقيقة من عمرٍ حسابه ساعات. أود المشي على دروب ذاك الشاطئ، على حافات المياه التي تنحسر بفعل الجَزِرْ، على الرمال الناعمة مثل كل الماشين حفاة».

نزلنا الى الشاطئ على الفور، بان جميلًا ممتدًا، وقد افترش البعض رماله، أملًا في الحصول على نصيب من الشمس، وسيدات يرمين كرات في الماء لتنشيط كلابهن المدللة، وشباب من الجنسين يلعبون الكرة الطائرة الساحلية، وزورق سريع يمخر بعيدًا، يتمايل مع الأمواج، كأنه يحمل أسرار البحار إلى الأفق المجهول، وأقرب منه قاربًا يقطر مُتَزَلجةً بسرعة كونت سربًا من الأمواج متتابعة، لا تلتفت الى بعض من الذين نزلوا يسبحون تحديًا لدرجات الحرارة التي بدأت بالانخفاض، وبين الجمع هذا رجل مسن يمسك آلة كشف المعادن يمسح الرمال الناعمة، يفتش عن شيء قد يتركه الناس قبل مغادرتهم المكان يمكن أن يؤذي رواد المكان، فلم

يجد شيئًا، لأن الجميع يشعرون بمسؤولية تنظيف المكان.

كانت المياه ونعومة الرمال، ومتعة الناس، وضحك الشباب، وبراءة الأطفال وهم يدفنون أجسادهم الناعمة في الرمال، أنستنا تعاقب الوقت والمكان، لنكتشف فجأة أننا قد ابتعدنا عن المكان، وتجاوزنا وقت الوجبة المحددة للغداء بعديد من الساعات، فقصدنا مطعمًا يقدم المحار الطازج، أحد أشهر الأطباق الشهية في المدينة، عدَّ وجبة غداء تداخلت مع وقت العشاء، رواد هذا المطعم سواح يفضلون الأكلات البحرية، يسألون بعضهم بعضًا عن أصولهم، ومن أين أتوا، وانطباعاتهم عن السياحة والمكان، فكان السؤال الأوفر حظًا عن هذه المدينة، ويموث فأجاب رجل من أهلها باقٍ وشريكته بملابس السباحة إنها مدينة ساحلية يعود تاريخها إلى العصور القديمة، كانت مأهولة بالسكان منذ العصر البرونزي، تأسست مدينة مرفأ حسب سجلات التاريخ في القرن الثالث عشر، تطل على القنال الانجليزية، لعبت دورًا إستراتيجيًا خلال الحرب الأهلية (1642 ـ 1651) حتى أضحت أرضها آنذاك ساحة مواجهات حاسمة بين القوات الملكية، وبين منافستها القوات البرلمانية. دافعت ببسالة ضد الغزو الاسباني وأسطوله المعروف بالأرمادا. وفي الحرب العالمية الثانية، كانت ميناءً هو الأهم لانطلاق القوات المتحالفة في هجومها على الألمان في نورماندي. تعداد سكانها يزيد قليلًا عن خمسة وخمسين ألف نسمة يعيشون على الميناء، وعلى السياحة التي تصنفها مدينة أحد أكثر المنتجعات السياحية شهرة في المملكة المتحدة.

لقد أنهى الرجل إجابته مبتسمًا متمنيًا التمتع بالجو الذي يعد فريدًا، ثم لوح بيده متجهًا وشريكته إلى البحر، وقبل أن يتواروا نصح زيارة حصن نوتو (Noto Fortress)، فكان الحصن وجهتنا في الصباح الذي تلا، حصنًا شيد منتصف القرن التاسع عشر على تلة خضراء تشرف على البحر، تحيط به الأمواج المتلاطمة من جهة، ومن الجهة الأخرى تطوقه غابات كثيفة أشجارها عالية، تعكس أشعة الشمس بألوان ذهبية، كونت مشهدًا يستحضر في الذهن صورة الحصون الفاعلة في العصور الوسطى. يتكون من مجموعة جدران حجرية سميكة، وممرات ضيقة، تقود عبر التاريخ إلى غرف مليئة بالمدافع والعتاد العسكري القديم، ودهاليز باردة تروي حكايات الحرب والسلام، وإلى أبراج بإطلالات بانورامية على المحيط والمدينة، تُمكن المتابع رؤية القوارب الصغيرة تتمايل على أمواج البحر، كأنها تعيده إلى زمن كانت فيه مثيلاتها تحمل جنودًا وإمدادات إلى الحصن، عبر شبكة أنفاق سرية تبعث الشعور بالمغامرة، وتعيد الذهن كذلك إلى أيام كانت فيها الحروب جزءًا لا يتجزأ من الحياة اليومية.

مر طريق المغادرة عبر مساحات خضراء تحيط به، تضيف إليه لمسة سحرية، فيها التناغم عاليًا بين الطبيعة، وبين البناء الحجري، تشاهد وسطها الأزهار البرية تتراقص مع النسيم، وأسراب طيور بحرية تحلق فوق الأمواج، في منظر فريد يجمع بين الصلابة العسكرية، وجمال الطبيعة، تتمازج فيه قصص الجنود القدامى مع ضحكات الزوار المعاصرين.

تووركوي Torquay المدينة الأجمل

من تطأ قدماه الساحل الغربي لبريطانيا، يفكر في استثمار الوقت، لزيارة مدن أخرى على الطرق التي يسلكها أو قريبة من فروعها المتشعبة، فكان مقترح البقاء يومًا وليلة في توركي قد حاز الموافقة بالإجماع. مدينة تلتحف القناة الإنجليزية، الطريق إليها ريفي يمر بمرتفعات تقترب من الساحل، منحوتة بعض أجزاءه من صخور عملاقة، تفتح النفس على المشاهدة والسير ببطء حتى حدود الفندق المقصود، خمس طبقات مرصوصة فوق بعضها، طراز قديم، يتوسد تلًا في غابة تحيط به ملاعب غولف، وتنس، ومسبح في الهواء الطلق من حوله آرائك يتمدد عليها من يشتهي شمسًا تعمدت أن تكون ثرية أشعتها يوم الوصول، يشعر التجول بين ممراته، وبعض قاعات خصصت لتناول القهوة، والشاي بعدم الرغبة على مغادرته، لكن المغادرة، من أجل التجول في المدينة لازمة لإشباع الرغبة في الطواف.. مدينة نصفها دائرة تطل على شارع رئيسي يوازي الساحل، أقيمت عليه محال تجارية، ومطاعم، ومقاه، ومواقف سيارات، وفي البعيد بيوت فخمة، وشطآن متفرقة، رملها خشن وكأن الطبيعة لونته بقليل من الحمرة، ونصفها الآخر خليج آت من البحر، ماؤه في ذاك اليوم هادئ ينساب من فوقه موج خفيف، تسببه الزوارق الآتية إلى المرسى المقام على شكل مرآب يحتل جزءًا مميزًا من واجهة المدينة. في الجانب القريب سفينة ركاب تزيد عن ثماني طوابق تقل سواح يبدو أنهم غادروا المدينة توًا إلى أخرى هم وحدهم يعرفون وجهتها، وفي البعيد

سفينة صيد أنهت مهمتها عائدة إلى المرسى.

مر الوقت سريعًا، نوّه عامل المطعم الذي تطل واجهته على البحر في أثناء تقديمه وجبةً الغداء التي تأخرت قليلًا عن جولة بحرية، قال انها ممتعة عند غروب الشمس، تأخذ إلى مناطق لا يمكن رؤيتها مشيًا أو من السيارة، تعكس مناظر للساحل لا يمكن مشاهدتها إلّا من البحر، وأشار بإصبعه إلى مكتب الحجز، ومركبٍ يقوم بهذه الجولة كل ساعة.

اقترب المغيب بوقع بطيء فيه الشمس وكأنها تزحف راجعة لتغوص في الماء. كان المركب المكلف بالمهمة من الحجم الوسط، تديره سيدة تحمل رضيعًا، وقفت تشرح لمن جاء اليها طالبًا التمتع بالمغيب، تكلمت عن المدينة، وسكانها، ومن هاجر من خلالها إلى أمريكاً قبل قرون، قالت عنها جذابة توفر مزيجًا من التاريخ والثقافة ومناظر الطبيعة الخلابة، إنها من مقاطعة ديفون أعطاها موقعها على خليج توربي (Tor bay) أهمية في السياحة البحرية، يعد مينائها مركزًا حيويًا مليئًا بالقوارب واليخوت، تحوي عدة كهوف، وقلعة تاريخية تطل على الخليج. أبطأت مركبها عند حافة عالية لتتكلم عن طيور نادرة تأخذ لها أعشاشًا في المكان، وعن أمواج تعانق الغروب، وأبطأت ثانية عند صخرة امتدت إلى البحر فأمد هو ذراعه اليها، ليفتح فتحةً وسطها ينساب منها ما تبقَّى من أشعة شمس تجر أذيالها صوب المغيب.

قالت بشرى لا أود العودة إلى الفندق، سأبقى ألفُّ على هذا الساحل مشيًا، أمتع ناظري بليل أكون فيه جالسة على بعض

مصاطبه، أنظر بعيدًا إلى نجوم أتأملها، أرى سقوط نورها على الماء، عساه يذكرني بدجلة أيام زمان، فكان لها ذلك، وكانت العودة إلى الفندق بعد انتصاف الليل.

حكايات من بريستول وساحلها العريق

كانت الشمس مشرقة يوم الوصول إلى هذه المدينة الأخرى في طريق العودة، كما هي في الأمس، تسقط بعض أشعتها على أرضية الغرفة في الفندق العتيق، متسللة من بين أشجار الغابة، وكأنها تنبه النيام، أو تقول لهم النهوض خير من الرقاد، وسياحة الطواف لا تتوافق مع النوم، عكس السياسة، ومشاريع بناء الأوطان توافقيًا.

تم أخذ الفطور في أحد قاعات الفندق المتعددة، تقربها الزخارف من تلك القاعات المشهورة في قصور الأباطرة والملوك، وبعض من قادة الثورات، ومن بعده رزمت الحوائج تمهيدًا إلى المغادرة، والانطلاق صوب مدينة أخرى في خطوة أخرى باتجاه العودة إلى لندن، لكن جمال المكان دفع إلى التشبث بالبقاء إلى آخر المشوار، فكان المشوار مشيًا على الأقدام تارة، وتجولًا بالسيارة تارة أخرى على طول الشارع الساحلي حتى نهايته. مرتفعٌ يطل على البحر، مغلف بحشائش، وكأنّ خضرتها بساط مفروش، توزعت عليه أرائك تحمل أسماء شخصيات مشهورة من أهل المنطقة، يأخذها البعض مكانًا للجلوس، ويمد آخرون أجسادهم نصف العارية على الحشائش، فجميع الأوضاع مسموح بها، ومنها

جميعًا يبدو البحر مخلوقًا عملاقًا، لا ترى له نهايات، يمكن الإغفاء على نسيمه الآتي من وسط بعيد، ويمكن التمتع بحلم هادئ ثمنًا للقيلولة. لقد جاءت الغفوة حقًا، وتحقق الحلم، لكنه حلمٌ غير ذاك الحلم الذي يراود أيام الشباب عن حورية بحر جميلة، وشعر أسطوري يستر جسمها العاري، وتمنيات رفقتها لاكتشاف الأعماق، كان الحلم في هذا المكان النائي أقرب إلى الكابوس، سقوط في بئر عميق مثل البئر الذي أسقط فيه يوسف، أفقت منه متأكدًا أن البحر بعظمته لم يمسح من الذاكرة المليئة هموم لصقت بها عقود من الزمان.

حل وقت العصر في هذا المكان، تبعد منه المسافة إلى لندن أربع ساعات، قالت لم الاستعجال، لِمَ لا نفتش عن مدينة وسط الطريق نقضي فيها الليل ومنها نعود؟ فكانت برستول (Bristol) المدينة التي تقع هي الأخرى على خليج.

ساعتان متواصلتان على طريق تحدد السير فيه سرعًا تتباين حسب القرى الموجودة، وتبعًا للالتواءات، أوصلتنا إلى فندق جنوب المدينة تم الحجز فيه مسبقًا، فاجأتنا هيأته، إذ لا تعبر الصور المنشورة على مواقع الحجز عن حقيقته، بيتًا يطل على الخليج، حوّرَته العائلة ليكون فندقًا، ومع هذا يفي بغرض النوم ليلة واحدة، تبرعت صاحبته تقديم شرحٍ موجز عن مدينتها التي تمتد في أعماق التاريخ عدة قرون، إلى أن أصبحت مركزًا رئيسًا للتجارة والملاحة في القرون الوسطى، احتفظت إلى وقتنا الراهن بمعالم تاريخية مثل كاتدرائية بريستول وبرج كابوت، وجسر

كليفتون المعلق، وحديقة الحيوان المصنفة، من أقدم حدائق الحيوان في العالم، جامعتها التي تحمل اسمها مصنفة من أفضل الجامعات البريطانية.

بماذا تنصحين في الوقت المتبقي من النهار؟ سألتها فأجابت بما لا يقبل الشك «زيارة الكاتدرائية أحد أهم معالم المدينة». فكانت الوجهة اليها، موقع إلى الجانب الغربي من وسط المدينة؛ بناء حجري يجسد عظمة التاريخ الممزوجة بجمال الحضارة، مكتوب على جانبها «بدأ تشييدها سنة (1140) كدير للقديس أوغسطين». لقد شهدت العديد من التغيير والتطوير على مر القرون. تزدان مثل غيرها من الكاتدرائيات التاريخية بلوحات جدارية، ومنحوتات، ونوافذ زجاجية ملونة تحكي جميعها قصة ميلاد المسيح في بيت لحم، تقدم مشاهد للمهد، والعذراء مريم، والقديس يوسف، ومشاهد أخرى للعشاء الأخير، يجتمع فيه التلاميذ حول المائدة لتناوله قبل الصلب، مع مشاهد الصلب والدفن، والقيامة في اليوم الثالث.

لم يبق من المغيب إلّا القليل والماء سيد الموقف في كل الأمكنة، جرى النظر إلى جهة البحر، كان ماؤه وكأنه اختفى، بطريقة غريبة دفعت إلى سؤال أحد الماشين على شاطئه، فأجاب مبتسمًا أنه وقت الجزر، وماء الخليج يهرب بعيدًا عدة كيلومترات بسبب استواء الأرض وتدرجها الخفيف، لكنه سيعود قريبًا عند انتصاف الليل، فكان الهروب دافعًا للتجول بالسيارة التي قادت إلى مناطق في المدينة تقع على مرتفعات تحاذي الخليج.

قالت: «لنقف هنا أرى ماءً للبحر قريب، وأرى رملًا وعوائل تسبح وأطفال، وأرى مقهىً مدورًا لنستريح، تبين حال الاقتراب أكثر أنّ الماء الذي تراه لشاطئ اصطناعي أعدته البلدية للأطفال من أجل متعتهم، وعوائلهم لا يتأثر بالمد والجزر، والمقهى مطعمًا يشرف على الخليج، فكان المكان الأمثل لنهاية يوم، وتناول طبقًا من (Bristol Pie) تشتهر بتقديمه المدينة[1].

في قلب كهف الأساطير

يطيل الانجليز بطبعهم مدة الفطور الصباحي، يتكلمون، يناقشون، يَسمَعُونَ، وَيسّمِعونْ، قال الجالس حول الطاولة المجاورة: «ألم تشاهدوا قرية شيدر؟ من لم يشاهدها والشمس متعامدة على أشجار واديها السحيق، لا يحسب سائحًا في المنطقة»، واستمر في التعريف كأنه صاحب مكتب سياحي قائلًا: «إنها قرية صغيرة، تنتصب على وادٍ أخذت اسمه، تتبع مقاطعة سومرست (Somerset) من إنجلترا، يسكنها أثرياء، باتت معلمًا سياحيًا يئمه نصف مليون سائح سنويًا، منتجاتها من الألبان والأجبان والخضروات طبيعية، أهلها من السكان الأصليين والمهاجرين ودودون، يبتسمون لمن يعرفونه، وكذلك لمن لا يعرفون». لقد أغرانا الوصف واتخذنا قرارًا بأن ينتهي اليوم الأخير من هذه الجولة الصيفية عند هذه القرية. كان الطريق إليها ممتع يمر عبر مزارع وأشجار ومراعي أبقار ومياه، لا يحس من يقصدها بالسيارة، أو الدراجة بالوقت من كثر الجمال الموزع بين التواءات

1) . طبق تقليدي يتضمن اللحم والبطاطا والخضروات.

الشارع والأرجاء، ونقاوة الهواء حتى بدايتها فتحة وادٍ بين جبلين، وبيوت موزعة على طوله بحدائق غناء، يقطع بعضها نهر صغير، أو ساقية ماؤها زلال، استمر هكذا ينساب نازلًا من خاصرة الجبل منذ آلاف السنين، لم ينقص، ولم يتحكم به أحد من المنبع كي يزيده أو ينقص من كمه تبعًا للنفوذ.

قطعنا تذكرة دخول، وسرنا مشيًا، فالمكان المقصود قريب، مشواره الأول كهف سكنه الإنسان القديم عند استواء عوده، وحال شروعه بتكوين العائلة والجماعة. أكتُشِفَ في المنطقة نهاية القرن الثامن عشر، وأكتشف فيه أقدم هيكل عظمي يقدر عمره تسعة آلاف سنة معروض كما هو في بداية الكهف. أوصى مكتشفه أن يدفن فيه، وقد دفن فعلًا وخلّده تلاميذه، وأهل القرية بعبارات نقشت على حافة الكهف وصورة له ترتفع متران. وضعت عند المدخل خارطة ترشد إلى باب يقف عندها موظف يعطي جهاز لسماع الشرح المفصل عن الكهف. في الخطوة الأولى وعند عبارات الشرح الأولى شعرنا، وكأننا عدنا إلى الوراء آلاف السنين. بان الكهف ممرًا رئيسًا متعرجًا، على جانبيه حفر لا يزيد محيط الواحدة على ثلاثة أمتار، سكنها ذاك الانسان، وحفرٌ أخرى، مليئة بالماء الذي ينبع من الأرض، ويجري إلى خارجها، وسطه فتحة تفضي إلى الخارج، يحتم المرور منها واليها اتخاذ وضع الزحف على البطن، تستخدم للتهوية وربما للتسلل عند الحاجة، وفي الأعلى مجالًا يتم الصعود إليه بسلالم غير نظامية كان مكانًا لتخزين الطعام. خطوات قليلة بدأت من بعدها الظلمة

وتحول الكلام همسًا، فالمكان معد لتقديم العروض السينمائية، شاشتها صخور الكهف ذاتها، تحكي عن ذاك الإنسان منذ تحوله في المشي على ساقين، ونظم صيده بعصا، وايقاد النار بحجر، وتكوين العائلة، وصنع اللغة للتفاهم مع القريبين. في جوار الكهف متحف يعرض صورًا لمواقع وسبل عيش ذاك الإنسان، نظمت على جانبيه معارض لأدوات صيد تعود إلى آلاف السنين، بينها رماح من أغصان الشجر، تعتلي رؤوسها نبال معدنية.

انتهت الجولة عند حافة الشارع، وقف شابان عربيان سأل أحدهم صاحبه عن حقيقة آدم أبو البشرية، وعن مكانه، وعلاقته بهذا المكان. رد صاحبه قائلاً: أنصحك أن لا تسأل، وأن لا تفكر، فما زلنا لم نتعود التفكير الاستنتاجي، والى أن نتعود هذا النوع من التفكير كما تعوده الغربيون يفضل أن لا نسأل.

كان منظر العودة جميلًا فالبحر قريب، والنظر اليه من طريق ساحلي عالي المستوى مبهر، أوقفت السيارة عند بقعة مسموح فيها الوقوف مجانًا، قلت ها قد بلغنا منتصف الطريق عائدين من طواف قريب من البحر، كم تأملت إغراق همومي في أعماق مياهه المالحة، استسلامًا لفكرة قديمة طالما راودتني ابتئاسًا من هذا الحاضر، والخوف من المستقبل، فتيقنت أن التخلص منها همومًا ترسخت في جدران الذاكرة مثل صخور ذاك الكهف لا تتغير، وبدلًا من التعلق في ثنايا المستحيل للتخلص منها في أعماق مياه البحر، أو في صحارى التيه، سأسلك طريق أجدادي في التخلص منها بالدعاء وإن كنتُ لا أؤمن به، ولا أحبذ الغرق في

سيوله الجارفة سبيلًا للحل، لكن الخيارات ضاقت من أمامي واحدًا من أهل هذا الزمان، وحَتَمَتْ اتخاذه خيارًا هو الوحيد، ومن أجل تنفيذه كما يجب وبأتم الحذافير الطقوسية توجهت إلى أعلى نقطة في هذا الطريق، أدرت وجهي صوب القِبلة التي خمنت اتجاهها صحيحًا، رفعت كلتا يدَيّ، قائلًا: «الهي أنت أعرف بعبادك، قصدتك راجيًا، لي طلب عدّه الأخير: غيّر من طباعنا فقد بتنا قومًا لا يمكنهم تغيير أنفسهم، وأعِنّا لأن نكثر في أعمالنا الفعل، ونقل القول والدعاء. ربنا.....!» توقفت عند هذا الحد من الدعاء فسألتني: «لِمَ لا تُكمل الدعاء؟»، أجبت القائمة سيدتي طويلة، لم يكملها أحد من قبلي، وسأترك المجال لمن يأتي بعدي لإكمالها كما يريد» ومن بعد هذا سألتها:

ألم تلاحظي أن عبادة لله قد حولها إنسان عصرنا من إيمان روحي بعظمته، والاتكال نفسيًا على قدرته الى مجرد دعاء لتهدئة النفوس، وإسقاط الفروض، والهروب من المواجهة هرولةً إلى المجهول؟

صعدنا من بعد هذا الجدل الخفيف إلى السيارة دون كلام، واستمررنا طوال طريق العودة بلا كلام، كأننا فقدنا شيئًا، تبين فيما بعد أنه متعة الطواف لأيام كانت حلوة.

* * *

من أبراج دبي إلى قلــب واشنــطن

القلعة الطائرة

كانت المجموعة التي اعتادت الجلوس يوم السبت في المقهى الدمشقي عند الناصية الشرقية من شارع أجور رود وسط لندن، قد ناقشت سفرة طواف مشترك، اقترح حازم أكبرها عمرًا أن تكون أمريكا بلادًا ومجتمعًا، هي الوجهة والقصد.

لكني سبق وإن تجولت في بعض ولاياتها لمرتين من قبل، قلتها بإصرار، فرد حازم «وما الضير في ذلك فإن تجولك فيها كان قبل ثلاثة عقود، تغيرت خلالها كثير من المعالم، ومسح الزمن من ذاكرتك الكثير، ثم أنّ الطواف جماعيًا فيه متعة خاصة. فكان النزول عن رغبة الغالبية هو الأسلم، بدأت من بعدها الاستعدادات لأربعة هم وافقوا على إتمام المشروع، ووافقوا على موعد يَحلُ بعد أسبوع.

ثمان ساعات وبضع دقائق حطت من بعدها الطائرة الإماراتية في دبي، غطت حال ملامسة إطاراتها مدرج المطار، على أواصر

الماضي وغشاوة التاريخ، لتظهر الحداثة مرة واحدة، متمثلة بمطار عُرِفَ بشدة الازدحام من دون ملاحظة أي ازدحام، قادر على استيعاب خمس وسبعين مليون مسافر سنويًا، كبير في حجمه، وتنظيمه، وأسواقه الحرة، وعماله الآسيويين، وفي حركة الطائرات التي تمر من خلاله آلاف تربط شرق العالم بغربه، تُتابع من لوحات عرضٍ للحركة القادمة، والمغادرة موزعةً في كل مكان. تعيد ضخامته وحسن التنظيم والأداء عجلة الزمن قسرًا إلى الوراء، إلى يوم افتتاح مطار البصرة عام (1936) والقول عنه مطارًا سيربط أجزاء العالم، وتعيد إلى الاذهان مغزى السؤال:

أين ذاك الربط من ربطٍ قائم هنا والآن؟

كثيرة هي الأمكنة وشواهد الحداثة، وحسن الأداء في هذا المطار، والمحصلة مشاعر حيفٍ تختلط في ثناياها عوامل التعجب والحسرة، وبعض أنين مكتوم، تدفع بعد ست ساعات تأمل وانتظار جر الحقيبة اليدوية مشيًا إلى الطائرة التي ستحلق من دبي إلى واشنطن لأربع عشرة ساعة متواصلة، كان الطريق إليها محكوم بالتفتيش الدقيق، يتراصف بعده المسافرون على آرائك قاعة المغادرة، لا تستطيع إحصائهم، فهم كثر، والطائرة أير باص (Airbus A380) هي الأكبر في العالم، ستقطع في طيرانها المباشر إلى واشنطن أكثر من أحد عشر ألف كيلومتراً، بحمولة ركاب يقترب عدد الأنفار فيها من الستمائة مسافر.

تحركت هذه الطائرة العملاقة عند الساعة الثانية وعشرين دقيقة صباحًا، رخٌ أسطوري عند النظر إلى الجالسين على مقاعدها

نظرة فاحص من الأخير توحي وكأنها من هول الضخامة لا تطير، حلقت في سماء تبدو من النافذة صافية لا تشبه سماء بغداد، ولا تقترب من جمالها الأخاذ، التجول فيها بين طابقيها يعطي الطيران على متنها بعض الغرابة، يزيد طاقمها عن العشرين، وجبتان للعمل يتبادلان الأدوار منتصف المسافة، لا يهدأون، يعملون وطائرتهم دون ضجيج، وفي ساعات عملهم على ارتفاع أربعين ألف قدم عن الأرض أشرقت الشمس، لتغيب بعد سويعات، وكأن اليوم ينتهي قبل أوانه، قدموا الفطور خلال الرحلة مرتين، وكذلك الغداء والعشاء، ومع هذا دب الشعور بالملل، وقليل من الورم في كاحل القدمين، لجسم يناشد التحرك لا إراديًا، هكذا هو حال الكثيرين بين دهاليز القلعة الطائرة.

في تمام الساعة الثامنة صباحًا، أعلن طاقم الطائرة بلغة عربية سليمة الشروع بالاقتراب من مطار دالاس الدولي، وبعد عشرين دقيقة، لامست إطاراتها الاثنتان والعشرين أرض المطار التي اشترتها واشنطن من ولاية فرجينيا، لإقامته مطارًا دوليًا عائدًا لها، تتيقن في توقفها عند خرطوم طويل أن الزمن يتغير، وسيأتي اليوم الذي تتحكم بوقع تغييره الآلة.

شكى صاحبي الواقف قرب حزام ناقل لحقائب مسافري الطائرة، توقف الحزام عن الحركة معلنًا وصول آخر حقيبة تحمل حاجيات السفر، اختفت حقيبته الرصاصية، فبان القلق ظاهرًا على جسد له كثرت حركته في المكان، وارتفعت وتائر صوت ناطق بالعربية الدارجة، تقدم رجل أمن من أصول أفريقية ضخم

ودود، سأل أولاً عن سبب الحيرة ثم أخذ الرقم المثبت للحقيبة على ظهر التذكرة، وكأنه واثق من قدرته العثور عليها، غاب ربع ساعة متجولًا بين الأحزمة والمسافرين، لاح من بينها يسحب كومة حاجيات في كيس شفاف، يمشي الهوينا، تخيلته راعي بقر في فيلم قديم يسحب جثة رجل من السكان الأصليين قتله توًا، يرميها باستهزاء خامدة أمام الواقفين في باحة الشريف».

انطلق سائق الحافلة، قال طريق المطار فيدرالي تقيم على جانبيه شركات أمريكية كبرى، حاله لم يكن جيدًا بالمقارنة مع الطريق الذي يربطه بآخر سريع في أرض ولاية فرجينيا الغنية، بانت في نهايته واشنطن مدينة لم تتغير، مذ آخر زيارة كانت لها عام (1984)، عندما سجلت الذاكرة بعض معالمها في خلايا الحفظ البعيدة، شوارعها العريضة، ومعالم رموزها، وتماثيل ملأت حدائقها العامة لم تتغير. بناياتها أبقتْ الطراز الروماني ماثلاً لا ترتفع أعلى من الكونغرس هي الأخرى لم تتغير، ولم ترتفع تجاوزًا ولو شبرًا واحداً، فالقانون هنا لا يُقهر. أرصفتها عريضة، شوارعها واسعة، فضاءات حدائقها الخضراء كثيرة، لم يقضم منها حاكمٌ قُطَعُ نردٍ، يهبها مكرمةً لفرسان الحروب الخاسرة، وأصحاب السياسية المعصومين، ولم يتجاوز عليها أحد من العباد في غفلة غابت فيها سلطة الأسياد. مياه نهر البوتوماك (Potomac) بقيت حدودًا تفصل بين واشنطن العاصمة، وبين ولاية فرجينيا، لم يتنازع عليها أهل البلاد، تناثرت حول حافاته مرافئ عديدة لمراكب التجول، وزوارق السياحة والسباق، ويخوت الذوات، تطل

على واجهته عمارات أشهرها مجمع (وترجيت) بمكاتبه الفخمة، وفندق وسطه كبير، تجسس من طابقه السادس مساعدي الرئيس نيكسون على الحزب الديمقراطي سنة 1972 فتكونت فضيحة أخذت اسم المجمع، وتعممت صفةً على الفضائح المشهورة، وتسببت في استقالته الرئيس.

قال السائق من دون أن يحرك رأسه، لقد دخلنا شارع الاستقلال، هو وشارع الدستور، شارعان تتعامد عليهما مدينة واشنطن التي كانت أساسًا مرابط خيل، أراد أن يجعل منها جورج واشنطن عاصمة للاتحاد لا تتبع ولاية محددة كي لا تفقد صفة الاستقلال، فتبرعت له ولايتي فرجينيا والميريلاند بأراض متجاورة، صممها المهندس العسكري الفرنسي ببير شارل لانفان، زاد من مساحاتها الخضراء، جعل شوارعها واسعة حتى تثير العجب:

كيف فكر أهل الماضي بشوارع كانت مخصصة لعربات تجرها خيول في ذاك الزمان، لتستوعب آلاف السيارات في هذا الزمان؟

أشر وهو في الطريق على تمثال المهندس بيير، وعشرات التماثيل قادة حروب، وفنانين كبار وآينشتاين بحجم رأس يكبر نسبيًا جسمه بشكل واضح ليعطي الفنان رمزًا لعقله الجبار. توقف عند فندق قديم على شارع الاستقلال، وقبل فتح باب الحافلة، قال فندقكم هذا ويلارد (Willard) يحسب متحف تاريخ، أقام به الرئيس ابراهام لنكولن في حملته الانتخابية، وله في الفندق متحفًا عرضت على واجهته فواتير دفعها في ذاك الزمان، وكتب في رواقه مارتن لوثر كنگ خطابه الشهير، ومنه جاءت كلمة

لوبي (Lobby) (جماعات الضغط) بطل قصتها الجنرال الشمالي يوليسيس گرانت (Grant) الذي أبدع في الحرب، وفاز ليصبح الرئيس الأمريكي الثامن عشر سنة 1869، كان يدخن السيجار بشراهة وزوجته تكره التدخين، لا تقبله في البيت الأبيض، فاضطر للمجيء إلى الفندق كل صباح، يشرب قهوته في رواقه الأمامي، ويدخن السيجار، وتعوّدَ الناس مجيئه وتقديم بعض الطلبات، وهكذا باتت بعض أنواع القرارات تتخذ في الرواق أي اللوبي، فشاعت الكلمة لتستخدم تعبيرًا عن جماعات الضغط.

ابتسم السائق المرشد، وقال ستصلكم الحقائب إلى الغرف، فالعامل ينتظر، وكل شيء يسير كما هو مطلوب، يبدو أنكم بحاجة إلى نوم.

في شوارع واشنطن العريضة

حل السبت ثقيلًا على واشنطن التي تتفرد بحكم العالم، وتتفرد عن غيرها بالمال وقوة تأثير الإعلام، والحرص على فرض القانون كما تراه، المدينة التي يحكم منها أصحاب القرار الملايين في شتى الأرجاء، المشهورة بصناعة المحتوى والرأي العام، وتجارة الحروب والسلام وتبديل الصيغ بين الظالم والمظلوم. في حلول السبت كَسُلَ الفعلُ طوال ساعات الصباح، وتعطل الأداء إلّا من سياح لا يهدؤون، ومن أناس يعيشون على نشاط أولئك السياح. لقد خفّ السير في الشوارع وقلت أعداد السيارات، أشّار الواقف في باب الفندق إلى حافلة في الانتظار، ومرشد يعي واجبه جيدًا

أصله عربي، دخل شارعًا عريضًا وقال: «أنظروا جل شوارعنا هنا عريضة». مر عند العمارة المجاورة وتحدث عن ضخامة العمران، أوحى لسامعيه أن هذه البلاد تتفرد بالضخامة في كل شيء. الرجل فيها طويل ضخم، المرأة أخشن من قريناتها في كثير من البلدان، أجساد الكثير بدينه، ووجوه النسوة في الغالب جميلة.

عاد بعد أن استوت الحافلة في طريقها إلى الرموز التي يفتش عن رؤيتها سياح المدينة، وأعطى إشارة فهمها السائق توجهًا صوب بناية الكونغرس، بناء فخم اختاره واشنطن فوق تلة يصل ارتفاعها إلى مئتين وواحد وعشرين مترًا، قبتها الحديدية أخذت شكل ثدي امرأه رمزًا لعطاء الحياة، ترتكز شامخة على ستة وثلاثين عمودًا كان عدد الولايات فترة تشييدها، وترتفع سبعة وثمانين مترًا، فوقها تمثال إغريقي يرمز إلى الحرية، تحيط بالمبنى الذي لا مبنى أعلى منه في واشنطن، حدائق خضراء تحتضن بحيرة صناعية، أخذت اسم «بحيرة الانعكاس» إشارة الى انعكاس عظمة الانسان على الأرض.

قال: «لنترك الكونغرس، والسياسة التي لا يعير الخارجية منها أي اهتمام سوى خمسة بالمئة من الأمريكيين حسب الإحصاءات الدارجة»، ودعا الذهاب إلى التاريخ، إلى النصب التذكاري للرئيس الأمريكي الثالث توماس جفرسون، هو من كتب إعلان الاستقلال، ومن أرسى نظام اللامركزية، وغيّرَ في الإنجيل، وتكلم كثيرًا عن المساواة، وهو من أدخل إلى البيت الأبيض ثلاث كتب سماوية بينها القرآن، تمثاله ضخم داخل قبة ضخمة تحملها أعمدة

رومانية طويلة، تعطيها هيبة وفعل تأثير. ليس بعيدًا عن هذا النصب نصب تذكاري آخر لرئيس عظيم في تاريخ أمريكا هو إبراهام لنكولن، الرئيس السادس عشر، ذاك الذي حرر العبيد، وأعاد ولايات الجنوب التي انفصلت عن الاتحاد بالقوة في حرب أهلية انتصر فيها، وهو أول رئيس يموت اغتيالًا من خصومه، كرمه الأمريكيون بنصب على شكل معبد إغريقي يقيم على الأعمدة الرمزية للولايات الست والثلاثين يوم كان رئيسًا، يرتفع الواحد منها عشرة أمتار، وسط المعبد تمثاله جالس على كرسي وجهته الكونغرس، عند النظر إلى مؤخرة رأسه من زاوية الشمال يظهر فيها وجه عدوه في الحرب الجنرال لي، معبدٌ أو نصبٌ تذكاري يؤم آلاف الزائرين باحته تخليدًا لذكراه، وتيمنًا بأفكاره في حرية الإنسان.

أبطأ حركة السيارة عند مسلة يقترب ارتفاعها من حدود المائة وتسع وستين مترًا، هي النصب التذكاري لجورج واشنطن أول رئيس، وأعظم رئيس من وجهة نظر الأمريكان، بنيتْ من تبرعات بينها صخور من أشخاص ودول، رفض القائمون عليها عام 1848 صخرة من الفاتيكان تبرع بها البابا آنذاك لكي لا يعطون المسلة رمزية دينية، موقعها في المدينة قريبًا من نهر بوتوماك حيث ولد واشنطن وعاش. تتوسط المسافة بين الكونغرس ونصب جفرسون، أقتصر البناء على صخور دون إسمنت أو أية مواد، آلاف من الصخور، رتبت الواحدة فوق الأخرى، كأنها قطعة منحوتة.

مرت ساعات التجوال سريعة، وقد حلَ المساء، وظهر من بين

الشوارع والسوح شباب من كل الأجناس والأشكال، يتجه غالبيتهم إلى مراقص وبارات، ومشي على غير هدى في بعض الطرقات، لا يناقشون حالهم من زوايا الحرام، ولا يلتفتون إلى الحلال، قوانين الحرية كالسيف تسمح، ومعايير الحضارة كالمطاط كذلك تسمح، لا أحد يتدخل في شؤون الغير، ولا ينصح واحدًا منهم صاحبه ولا آخرَ من الغير، خرجوا للمتعة والترويح عن أسبوع قضوا أيامه عملًا يتواصل من التاسعة صباحًا إلى الخامسة مساءً، يكونون طواله مشغولين، جادين، لا يتحايلون كأنهم آلات مبرمجة. تأملتُ جوقة منهم آتية، صعب عليَّ التفريق بين أجناسهم في اللبس والكلام، تخيلت بعض أشياء، تنبهت بعد تخيلها أنها من وحي خيال قيّدهُ كثر الحرام، فأدرت وجهي صوب الفندق لأنهي يومًا تسجلَ في سفر العمر أغلبه ترحال.

واشنطن: في أحضان التاريخ والسياسة

معالم العاصمة الأمريكية كثيرة، ورموزها تشد أهل الحاضر إلى صفوة الماضي. يوم واحد للتجول فيها أو بينها لا يكفي، ولا يُشبع نهم الإطلاع عليها مجرد مرور عابر، ولا تكفي أيام لتقليب صفحات تاريخ امتدت أحداثه فاعلة في خاصرة الزمن كسكين قصاب ماهر.

يوم الأحد بدا مناسبًا ليكون وصلًا بيننا وبين أهل التاريخ الحافل، بدأت الجولة مع مهنة الكتابة والإعلام، أداة توثيق هذا التاريخ، فأخذتنا اهتماماتنا إلى متحفها، متحف الأخبار (Newseum)، استقبلتنا، بعد تفتيش عند مدخله المحكم آليًا، مرشدة شابة

أنيقة. أعطت معلومات أولية عن ستة طوابق للمتحف، وسطح مفتوح يقدم منظرًا جميلًا لبعض معالم المدينة. نصحت أن تكون البداية من الأعلى ومنها النزول، وتركت الأمر لنا إن أردنا العكس صعودًا من الطابق الأرضي، فالأمر عندها سيان.

وقفتُ مترددًا، فوقعت عيناي على طائرة مروحية معلقة بأسلاك حديدية، كتب تحتها (أول طائرة تستخدمها الصحافة لتغطية الأحداث). أغرتني بالصعود إلى الأعلى لأرى ذاك السطح المشرف وامتداد البصر الفسيح. أخذت من على صهوته صورة، ونزلت لاهثًا فقابلتني أول صحيفة صدرت، عُلِّقت نسختها، وأول مطبعة بدأت عرضت معداتها، وتمثال لطبّاع يتصبب عرق المهنة المالح.

في الواجهة، لوحة كُتب على سطحها الأنيق أسماء قتلى الصحافة الأمريكان، وبعض المشهورين من العالم الفسيح، وتجارب للصحافة أُسقطت صورها على الجدران. بجانبها، حيطان مصقولة استخدمت كشاشات لعرض أفلام عن أحداث عالمية وأمريكية، وثّقتها الصحافة التي بدأت حرة، تجاورها معارض عن معدات التصوير ولقطات لقادة انقلابات وجنود حروب. تلاها مشاهد لكوارث طبيعية وأخرى من صنع الإنسان. خصصت حصة كبيرة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، عرضت فيها صحف غطت الحدث بإمعان، وجريدة الحياة أخذت مكانًا بينها، كونها الصحيفة العربية الوحيدة بين كم هائل من الصحف العالمية. على الحائط القريب، معرض لكلاب الرؤساء، صورها وبعض المآثر.

بجواره هيكل حديدي ملتوي الزوايا، وقد سقطت منه قطع، أخذ له مكانًا فسيحًا يمتد عبر عدة طوابق، كأنه مقطع لقبر يقيم فيه الهيكل الذي كان شامخًا لسنين فوق برج التجارة العالمي قبل إسقاطه. مشاهد، وأسهم دلالات، وصور تثقل الخطى باتجاه الباب الخارجي. أقدام تشعر وكأنها تسمرت على أرض من المرمر، لا تريد لصاحبها العودة من حيث بدأت، أملًا في الاستزادة من ثروة الكلمة التي أراد معدّوها توثيق قوتها كسلطة رابعة.

سأل سائح يتكلم العربية:

أترون ذاك القصر الكبير على قمة التل الأخضر وما حوله من مروج خضراء؟

سأل السؤال وأجاب: «هو قصر الجنرال روبرت لي، قائد قوات الجنوب التي خسرت الحرب الأهلية أمام لينكولن، وبخسارتها خسرت العائلة هذا القصر والأرض (624 هكتاراً) عندما أصدر الكونغرس قانونًا جعله وما حوله مقبرة للجنود الذين قتلوا في تلك الحرب. هكذا هي الفكرة، والمقبرة التي اتسعت لتضم حوالي الأربعمائة ألف شخص، غالبيتهم قتلى حروب، وشخصيات مهمة مثل الرئيس كينيدي وزوجته جاكلين، والمهندس الفرنسي الذي صمم العاصمة بيير».

دخلنا المقبرة من باب نظامي كأننا ندخل معسكرًا حديثًا، بممرات وتفتيش وجهاز سكانر، وجنود يتناوبون الحراسة الشرفية. لقد نظمت هذه المقبرة على شكل قطاعات، مرتبة بأشكال هندسية، ولكي يدفن فيها العسكري الراغب وهو على قيد

الحياة، عليه تقديم طلب قد يأخذ تسلسلًا في الدور يمتد أكثر من عشر سنين، عدا من يقتل في الحرب، فله الحق في الدفن تلقائيًا. شوارعها نظيفة، وأرصفتها مكسية، يسمح لذوي المدفونين أن يدخلوها بسياراتهم، وغيرهم يتجولون مشاة. لكبار السن فيها حصة من العربات الكهربائية توصلهم إلى المكان. قبورها دوارس، تُعلِّمها صخور من المرمر الأبيض كُتب عليها الاسم وتاريخ الوفاة والمعركة التي مات فيها. تنتشر بينها الأشجار لتكوّن ظلًا يتفيأ به الزائرون، ومن يتأمل عزيزًا. توضع الورود فوق القبور تعبيرًا عن حب لا يموت. هي ليست موحشة، حالها لا يخيف طفلًا يجهل معنى الموت، ولا شيخًا تدلت سيقانه في القبر ينتظر الموت. لا فوارق بين أصول الموتى، ولا محاصصة في الدفن، مسلم جنب مسيحي، يجاورهم يهودي وآخر بدون. عند آخر خطوة قبل الوداع، نظرت إلى الوراء، تذكرت موتانا ومقبرة وادي السلام، وتجاوز الدفان على قبر عزيز ليدفن آخر عزيزًا، وفقدان قبر هنا وآخر من ذاك الزمان. وفي آخر المطاف تمنيت لنفسي تطبيق الرؤية الشرعية التي تقول: «أينما يموت فاقبروه».

ليل واشنطن الجميل

ليل واشنطن جميل، فيه نسمة هواء تُذكِرُ الماشي بربيع بغداد. غالبية المحال التجارية أقفلت أبوابها، فيما نشطت المطاعم، ووقف رواد البارات على الأرصفة، شباب وشيب يتسامرون. في القريب، جماعات تمشي وأخرى تتجول في السيارات. وجدت

نفسي بينهم أمشي، أتلفّت يمينًا وأدقق في الشمال، حتى ظهر في الواجهة البيت الأبيض، آخر معلم وضعته في الحسبان. يحتل الناصية واسعة على شارع بنسلفانيا العريض، يساعد على المشي، وركوب الدراجات، والتزحلق، والتودد. اقتصر المرور من عنده على المشاة، وَمُنعت السيارات من المرور بعد الحادي عشر من سبتمبر. بياض البيت وسقوط الضوء على واجهته وباقي الزوايا والحافات يعطيه زخم ارتباط بالمشاعر يبدو مقصودًا، وانعدام الحركة من حوله، وحبسها عن الأنظار داخله، يعزز المجهول وقعًا في النفوس. يمر من عنده المئات، يتوقفون، يلتقطون الصور، ثم يغادرون، ليأتي من بعدهم آخرون من كل الطوائف والنحل والأقوام. من كثرتهم وتنوعهم احترت في توزيع النظر بينهم وبين البيت الذي يسوس العالم بلا منازع. هنا عائلة يشرح الأب فيها كيف حرّق الجنود البريطانيون البيت في حرب الاستقلال، وكيف أعيد أبيضَ من جديد. وهناك سيدة مسنّة جلبت أحفادها لمشاهدة البيت، ورجل يعزف على آلة الساكسفون لحنًا لزوار البيت. في آخر الشارع، شابان يتعانقان لا علاقة لهما بما جرى ويجري، كأن الحياة والبيت خلقت لهما وحدهما.

في الميدان المواجه للبيت تمثال الجنرال الفرنسي لافاييت، سمي الميدان على اسمه تكريمًا لوقوفه محاربًا إلى جانب الأمريكان ضد الإنجليز. قريبًا منه تمثال آخر لجنرال فرنسي آخر، يعترف الأمريكان بفضل مساعدته لهم في تلك الحرب، هو روشامبو. أسفل تمثاله تمثال امرأة نصف عارية تعبر عن

قيمة العون المقدم في تلك الحرب. إلى جوارهم، وتحديدًا على الرصيف المواجه، نصبتْ سيدة من أصول إسبانية، كونسيبسيون بيكيتو، سنة 1981، خيمة احتجاج بالضد من هذا البيت. هي في الواقع ليست خيمة بالمعنى الفعلي، بل غطاء بلاستيكي على شكل خيمة، ملأت أرضها التي لا تزيد عن متر ونصف، وفضاءها المحدود بالصور وعلامات الاحتجاج. أقامت فيها، معترضةً على سياسات البيت الأبيض النووية، والحروب، والعنف ضد الأطفال، والمواقف من القضية الفلسطينية. يمنع القانون الأمريكي أسياد هذا البيت من إزالتها، ويعطي الشرطة الحق في ذلك متى ما وجدت الخيمة خالية. فأضحى المكان بيتها لما يقارب الخمس وثلاثين عامًا، لا تغادره إلا عند الذهاب إلى الحمام أو قضاء حاجة، وإذا ما فعلتها تستعين بصديقة لها تشغل المكان حتى عودتها، ولو لدقائق معدودة. قيل قد هبّت ذات يوم من عام 2016 عاصفة ثلجية، حاول الناس إقناعها بمغادرتها حيث الحرارة انخفضت دون الصفر، لكنها أصرت على البقاء احتجاجًا وهي ترتجف. أخيرًا ماتت هذه السيدة العظيمة، وأكمل مشوار عظمتها أصدقاء لها يتناوبون حتى اليوم.

هذا هو الوقت المتاح، وهذه الأماكن والرموز التي أشار موظف الاستعلامات في الفندق إلى ضرورة رؤيتها. عند النظر إلى مجموعها من جهة الكونغرس، تكون المسلة في الأمام، وعلى الجنب المقابل يكون البيت الأبيض ونصب الرئيس جيفرسون لتكون المعالم الأربعة على شكل صليب، يرمز إلى مفتاح الحياة

عند الفراعنة، وعندهم رمزًا لخلود الديمقراطية التي أرادوها لهم أبدية.

بين واشنطن ونيويورك: رحلات وانطباعات

كأن العالم صغير، أو قرية كما يقولون. سكن صديق في ركنها البعيد، ودخل أنا الآخر من بابها الخلفي. اختزلنا عقود من فراق السنين، قال هذا الصديق المشغول منذ أن غادر العراق عام 1979 «لا أملك وقتًا إلا سويعات نقضيها تجولًا في شوارع العاصمة واشنطن، ونتناول الفطور في مطعم ليس ببعيد». وقفت وإياه على حافة النهر الفاصل بين ولايتين، تَغَنّى بموج خفيف يحرك قاربًا يستقله شاب يبدو رياضيًا معروفًا. قال: «انظر، هل ترى فرقًا في طبيعة هذا المكان؟ هنا مثلث تلتقي عنده ولايتي فرجينيا والميريلاند بالعاصمة واشنطن. أمتار تفصل دون نزاع، مساكن ومحال تجارية تتجاور بالأمتار بلا جدال. قوانينهما مختلفة، وضرائبهما وأسعارهما مختلفة، ومشاعر يوحدها علمٌ يُرفع في كل مكان. لا يختلفون على تاريخ مر، ولا عن أصول جاءوا منها، ولا عن زمان طوته حوافر خيل.» واستمر في القول كمعلم يلقن طلابه درسًا في الجغرافيا «الميريلاند مشهورة بجراد البحر، لها علمها وشعارها الخاص، ولها ميناء هو الأكبر على المحيط الأطلسي. يسكنها ستة ملايين إنسان، ترتيبها الثالث في الولايات المتحدة من حيث الدخل السنوي للفرد. أما فرجينيا يا صديقي، فهي ولاية الرؤساء، أعطت لأمريكا ثمانية رؤساء، سكانها ثمانية

ملايين. تقع على أرضها بناية البنتاغون والمخابرات المركزية، فيها ست وثلاثون محطة تلفزيون وسبعمائة وعشرون محطة راديو». توقف فجأة عن الكلام، ثم عاوده شاكيًا غربة مشاعر، وبنت تقترب من سن المراهقة، وتفكير بالعودة إلى بلاد العرب ضمانًا لنشأتها قريبًا من نشأة آبائها والأجداد. قلت «شكواك، يا صديقي أو قلقك، شك في إسلامك وبغض لآدمية البنات، والمراهقة سلوك سيصاحبها هنا أو هناك. والخشية من خطأ يحصل يمكن أن يحصل هنا ويحصل قريبًا من بيت المقدس هناك. دعك من شك نافذ، ومعالم وسواس، وعش بِقِيَّمِكَ كما هو المكان، وكن على ثقة إن خرجت من عالمك هذا لأي عالم آخر، سيصاحبك الشك أينما تكون، فيجعلك تعيسًا كل الأوقات».

كان الوقت يمضي، وقد أحل اليوم الأخير في واشنطن، فباتت النية معقودة للتوجه صوب الولاية الأكثر صخبًا وازدحامًا، نيويورك، عاصمة الضخامة والسياسة والمال، وصار القرار اتخاذ القطار وسيلة مناسبة لمن يهوى الطبيعة، وإن كانت تذكرته لا تقل في الكلفة عن تذاكر الطيران. بدأت الرحلة معه صباحًا من المحطة الاتحادية (Union Station) التي افتتحت بحلتها الجديدة عام 1970 وكأنها قد اكتملت بالأمس. تلتقي عند أرصفتها القطارات القادمة من باقي الولايات، ويعبر منها خمسة ملايين مسافر سنويًا. ترتبط في أعماقها شبكة المترو بخطوطها المتعددة. ذكر المؤرخون أن المحطة الأساس سجلت رقمًا قياسيًا إبان الحرب العالمية الثانية، إذ مر منها مائتا ألف مسافر في اليوم. مداخلها عديدة، بناؤها من الحجر، داخلها أقواس ولوحات تؤشر الحركة

والوقت، تفضي إلى أرصفة تزيد على عشرين رصيفًا. منها يشرع أحد القطارات ذاهبًا، ليدخل البديل آتيًا. خلية نحل لا تعد وسطها القطارات، ولا يُحصى في بواباتها آلاف المسافرين.

انطلق قطارنا في الدقيقة العاشرة بعد الثامنة هادئًا، سار بطيئًا باحترام شديد حتى أمسك السكة الخارجية واثقًا فتضاعفت سرعته. ومن حوله الشمس المحسوبة على الصباح مشرقة، تغطيها غيوم خفيفة بين الحين والآخر. مر بحقول خضراء، سار وسط غابات، اجتاز أنهارًا وبحيرات. توقف في ولاية ميريلاند، وديلاوير، وبنسلفانيا، ونيو جرسي، ليستقر واقفًا في محطة بنسلفانيا التي أخذت مكانًا لها في مانهاتن من مدينة نيويورك، المدينة التي لها في الحضارة البشرية وقع خاص.

نيويورك: المدينة لا تنام

وأخيرًا توقف القطار في المحطة بعد ثلاث ساعات من الجري السريع، محطة كبرى تتربع على شارع رئيسي في حي مانهاتن بمدينة نيويورك. شعرت حال الخروج منها أنني في مكان مختلف، جزيرة اشتراها، أو في الحقيقة بادلها المستوطنون الهولنديون مع قبيلة الجونغيان، (سكانها الأصليون) ببضاعة سعرها في ذاك الوقت خمسة وعشرون دولارًا. قالها المرشد السياحي الذي اتخذناه مرشدًا مع آخرين. لم أستوعب قوله، فرجوته تكرار القول. فأكد ثانية خمسة وعشرون، وأكمل القول: «لقد أنشأ عليها أولئك المستوطنون مركزًا تجاريًا وأبنية ورسموا لها حدودًا وأعطوها اسمًا

«أمستردام الجديدة» تيمنًا بعاصمتهم أمستردام. حتى غزاهم البريطانيون سنة 1664 وأعادوا تسميتها «يورك الجديدة» على اسم دوق يورك، أخو الملك. هكذا هو الإنسان، يتحرك وفي داخله رمز يسعى لإكباره في العقل المهووس بالرموز.

إن ما يجلب الانتباه في هذه المدينة العملاقة هو كثرة الماشين على أرصفتها وزحام تدافعهم في الذروة، سواح وموظفون وأهل مقيمون، وكذلك ناطحات سحاب إسم على مسمى، كأنها غابة من أشجار حديد وخرسانة تلزم رفع الرؤوس إلى أعلى لمشاهدة قممها المتناثرة عندما لا يكون في الأجواء سحاب. وما يجلب الانتباه أيضًا، غلاء الأشياء في أسواقها، والشوارع ذات الأرقام بدل الأسماء، المتشابهة، المتعامدة، الضيقة بالمقارنة مع مدن أخرى في هذه الولاية وباقي الولايات، وما يجلب الانتباه كذلك تصميمها على شكل مربعات (بلوكات) عند تأملها لا تجد في هندستها جمال، كأنها منشأة إسمنتية، لا نبض فيها ولا روح حياة، يصعب القول عن نيويورك أنها جامدة، وإن كانت جدران أبنيتها حديد، وأرصفة شوارعها حديد، والصوت الخارج من سرعة الحركة لعموم أهلها يشبه صرير الحديد.

تابع المرشد سرده بثقة عالية وفهم جيد لمعالم المدينة والتاريخ، قال: «إن ولاية نيويورك من بين الولايات الثلاث عشرة التي أسست الاتحاد، وصارت عاصمة له حتى سنة 1790. موقعها على الساحل الشرقي للمحيط الأطلسي، جعلها في الأصل ميناءً اشتهر باستقبال المهاجرين، واشتهرت بتمثال الحرية الذي أهداه

الفرنسيون لها، فوضعته على جزيرة صغيرة عند فم الخليج كأن صاحبته تنظر من فوق موقعها المشرف إلى المحيط، وصول المهاجرين المضطهدين إلى هذا العالم الجديد، كي تمنحهم الأمل في حياة أخرى من جديد. إنها مدينة مكتظة بسكان يزيد تعدادهم عن ثمانية ملايين، وسواح من كل الأجناس، غالبيتهم كنديون يأتون الولاية في عطلة نهاية الأسبوع لمجاورتها دولتهم، يقصدونها للمتعة، وقضاء الوقت والتبضع أحيانًا. معروفة بصخبها والعزوف عن نوم الليل، تُعتبر عاصمة اقتصادية للبلاد، فيها المال والتجارة، والسمسرة، وشركات عالمية متعددة الجنسيات، ومصارف، ومؤسسات إعلام مشهورة مثل النيويورك تايمز، والفوكس نيوز، ورويتر وبلومبيرغ وغيرها كثير تنتج الرأي كما هو مطلوب، وتحرفه كذلك كما هو مطلوب، حتى عدّها الساسة وأهل المال العاصمة الثقافية والاقتصادية والإعلامية للعالم أجمع».

انفتح المكان، اتسع الشارع، وأشار المرشد إلى بناية الأمم المتحدة التي يسهم شكلها وما حولها من وسع في إضافة مسحة جمال هندسية تعدل قليلًا من تلك النظرة السابقة، تعد مناسبة لالتقاط صور لمنطقة عالمية لا تخضع إلى القوانين الأمريكية، أرضها في الأصل تبرع بها الملياردير روكفلر، تطل واجهتها على شارع رئيسي، ولها واجهة على النهر الشرقي، تحيط بها حدائق غنّاء مزيّنة بتماثيل قدمت هدايا من الدول الممثلة.

عاد المرشد بحافلته المكيفة إلى تلك الشوارع المتعامدة ذات الاتجاه الواحد، وقف في المقدمة وأكد أن أغلبها مقيدة بالسير

في اتجاه واحد، تقطعها وتتقاطع على ناصياتها ثلاثة عشر ألف وخمسمائة سيارة أجرة صفراء. الملاحظ عليها صغر حجمها عن تلك السيارات التي شاهدتها بزيارتي المدينة سنة 1984. كانت في تلك الأيام ضخمة، غالبيتها من شركتي فورد وجنرال موتورز، وأصبحت اليوم أصغر حجمًا وأقرب انتماءً إلى تويوتا اليابانية. وأصبح سائقوها يستعملون المنبّه (الهورن) أكثر من أقرانهم في باقي الولايات.

تلكأ قليلًا، ثم عاود قائلًا: «نيويورك اليوم أأمن من الماضي، فيها الجريمة قد انخفضت مستوياتها، وزاد عدد الشرطة حتى تجاوز السبعة والثلاثين ألف شرطي، وأضعاف هذا الرقم من الكاميرات الرقمية». وكذلك قال: «ها قد وصلنا الفندق وانتهى اليوم.» تذكرت أغنية وأنا لم أطرب يومًا على أغنية، وقلت بصوت مسموع: «يا حريمة!» قال: «ماذا تقصد؟» كررت القول: «يا حريمة!» فلم يفهم ما أقصد وكذلك الموجودون.

رئة نيويورك

يحتار المسافر عند بلوغ المحطات، يسأل نفسه من أين يبدأ؟ وتزداد حيرته في نيويورك، لأنها مختلفة وتجعل البداية أصعب. قالت موظفة الاستعلامات الجميلة في الفندق الذي قصدناه وسط المدينة: «تكون البداية أسلم مع مرشد سياحي يعرفها حقًا، ويعرف من أين يبدأ». حضر المرشد وحافلة مليئة بالسائلين ومعه عصا يؤشر بها وعليها يتوكأ، وبدأ التجول بحافلته سيرًا بطيئًا. أدخلنا أول

شارع وفي بدايته قال: «شبكة الشوارع هذه تعود إلى سنة 1801. أشار بعصاه إلى مطعم سميث المتخصص بـ(الستيك)، وقال إنه الأغلى في العالم. قلل السرعة عند مجمع يتكون من اثنتي عشرة بناية بناها رجل المال الأغنى في العالم آنذاك، روكفلر، سنة 1929، وفتح أبوابها في 1936. حوى المجمع مركزًا للاتصالات والتجارة الدولية، ومسرحًا يتسع لستة آلاف جالس، وفندقًا يحتوي على ألفين وخمسمائة غرفة، وهو الأكبر بالمنطقة. بعدها ظهر ميدان كولومبس، وتمثال له في الوسط، ومجمع سكني حوله، وقريبًا منه مركز لنكولن للفنون الأدائية، وقاعة المتروبوليتن تضم 3800 مقعد، وفرقة الباليه الأكثر شهرة في العالم، وإعلان يغطي واجهة البناية لفرقة المدينة السمفونية التي تحتفل بمرور 157 عامًا على تأسيسها.

دق المرشد بعصاه على أرضية الحافلة، وفهم السائق إشارة إبطاء تقترب من التوقف. قال بألم شديد: «على هذا الرصيف، وأمام هذه العمارة، قُتل سنة 1980 جون لينون مغني، وعازف، وشاعر فرقة البيتلز على يد مجنون.» صمت بعدها، واكتفى بإشارة الاستمرار. توقف بعد مائة متر عند مدخل سنترال بارك، رفع عصاه لنتبعه عند أرضية مدورة من الموزاييك كُتب وسطها نقش «تخيل»، إشارة إلى أغنية شهيرة لجون لينون حملت الاسم ذاته. قال: «هذا المكان حديقة الفراولة، سميت على اسم أغنية أخرى له، والنصب وما حوله تبرعت به زوجته تخليدًا لذكراه». فسح المجال لالتقاط صور وقراءة لوحات، وسار قليلًا إلى الأمام

ليعرّفنا بهذا المعْلم: «حديقة غناء جميلة، غابة أشجارها طويلة، متنزه بوسائل وطرق مفتوحة، رئة تتنفس منها المدينة. تحتوي على مطاعم ومسارح وملاعب فسيحة، ومسارات مشاة، وأخرى لأصحاب الدراجات الهوائية. يدخلها سنويًا أكثر من سبعة وثلاثين مليون زائر. أدار من بعدها عصاه إشارة العودة إلى الحافلة، جلس في مكانه على الكرسي الأول، وعاود الكلام عن معالم المدينة وتاريخها. مر بنا قريبًا من بناية الإمباير ستيت، وقال: «هذا المبنى كان الأعلى في العالم لأربعين عامًا. يحتوي على 102 طابق، ويرتفع عن الأرض 441 مترًا مع الهوائي، وفيه 72 مصعدًا. يزوره سنويًا ما يقارب أربعة ملايين زائر، وانتحر من عليه منذ افتتاحه سنة 1931 واحد وثلاثون شخصًا.

أوقف مرة أخرى، واتجه صوب مكان يعتبره الأمريكيون مقدسًا، وجعلوا منه محجًا للسواح ومزارًا لأهل المدينة. قال: «هنا كان يقف شامخًا برجا التجارة العالمية. هنا ضرب الإرهاب ضربته في الحادي عشر من سبتمبر. ومن هنا بدأ التغيير في توجهات أمريكا صوب الشرق، منبع التطرف كما تعتقد. وهنا على هذه الأرض التي اهتزت في ذاك اليوم الحزين بنوا برجًا وأقاموا نصباً تذكاريًا. النافورة المعكوسة، والمربع المحفور في الأرض يوحي وكأنه مدفن، داخله مربع أصغر ينزل الماء إليهما من الأعلى لينساب سريعًا إلى الأسفل، إلى داخل الأرض التي ينتهي عندها الإنسان. زُيّن النصب من الأعلى بنحاس حفر عليه أسماء جميع الضحايا... هكذا جعلوا لهذا المكان أهمية، وجعلوا منه معْلمًا سياحيًا.

تحدث بعدها عن المحال التجارية، وأشار إلى متجر بروكس برذر، وقال: «تحول المتجر ومتاجر أخرى لأيام إلى مراكز تجميع لضحايا فقدوا حياتهم، وتضميد جرحى تم انقاذ حياتهم. أشاد بتعاون الجميع في ساعات الشدة التي لم تشهد لها أمريكا مثيلًا في عصرها الحديث». سار قليلًا يلهث من عمر أخذ منه مأخذًا كبيرًا، توقف عند بناية وصفها بالمكواة، ترتفع عاليًا لتأخذ لها نصيبًا في الأرقام القياسية. تتوسط ثلاثة شوارع، جبهتها الأمامية متران وجبهتها الخلفية عشرون مترًا. عند النظر إليها من الأعلى يصح وصفها بالمكواة. بعد النظر اليها مليًا قلت لعربي يشاطرني الجلوس «لماذا نمتعض عند النظر إلى بغداد التي تجزأت بيوتها إلى بيوت واجهتها ثلاثة أو أربعة أمتار؟ يبدو أن الحاجة تفرض نفسها، والمثل المصري يصح ذكره: مفيش حد أحسن من حد».

رحلة إلى قلب الحضارة

برودوَيّ، أو الشارع العريض وسط نيويورك، بناه الهولنديون قبل مائة عام من استقلال أمريكا، وأكمل بناؤه البريطانيون بعد استعمارهم أمريكا، وزاد عليه أهل البلاد الجدد بناءً بعد توحيدهم أمريكا، جعله الثلاثة بتفاعل ثقافاتهم الثلاثة قبلةً فنية عالمية. شارع عريض نسبيًا بين شوارع المدينة التي تُعَد ضيقة على وفق النظرة النسبية ذاتها، تُقام عليه مهرجانات واحتفالات دورية، يمر به عشرة ملايين سائح سنويًا، تتواجد على طوله سينمات تعرض أفلام كل اليوم، وتقدم المسارح المفتوحة مسرحيات تستمر

سنوات، وعروض فنية ومتاحف. اقترح صاحبي دخول مسرحية، داعمًا مقترحه بالقول: إن معايير الرقي الحضاري تبدأ في المسرح ولا تنتهي عنده. أشار إلى مسرحية علاء الدين التي تُعرض بشكل مستمر منذ أكثر من أربع سنوات في مسرح أمستردام، التحفة الفنية التي زُينت جدرانه رسوم وصور لممثلين كبار، وشخصيات عالمية، وتماثيل ولوحات. أخذتنا الأرجل مشيًا إلى مكانه غير البعيد عن الفندق.

كانت بداية الشارع مزدحمة، تشهد تدافعًا ناعمًا بين جمهور على اليمين أتم توًا مشاهدة فيلم مثير، وجمهور على اليسار في طريق الدخول إلى متحف يؤمه المئات. وفي الركن القريب وقف العشرات يتناول بعضهم شرابًا، ويشارك بعضهم الآخر أصحابه في الكلام. أخذوا لهم مكانًا على الرصيف، رجال ونساء، شيوخ وشباب، وبعض الأطفال وقفوا خلف بعضهم في خط مرصوص على طول الرصيف، وجهتهم مسرح أمستردام. مررنا في طريق الدخول إليه على نقطة التفتيش، ومن بعده بلغنا الاستعلامات للتدقيق في التذاكر، والدلالة على الوجهة فالمسرح كبير وله مداخل عدة يقف في مقدمة كل منها عامل يؤكد صحة الوجهة. كان نصيبنا الطابق الثالث من المسرح ذي الأربع طبقات، مفتوح من الواجهة بزاوية نظر علوية. أوصلتنا الفتاة التي اختيرت بعناية إلى الكرسي المثبت عليه الرقم. لم أجلس حال بلوغ المكان، كأني لا أود الجلوس، فالمكان مبهر بحيطانه المرسومة، والشرفات (البلكونات) المخصصة لجلوس العوائل أو الجماعات التي تسعى

إلى الخصوصية، والاستعداد لدفع مبالغ أكثر.

بدأت الستارة العريضة بالتحرك ارتفاعًا من الأسفل عند الثامنة تمامًا، توقفت عند مستوى الطابق الرابع، وتبدلت ألوانها آليًا عدة مرات. بقي الرأس المثبت على جسدي طوال حركتها يدور في عدة اتجاهات، دون سيطرة مني على دورانه الممهور بحفنة تعجب. خرجت من خلايا العقل المشدوه أثنائها ومضات ذكرى لسينمات ومسارح بغداد، والبصرة، والموصل، وبابل في عصرها الذهبي إبان ستينات وسبعينات القرن الماضي. وطفرت معها دون سيطرة مني كلمة «أوف» وسط جمهور لا يعي معناها الصحيح.

في هذا المكان وفي كرسي من بين ألف وثمانمائة كرسي العدد الإجمالي، بقيت وصاحبي نتلفت، وهذه المرة إلى الجمهور الجالس، ومصابيح الدلالة، وامتلاء الكراسي جميعها، وسكوت قد عمَّ المسرح إلّا من همس تعجب بيني وبينه كان خفيف.

بدأت المشاهد متسلسلة، علاء الدين ذاك الشاب البغدادي يعجب بابنة السلطان، كما جاء تمامًا في «ألف ليلة وليلة»، ونعجب نحن بأداء الممثلين وبالإخراج المسرحي، والموسيقى في إنتاجها رقصًا يمزج بين الشرقي والباليه، وحركات تجمع قدرًا من الحقيقة والخيال مستوحاة من عوالم السحر، لا يسع المشاهد إلّا أن ينبهر بها وبالتقنية المستخدمة، والديكورات التي توضع وتختفي آليًا، والدخان الخارج من المصباح، وظهور الجنيّ من على خشبة المسرح بطريقة وكأنه يخرج فجأة كما قرأناه في الأصل، واختفاؤه من عليها كذلك فجأة، وطيران السجادة في أجواء

المسرح، يمتطيها علاء الدين وإلى جانبه حبيبته بنت السلطان.

كل شيء في هذا المسرح ومن حوله مثير للدهشة، يعبر حقًا عن حضارة تتقدم بسرعة، طوعت التقنية، أو قسمًا من التقنية لمتعة الإنسان لقاء عائد مادي يديم دورة اقتصاد لا علاقة لها بالدولة إلّا من نواحي المراقبة، والضبط، وجني الضرائب مليارات.

انتهت المسرحية وفي زحمة الخروج رحت أتطلع إلى الوجوه المفعمة بالمتعة وقلت لصاحبي، «لو كان الأمر بيدي لدَفَعتُ كل سياسي ومسؤول حكومي عندنا في العراق إلى حضور هذه المسرحية على حساب الدولة أملًا في أن يرى معنى الحضارة، ويقيس الزمن الذي توقفت عنده الحركة في مسرحنا الكبير، عسى أن يغير آراءه عن معنى التحضر والفن، ويعلي شأن الحرية الفردية التي بنت مسرحًا يمثل حضارة هي الأولى في عالم اليوم.

متحف الشمع، تجربة فريدة

لم يمل صاحبي التجول، ولا الرغبة في الاطلاع على معالم المدينة وباقي الأحوال، لكن معالم نيويورك لا يمكن تغطية جميعها باستعجال. في آخر يوم لهذه المدينة الصاخبة اقترح الذهاب إلى متحف الشمع (مدام توسو)، فقد سمع وقرأ عنه الكثير. أيدتُ مقترحه فديمومة الرفقة تحتاج إلى تأييد، وتوجهنا على الفور إليه في عمارة من عدة طبقات تتوسط شارع برودوي، قطعنا تذكرتين، لم تكن التذاكر غالية مثل تذاكر المسرح. وضعنا قدمينا على أول السلم، فكانت في الواجهة تماثيل شمع لعديد

من المشاهير تقترب من الواقع إلى حد كبير. أكثرهم ممثلين مشهورين، وفنانين كبار ومطربين، ومذيعات قديرات، ومقدمي برامج تلفزيونية، وعلماء ومخترعين، وفي طريق الصعود إلى أعلى وضعت تماثيل رؤساء دول؛ أخذ نيلسون مانديلا وكاسترو مكاناً مميزًا، وقريبًا منهم وقف ياسر عرفات بكوفيته المعهودة، والقذافي بعباءته المعروفة، وصدام حسين ببزته العسكرية، وإلى جانب من القاعة الفسيحة أخذ الرؤساء الأمريكيون مكانًا مميزًا بينهم بوش الابن، وأوباما، وكلينتون واقفًا إلى جانب زوجته هيلاري. وفي آخر الرواق المكتب البيضاوي للبيت الأبيض يقف وسطه الرئيس ترامب بقصة شعره المميزة. سمحوا لمن يكون مهووسًا بالرئاسة من بين الجمهور الجلوس على الكرسي الرئاسي والتقاط صورة مع تمثال الرئيس، علّه يتخيل أنه الرئيس... طوابق عدة، وممرات عدة أحدها للرعب صمموه خصيصًا لمن يشتهي الإثارة من وقع الرعب، والتمتع بخفضها بعد انتهاء اللقطة بسلام. وبعد هذا القسم، يوجد قسم خاص يؤرخ لصاحبة الشأن (مدام توسو) منذ ولادتها ونشأتها الأولى فرنسيًا سنة 1761 وهجرتها إلى أمريكا، وعملها نحاتة لتماثيل رؤوس جنود مقتولين في الحرب الاهلية، حتى افتتاحها معرضًا يضم تماثيلها، ومن ثم انتقالها إلى لندن، وإقامة أشهر متحف شمع بين متاحف تحمل اسمها في عديد من البلدان. وقبل المغادرة وجدنا أنفسنا داخل قاعة تعرض هدايا تذكارية تُباع بأسعار معقولة، ووجدنا وجوب الشهادة أن المتحف كان منظمًا ومزدحمًا بالزوار، لكنه لا يضاهي في مادته وتنظيمه متحفها الشهير في لندن. ووجب الاعتراف بأن الوقت قد

مرَّ سريعًا مما يدفع إلى استغلاله بالقدر المطلوب ورزم الحوائج استعدادًا لمشوار آخر، سيتم في ولاية فلوريدا هذه المرة.

تامبا بين سحر الطبيعة ومتعة الاكتشاف

موقع المطار قريب، والحضور قبل ساعتين معقول لرحلة داخلية صوب ولاية فلوريدا وبالتحديد مدينة تامبا. تأخر الصعود إلى الطائرة وتمدد الوقت مرتين، واعتذرت الشركة لازدحام في طريق الركون إلى الخرطوم. صعد الركاب يتمتمون، فالوقت عندهم من ذهب. درجت الطائرة بطيئة، توقفت مرتين، وفي الثالثة أطفأ الطيار محركاتها معتذرًا عن الإقلاع لعاصفة هبت في الأجواء. عند هذا استسلم الجميع دون تعليق، فالحياة عندهم ثمينة، ومن بعد أقلعت واثقة بجناحيها، وبقدرة الطيار على اختصار الوقت إلى ساعتين وربع الساعة، وحال هبوطها على أرض المطار عاود الاعتذار عن التأخير ساعتين.

كان الوصول إلى تامبا ليلًا، لم يعطِ فرصة لتكوين انطباع عنها، مدينة تحف مصابيح الإضاءة العالية شوارعها الواسعة، حتى محيط الفندق الذي يتوسطها بطوابقه العشرة، وحدائق مسقفة بزجاج، ومسبح مفتوح في طابقه التاسع، يشرف على المدينة التي تظهر من تحته خضراء. قال موظف الاستعلامات إن فندقهم من البنايات العالية، فالمدينة معروفة بانخفاض بناياتها، وبيوتها ذات الطابق الواحد أو طابقين، ونادرًا ما تتعدى ذلك، مفتوحة حدائق بعضها على البعض الآخر. أشار إلى وسطها، وإلى عمارات

لا تتعدى العشر يُعدّونها عالية، وعندما سألته عن السبب، أجاب «أن التربة هنا رملية لا تتحمل أعباء البناء العالي». ختم قوله وهو يسلم مفتاح الغرفة «ستجدها أجمل في النهار، وستكوّن عنها انطباعات إيجابية، فهي مدينة معروفة بهدوئها وجمالها الخلاب».

حل الصباح مثل غيره من صباحات في هذه الحياة، لكل واحدة منها تذكار وطعم وبلد فيه أطوف، أقضي وقتًا أضيفه إلى العمر ساعات من المعرفة وأيام. وصباح هذا اليوم في مدينة تامبا من فلوريدا الولاية التي توصف بأنها جميلة، مدينة تتوسد في نومها خليج المكسيك، مترامية الأطراف، يغطيها السائح بسيارة يستأجرها وسائق يعرف المهنة، ومعالم ريف وحضر، وساحل على طول بحر رماله بيضاء، وكثير من البحيرات ماؤها مخضر بلون الشذر.

شرع سائق التكسي في السير واثقا، مر عبر شوارع واسعة بأربعة ممرات للرواح، ومثلها للمجيء، وبيوت بحدائق مفتوحة لا حاجز من حجر بين الجار والجار، ولا سياج يفصل بينهما، ولا أحد يحتج على طفل تجاوز الحد الوهمي أو على كلب فضل اللعب بعد ذاك الخط. أمام الكثير من البيوت يخوت صغيرة أو بيوت متنقلة (كرفان)، وأكثر من سيارة تصطف في المرآب.

توقفنا عند بحيرة صغيرة، سألت:

لم السياج؟

قال: «فيها تمساح.» وعاودت السؤال:

ومن أين لها التمساح؟

فعاد هو بالجواب «كل بحيرات المدينة تحمل تحذيرًا عن احتمال وجود تمساح، يأتيها من طير يحمل بيض تماسيح ويرميها في البحيرات فتفقس. وتماسيح هذه المدينة محمية بقانون، يبقيها في أي بحيرة، أو بركة ماء تشاء حتى بلوغ اثني عشر قدمًا، عندها تنقله الشرطة المختصة إلى محميات طبيعية». ارتأى عبور هذا الشأن فالقصص عنه كثيرة، وسار صوب البحر قال: «المغيب هناك جميل، والماء عليل، والسباحة فيه تكسب الجسم جرعة نشاط منعش، واستنشاق هواء مشبع بملوحة البحر يزيد النشاط». بان البحر وساحله، ورمله الأبيض بنقاوة ذرات الثلج، ممتدًا على طول البصر، غاصًا بالناس من كل الأعمار، يعوم غالبهم في الماء القريب، شيب وشباب، وعند حافاته يلعب أطفال ترسم الأمواج الخفيفة على وجوههم سعادة ماء لا توصف. تحف به حدائق وَقفَتْ بها شامخة عمتنا النخلة، شكلها وهيبتها كنخلة البرحي العراقية، لكنها لا تحمل رطبًا مثل برحينا، ولا المكتوم، فالجو غير مناسب. بينها وفي هوائها الطلق فرقة شعبية من حولها عشرات يتفرجون، وآخرون يمشون، وممر خشبي على جانبيه أصحاب بسطيات تبيع تحفًا للذكريات، ومستلزمات صيد. ينقل هواة الصيد إلى أماكن في زواياه يصيدون، ويحمل من لا يريدون السبح، مشيًا إلى داخل البحر لأكثر من مائة متر، يضعهم على منصة أوتادها راسخة في الماء. كان المرور منه والتنقل عليه لقاء دولار واحد، لإدامة المكان. وقف في آخر الزاوية طفل في العاشرة

بقصد الصيد، رمى سنارته، جالسًا ينتظر صبورًا مثل الكبار، نزلت من خلفه الشمس وسط المحيط، بين غيوم متفرقة فكونت مغيبًا بألوان جميلة، كأنها تودعنا ذاهبة إلى مخدعها لتجدد عودتها ناشطة بعد يوم، وكأن الغيوم من حولها تستر غفوتها كي لا يقلقها الإنسان.

في الواجهة يخوت شراعية تجوب المكان، وأفراد يتمرنون على التجديف، وطائرة سمتية تحلق مستأجرة من سواح. فكان الماء والخضرة ووجوه الحسان والمشي حفاة على الرمال سببًا حرك المعدة معلنة حاجتها إلى الطعام، أخبرنا السائق أننا ندعوه على وجبة عشاء، سألته عن أشهر الأطباق في هذه المدينة، فأجاب بصيغة سؤال:

هل تقصد الحلال؟

وقبل تلقفه الإجابة مضى في الشرح عن ضرورة الالتزام بوجوب الحلال، تبين أنه مسلم أفغاني، فأعدت السؤال:

وكيف لك أن تعرف الذبيحة فيما اذا كانت حقًا مذبوحة على الطريقة الإسلامية، أم قطعت رقبتها بسكين آلي؟ وهل يعقل أن آلاف الأطنان من اللحوم التي تقدم في هذه المدن المكتظة هي بالفعل حلال كما يحددها الشرع والدين؟

أجاب بإصرار: «أنه شخصيًا لا يقتنع إلا بوجود علامة الحلال، ويضع أعباء المسؤولية الشرعية على واضع العلامة الممهورة حلال». فأجبته كما يقال في العراق: «خليها براس عالم واطلع

منها سالم»، لم يفهم من الإجابة شيئًا، فقلت له: «إنه مثل عراقي» ونتيجة النقاش كان الحلال الوحيد على هذا الساحل الجميل مطعم إيراني صاحبه مهاجر ترك بلده بعد رحيل الشاه، يقدم طعامًا إيرانيًا وشرقيًا لذيذًا مكتوبًا عليه حلال، يختتم برامجه الليلية رقصًا من راقصة إيرانية مزجت في رقصها فنًا في الرقص الشرقي، بعضه إيراني، وبعضه الآخر عربي. رقصت بين موائد الطعام صفق لها جمهور بينه أمريكان من كل الألوان، وبينهم عرب مهاجرون، وسواح قادمون من كل البلدان، لا يأبهون للأكل فيما إذا كان حلالًا أم لا. طريق العودة اختاره الأفغاني كنوع من الرد الى دعوته للعشاء يتمدد وسط مسطح مائي حواليه جزر خضراء قوامها أشجار ونخيل. منه يشاهد جسر على أعمدة وسط البحر يربط المدينة بمدينة أخرى يمتد أميالًا، لم يتغنَّ به أصحابه في أعيادهم ومناسباتهم، ويعطونه ألقابًا يكون فيها الأطول، والأكبر في العالم مثلما تغنينا، وأكبرنا بجسر بغداد ذي الطابقين وعدنا تسميته مرتين.

مغامرات في أحضان الطبيعة

حضر الأسدي، صديق يسكن أورلاندو، مدينة تبعد عن تامبا مائة ميل، عندما طرق سمعه التواجد في المنطقة، اقترح مصاحبته في زيارة إلى مكان شهير في ربوعها لا يسقطه السائح من الحساب. جال أولًا في الأرجاء، تحدث عن شهرتها بالحرية الفردية والنوادي الخاصة وحدائقها السياحية الفاخرة. أشار إلى

ديزني لاند وليجو لاند، حيث يبني الأطفال مدنًا من (الليجو)، مما ينمي الإبداع في عقولهم النابهة. قال عنها: «مدينة معروفة بصيد الأسماك ووجود القرش الكبير في خليج يشاركها مع المكسيك، وكذلك بإنتاج النفط من أعماق البحر، تزدهر في الشتاء، فيزيد عدد سكانها طواله بنسبة تصل إلى 60٪ مع قدوم المتقاعدين من المدن الباردة للعيش المؤقت. وفّرت لهم المؤسسات التي خدموا فيها معسكرات وأماكن لبيوتهم المتنقلة (الكرفانات) يسكنوها شهورًا، يستمتعون بنواديها ومطاعمها العسكرية.

انطلق على الطريق السريع، وسط خضرة تملأ العين. مر بحقوق واسعة للفراولة، ومقبرة للطائرات، وجامعة هندسية ذات تصميم ذكي يتم فيها التحكم بالشبابيك والأبواب آليًا للحفاظ على الطاقة.

ازدحم الطريق فجأة، وتباطأ السير بسبب حادث، يتعلق بإيقاف الشرطة سيدة لتفتيش سيارتها من كلب مدرب، انفتح كذلك فجأة بعد التأكد من وجود مخبأ في السيارة يحوي مخدرات، تجاوز من بعدها مركز المدينة أورلاندو، باتجاه منابع ويكيوَا (Wekiwa Springs) داخل غابة جميلة تغطيها أشجار متشابكة. توقفنا عند نبع ماء، تحول إلى بحيرة اصطناعية، فيها مئات الأشخاص يسبحون. نزلنا معهم للسبح في الماء البارد، نصحنا شيخ بضرورة الغطس وسط التيار السريع للماء الصاعد، فغطسنا طائعين. كانت هناك خلف البحيرة في أول مجرى النهر، مشاحيف صغيرة للتجديف ومشاهدة الطبيعة. وفي طريق

العودة، تحدث الأسدي عن نبع آخر لهواة الغوص المحترفين يمتد بمئات الأمتار تحت تجاويف الماء، ذكرنا التحدث عنه بالحبانية والرزازة ودوكان ودربندخان في بلادنا، التي كانت يومًا مناطق سياحية جميلة.

سألت نفسي حينها وبصمت:

لماذا ترك أهلها البناء والسياحة والعلم وانشغلوا بالثورات والحروب، والهتاف لمن يعتلى الكرسي قائدًا واسمًا يناطح وحده الامريكان».

* * *

في الطريق إلى آيسلندا

ظلم الشيطان

قضى صاحبي نصف نهاره الأخير في رزم حوائجه والمشتريات، وترتيب حقائب أثقلها الوزن، لم يصغِ لنصائح التقيد بحدود المسموح، وضع الحاجة هنا، نقلها إلى حقيبة أخرى ثم حولها إلى كيس هناك، وخدّر ذاته المنفعلة بالاتكال على الله. وقبل شروق شمس ليومنا التالي رن جرس التنبيه معلنًا حلول وقت النهوض، نزل بحقائب ثلاث وأخرى معلقة على الظهر، وخامسة يدوية مسحوبة وكيس منفرد. دقق الموظف الخاص بالخطوط الجوية، في التذكرة، قال هناك زيادة عن الحد المسموح ثلاث حقائب، حقها حسب نظام الشركة ستمائة دولار، جادل أولًا، وعندما يئس، دفع المبلغ صاغرًا يعصره الألم، وفي آخر نقطة تفتيش بالأشعة، ظهرت قنينة عطر كان قد وضعها في الحقيبة اليدوية، أصرت المفتشة على عدم عبورها لتجاوز الحجم المسموح للسوائل المحمولة. حاول إقناعها بغلو الثمن، واختارها هدية لحبيبته الجميلة، أشرت بإصبعها الى وعاء خصص للممنوعات، رماها لاعنًا

الشيطان، وقبل وداعه عند تلك النقطة، التي تأخذه إلى الطائرة المتجهة إلى قطر ثم العراق، وتأخذني إلى الأخرى إلى آيسلندا، قلت: «الشيطان في داخلنا»، فضاعف الخطي، وأومأ إيماءة عدم اقتناع.

أقلعت الطائرة البوينغ 777، متجهة إلى إيسلندا، أعلن قائدها الكابتن روبرت عن ست ساعات هو الوقت الذي تستغرقه حتى الوصول إلى مطار العاصمة ريكيافيك لهذه الجزيرة التي تقبع شمال المحيط الأطلسي، أكد أنها ستكون جميعها في الليل، ثم استمر في الارتفاع صعودًا حتى استقر على مستوى خمس وثلاثين ألف قدم، نصح التمتع بمشاهد الليل قال عنه مشوقًا وغير مألوف. أدرت وجهي صوب النافذة المجاورة بانت السماء ممتدة بلون أزرق شاحب، مضمخة بما تبقّى من نور النهار، مكوّنة منظرًا ساحرًا تتجلّى فيه أمواج البحر بوضوح في ضوء الشفق المستمر. ويبدو فيه الأفق وقد امتزجت عند حدوده ألوان النهار بالليل، فلم يغِب وهج النهار تمامًا، ولم تغِب سطوع النجوم أيضًا، وهي تلمع في سماء تبعث على الهدوء، بينما يشعّ قليل من ضوء الشمس في الأفق البعيد.. منظر أو لوحة بديعة لا يمكن مشاهدتها إلّا في هذا الوقت والمكان. شعرت عند التحديق بها وكأني في عالم آخر تتماهى فيه الحدود بين الليل والنهار، تتجاوز في وصفها الكلمات، تخطف الأنفاس، تحبسها، في وقت ساحر لا هو بالليل ولا هو بالنهار.

سألني راكب يجلس على الكرسي المجاور إلى الممر، بلغة

انجليزية سليمة عن الملامح وعن البلد الآتي منه، ولما عرف أنها عربية عراقية، انتقل في جلوسه إلى كرسي مجاور كان شاغرًا، فحمولة الطائرة من الركاب لم تكتمل، عرّفَ عن نفسه بلهجة موصلية واضحة، أكرم هو كذلك من العراق. لكن ملامحك لا تدل على ذلك، سألته فأجاب: «سكان الموصل خليط من عدة أقوام، انتج خليطهم بعض من ذوي البشرة البيضاء والشعر الأشقر، وأنا منهم، جئت من أم مسيحية وأب عربي مسلم فيه جينات كوردية، تركتُ العراق بعد التأزم الطائفي عام 2004، وضعني مهرب للبشر تركي في عنبر سفينة بضائع متجهة من الاسكندرونة إلى الولايات المتحدة، لقاء خمسة آلاف دولار هي كل ممتلكاتي، وبعد شهر قضيته متخفيًا في ذلك العنبر، عثروا عليَّ البحارة عند توقفهم في ميناء ريكيافيك الأيسلندي فاقداً الوعي، فأنزلوني من سفينتهم، عالجتني السلطات المحلية، منحتني لجوءًا إنسانيًا فتسجلت من بين عراقيين وعرب قليلين يقيمون على هذه البقعة النائية من الكرة الأرضية، تكيفت سريعًا إلى مجتمعهم، أحببت ناسهم الطيبين وإيمانهم المطلق بالحرية، تزوجت منهم بنتًا جميلة، وقفت معي في مشروع فتح مطعم شرقي، يُعدّ ناجحًا».

مطبات فوق المحيط

اهتزت الطائرة قليلًا، طلبت المضيّفة الأقدم ربط الأحزمة، ففي الواجهة مطبات هوائية، صمت أكرم تمامًا، لامَ نفسه، قال أكره ركوب الطائرات، بل لا أطيقه، جئت إلى أمريكا مضطرًا لزيارة خالتي المقيمة في تامبا. لحظات من بعدها فقدت الطائرة

قدرتها على الرفع فجأة، نزلت آلاف الأقدام، فزع الركاب، حاول أكرم النهوض من كرسيه يصرخ في حالة هستيرية، وإلى الجانب فقدت امرأة وعيها، ونطق رجل باكستاني الملامح الشهادة من مكانه القريب، نزلت أوعية الأوكسجين من الأعلى وتفتحت أبواب الخزائن، لتسقط بعض الأشياء، طلبت المضيفة أخذ وضع الانحناء على الكراسي الأمامية، ثوان عجز طوالها العقل عن التفكير، عادت من بعدها إلى حالة الاستقرار تدريجيًا، وتحدث الطيار موضحًا الوضع والاستعداد للهبوط في مطار ريكيافيك، مسكتُ يد أكرم، طمأنته على انتهاء الأزمة، وزوال الخطر، وإن الطائرة تدرج في طريقها إلى الوقوف، ثم سايرته في الخروج حتى مكان انتظار المستقبلين، كانت زوجته في الانتظار، عرف عنها مرتبكًا، ساندرا، ثم أصر على مصاحبته الى البيت، وعدته الزيارة غدًا فالحجز موجود في فندق وسط المدينة، بادرت ساندرا في القول سننتظرك على الغداء في مطعمنا المتواضع، وسلمت كارتًا مثبت عليه العنوان.

كان الغداء أسماكًا بحرية، وكان أكرم قد استعاد صحته النفسية، وأوكل مهام الإدارة إلى ساندرا، مستأذنًا المرافقة في جولة بدأت من قاعة (هاربا)، المركز الثقافي الموسيقي المميز بتصميمه العصري وموقعه الساحر على الميناء، اقترح من بعدها زيارة كنيسة هالجريمسكيركيا (**Hallgrimskirkja**)، قال عنها أكبر كنائس آيسلندا وأحد أبرز معالم العاصمة، أضحت الجولة بين ثنايا بنائها المعمول على الطراز الحديث تجربة مدهشة، وأضحى

الوصول إلى قمة برجها الشاهق فرصة للتمتع بالمناظر البانورامية الخلابة لريف آيسلندا والبحر المحيط. أصر من بعدها الذهاب إلى البحيرة الزرقاء بلو لاغون (Blue Lagoon)، أكد المسافة اليها لا تزيد عن خمس وأربعين دقيقة، وهي من المعالم التي لا يمكن تجاوزها في الطواف، فكانت آخر خطوة لهذا اليوم الثاني على الجزيرة بدأت بالاستمتاع بالمياه الحرارية الزرقاء، الغنية بالمعادن العلاجية، قال لا بد من الغطس فيها لإتمام مشوار الاستمتاع، ودخل محلًا اشترى ملابس سباحة، وقطع تذكرتين، وقال ها أنذا ذاهب، فكان الذهاب خلفه محتوم، ومن بعد الغطس توجه للاسترخاء في مياه بخارية، وخوض تجربة القناع الطيني المعدني، والاستمتاع بجلسة تدليك، كان كمن يريد تثبيت عظمة الجزيرة وصحة خياره البقاء، وتكوين عائلة في هذا المكان البعيد.

اتصل أكرم في الصباح، عارضًا خدماته ليوم آخر، فكان القرار حديًا، الجولة ستكون فردية لهذا اليوم، اقترح تنفيذها بسيارة اجرة وسائق مصري يتعامل معه عند الحاجة، وعد الاتصال به وتبليغه الحضور بعد إتمام الفطور، حضر السائق شوقي بالوقت المتفق عليه، شاب أربعيني جامعي، جاء الجزيرة عامل في شركة صيد، واستقر بها، يقول عن استقراره سيكون إلى الأبد، طلبت الذهاب الى الحديقة الوطنية ثينغفيلير التي ذكرت عنها الكتيبات الموجودة في استعلامات الفندق معلومات تصنفها تحفة طبيعية تجمع بين التاريخ والجمال الطبيعي، وهي كانت كذلك كما وُصفَتْ، حديقة ببحيرات زرقاء صافية، ووديان شاسعة تحيط بها

الجبال، وشلالات تزين المكان، كان التجول في السيارة ممتع انتهى عند الظهيرة وحلول وقت الغداء، وكان طوالها شوقي منهمكًا في التعريف بهذه الحديقة موطنًا للجيولوجيا الفريدة، حيث تتقاطع الصفائح التكتونية الأوروبية والأمريكية الشمالية، مما يمنحها أهمية جيولوجية عالمية، ويجعلها وجهة مثالية لمحبي الطبيعة والمغامرة. توقفنا عند لوحة مثبتة في مكتب للسياحة، يعمل جولات في بحيراتها والجبال مكتوب عليهاً «أول برلمان في العالم قام على موقعها سنة 930 ميلادية».

لقد أخذت الحديقة جل النهار، وفي طريق العودة مع المغيب تم الاتفاق مع شوقي كي يقلّني إلى المطار ليس البعيد عن الفندق، سألته ماذا بقي من جزيرتكم أكثر مما شاهدته في أربعة أيام، رد هناك الكثير الذي تشتهر به آيسلندا، مثل شلالات يتدفق ماؤها بقوة من ارتفاعات عالية، وأنهار جليدية، وطبيعة بكر من أكثر البيئات نقاءً وجمالًا في العالم، حيث التنوع في المناظر بين الشواطئ الرملية السوداء والبراكين النشطة والجبال الخضراء، والحياة البرية المتنوعة بايولوجيًا بما في ذلك الطيور البحرية والحيتان. وتشتهر بتراث أدبي عريق يعود إلى العصور الوسطى، قصص تحكي عن المغامرات والحروب والتاريخ الأسطوري لشعب ايسلندي، يحسب مرفهًا فالجزيرة صغيرة، وعدد سكانها لا يزيد عن ثلاثمائة ألف سوى بعشرين. سكنها... كلمة توقف عندها ثم صححها أقصد استعمرها النرويجيون أولًا، ثم البريطانيون، ومن بعدهم الأمريكان حتى استقلت، ونمت وتطورت، وتحولت أخيرًا

من دولة تعتمد على الزراعة وصيد الأسماك إلى مركز مالي بفضل اتفاقات التجارة العالمية.

أقلعت الطائرة منها إلى لندن عند الظهر، في رحلة استغرقت أقل من ثلاث ساعات، حطت هادئة في مطار هيثرو، المتميز بسعته وحسن التنظيم. أخذتُ القطار السريع إلى مركزها، وقد طويت صفحة طواف لواحد وعشرين يومًا، آملًا في فتح أخرى بوقت ليس ببعيد.

* * *

من ضباب لندن إلى سحر فينيسيا

فيكتوريا المحطة والملكة

قال أشرف: «لقد اشتقنا إليك دعنا نلتقي، وسط المسافة بيني وبينك نلتقي. قلتُ: «لَمْ تمضِ أيام على عودٍ من سفر، وساعات تجاوزت المائة والخمسين على متن طائرات طوال هذا العام وبعض من الشهر». عاود القول: «وما الضير في إضافة أربع أخرى لعداد سيبقى يدور كُلَّ العمر، ثم أني اخترت مكان ترويح وسمر، فينيسيا مجموعة جزر وسط البحر، سياحتها خروج عن المألوف، وعودة إلى الحضارة وتاريخ البشر». قلت: «كنت قد شاهدتها أيام الشباب، وقضيت فيها بعضًا من وَطر» رد بهدوئه المعروف: «أحفاد يودّون العودة إلى لغة أجدادٍ عرب، وسعي لجمع بعض من مشاعر دفء عائلي بَدْا الوصل فيها يتبعثر». أجبت: «ها قد أغلقتَ باب النقاش، وأردفت القول عبارة لا بد أن تُذكر: «يبدو أن سلطة التأثير في المشاعر تنتقل من الآباء إلى الأحفاد من دون

أن تندثر»، عندها تلملمت الأشياء على عجالة في خطوة أضحت الأولى موقف باص وصباح خريف لندني ندي بين أوراق أشجار تتدافع ساقطة في موسمها الخريفي، وبين لسعة بردٍ تشبه تلك الآتية من شتاء بغداد يوم تعلو سماؤها شمس الظهر، والخطوة الثانية في الباص اللندني ذات الطابقين الأحمر، قطع المسافة إلى محطة قطار فيكتوريا وسط لندن، بأقل من نصف ساعة.. محطة أخذت اسمها من الملكة فيكتوريا التي حكمت لمدة تقارب ثلاثة وستين عامًا ومئتين وستة عشر يومًا. قديمة هذه المحطة التي تتوسط لندن زاد عمرها عن المائة وخمس وخمسين عامًا، شهدت مغادرة آخر عربة تجرها خيول وحلول أخرى بطلها المحرك البخاري، يسافر منها وإليها أكثر من مائة وسبعين مليون مسافر سنويًا. كبيرة تلتقي عندها خطوط قطارات تحت الأرض وفوقها ويتراصف وسطها تسعة عشر رصيفًا لقطارات تخرج منها متجهة صوب الجنوب والغرب وإلى مطار (غاتويك) محطتنا الثالثة، واحد من بين خمسة مطارات رئيسة تحيط بعاصمة صنفت دائمة الحركة، موقعه إلى الجنوب سبع وأربعين كيلومترًا، يتوسط خضرة ريف وبقايا غابة إنسان قديم أقتطع منها الحفيد أجزاءً لأغراضه، وأجزاءً أخرى لزراعة حبوب وذرة، وبعض منها للسكن. هو الثاني من حيث الحجم والحركة بعد هيثرو، والثامن والعشرون عالميًا من حيث العدد الإجمالي للمسافرين. انتقلنا من قسمه الجنوبي إلى الشمالي بعربة قطار كهربائي، لا سائق فيها ولها، ولا قاطع تذاكر، مرت وسط منشآت المطار بهدوء ودقة حاسوب، وشخص يتحكم

عن بعد، وُضعنا مع أفواج وإيانا أمام بضع حواسيب حددت وزن الحقائب، ودققت الحجز، ومنحت بطاقة الدخول (Boarding Card)، إلى الطائرة التي أقلعت متأخرة نصف ساعة، حَمدتُ الرب تأخيرًا أبطلَ تهم التأخير عادة شائعة عن طائراتنا ومطاراتنا وقطاراتنا وإنسان منا أبى مغادرة العصر السابق للزراعة، ثوانٍ وتسللت صاعدة من بين غيوم متقطعة لم تفارق يومًا أجواء لندن الرطبة، لتستقر بطيرانها الهادئ نسرًا يعلو فضاءً رحبًا، يراقب أرضًا بعيون حادة. وبعد ساعة من الطيران وفي خضم الضوء الذي يتسلل من فوق السحاب، بانت الأرض خضراء تملأ عيون الناظر مرة، ومسطح ماء أزرق يسر الناظر مرة، وثالثة بعض جبالٍ جرداء تجاورها أخرى تغطي أعاليها ثلوج تلوح من بعيد متموجة جميلة، وأراض إلى جانبها بألوان يطغى عليها البنفسج، عَلّهَا حقولًا طبيعية لزهرة بنفسج ندية، لونها ملكي يسر النفس، تشْعرُ بالتفاؤل ورؤية الأشياء ناعمةً وسماعها دون الحاجة إلى استعمال الحواس، لم أجد وأنا جوار الشباك بد من متابعتها منشغلًا بتواتر ألوانها الصافية. وأنا كذلك منشغل سمعت صوت الربان ينبه إلى ضرورة ربط الأحزمة استعدادًا للهبوط في مطار ماركو بولو الفينيسي، فربطت حزامي وعاودت النظر صوب الشباك ثانية ليظهر ماء البحر قريبًا من مسارها، يتجه إليها سريعًا وكأنها وسطه زورق سباق، يطفو على تكسرات موج خفيف لا يسمع صوته، وقبل رفع العينين من روعة الخلق أحسست ملامسة إطاراتها الخلفية الثمانية على سطح المدرج الأملس.

ماركو بولو التاجر الفينيسي

كان الوقت قبل الظهر بقليل، وكان المطار على حافة ماء، مدرج واحد، هيئته تجمع بين المحلية والدولية، أسموه الفينيسيون ماركو بولو (1254 ـ 1304) وفاءً لتاجرهم الرحال، في توجهه صوب الصين وقصصه في مواجهة الإمبراطور حفيد جنكيز خان أيام كانت الجِمال واسطة النقل، والسفن الشراعية تبلعها البحار، قصص وتقارير صلحت في وقتها شواهد تاريخ وجغرافيا لمنتصف القرون الوسطى وما بعدها.

وقفتُ عند تمثاله في بوابة المطار، وحقيبة السفر بيد اليمين، شعرت باحترام لشخصه رمزًا لمدينة كانت يومًا جمهورية يحسب لها العالم ألف حساب، وقبل مغادرة موقعه مكتفيًا بزهو العظمة تقدم إلى المخيلة ابن بطوطة العربي المغربي عندما ساح وكتب، ولم يخلده العرب بصالة مطار خارج سيطرة الدولة، أو ميناء تتحكم بأرصفته مليشيات، وإن عُدَّ رجل زمانه الأعظم، وتقدمت معها لعنة مبطنة بدعاء فناء لثقافة سادت وأجيال استعاضت عن تسميات عظمائها من هذا الزمان وذاك، بأسماء رؤساء وقادة ثورات عادة ما تختفي ذكراهم، ونياشين صدورهم، والشارات حال مغادرتهم دنيا الواقع مهزومين.

تلفتُ خلفي وعيناي ممتدتان ببصرهما إلى شواخص تاريخ وتماثيل عظام، أشعرتني بعدم كفاية الدعاء، أو أنه دعاء قد أرجعته الملائكة طعنًا لنقصٍ جاء فيه، فزدت عليه ابتسامة استهزاء خبيثة من حضارة أمة تسعى لتخليد المقهورين وتذل العلماء. وأنا كذلك

أسير خطى محدودة إلى الأمام سألت شرطي عن مكتب قطع التذاكر إلى فينيسيا باصًا أو قطارًا بعد تعطل مكائن القطع الآلي، أجاب دون جهد أو مقدار تفكير، أنه لا يعرف، تبين من بعد أن المكتب يبعد عن موقعه عشرة أمتار، وضعت له عذرًا منقوعًا بحفنة تسامح ساذج، قطعت تذكرتين، أوصلتنا حثيثي الخطى إلى موقع الباص الرقم (5) المؤشر بوضوح.

كان سائق الباص قد تجاوز سني الشباب، خشن المظهر والبنية، قاسي الملامح كأنه من صقلية، أشيب الشعر، سألته عن العنوان الذي ثبته في هاتفي الخلوي مكانًا للوصول، فيما إذا يبلغه الباص؟. أجاب بقدرٍ من العبوس أنه يصل إلى آخر نقطة في اليابسة، وانه لا يستطيع الاستمرار في الكلام وهو في داخل مقصورة القيادة، أحسست وقتها مقدار التزامه بالقانون، لمت نفسي، وأشدت بسلوك الالتزام، لكني تفاجأت من تصرفه لاحقًا عندما توقف في المحطة الثانية، وصعد إليها رجل إيطالي وقف إلى جانب المقصورة، بات يسأل وذاك السائق العبوس يجيب، وكلتا يديه على المقود ورجله اليمنى على دواسة الوقود، متفاعلًا في الإجابة والشرح، وكذلك في نقاشٍ لم يكن من بين مواضيعه أمرًا يتعلق بالسياسة وإعادة انتخاب وزير سرق المال العام، ومحافظ تمرد على قوانين الدولة، وعمل لنفسه تمثال ثائر خَوّاف، ويستمر في كل هذا وهو مسرور يقود حافلته بثقة واقتدار، وكأنه نجل سلالة حكمت القدس قبل صلاح الدين.

سكت قليلًا، وبما يسمح الالتفات إلى الخلف، وإلى العتب

شبه المكشوف لسلوك منفر في مدينة سياحية عالمية، بطلها سائق باص متغطرس، ومدينة تعيش على السياحة والميناء، وتعود بالذاكرة القريبة إلى شرطي المطار الذي لم يجِب، وشاب عرض المساعدة في نقل الحقيبة إلى الحافلة، بأجر، لم تعجبه الخمسة يوروات، وإلى فلاسفة كتبوا عن اختلاف السلوك بين أهل الشمال الايطالي البروتستانتي الغني، وبين أهل الجنوب الكاثوليكي الأقل غنىً والأكثر تخلفًا، وردهم ذاك الاختلاف إلى عد العمل عبادة عند البروتستانت، وعد العبادة عملًا عند الكاثوليك. استنتاج استثار الذاكرة، دفع موجوداتها باتجاه مناقشة الحاضر صمتًا، والتوقف عند وصف العمل في الإسلام عبادة ومقارنة الوصف هذا مع سلوك غالبية مسلمي هذا الزمان، وهم يغرقون في طقوس جعلت العبادة عملًا، بل سبيلًا وحيدًا لدخول الجنة، أعطوه وقتًا أكثر وقيمة أكبر واقتنعوا بالمقسوم.

فينيسيا العائمة

توقفت الذاكرة عن نقاش الحاضر حال مرور الباص من على جسر الحرية، قال عنه سائح بريطاني يحمل خارطة وكتاب أنه الجسر الوحيد الذي تتنفس منه فينيسيا نسيم البر الإيطالي، قديم أفتتحه موسوليني عام 1933 بطول ثلاثة آلاف وثمانمائة وخمسين مترًا بممرين للسيارات ذهابًا وإيابًا، وآخرَ للقطارات، عند نهايته تبدأ فينيسيا العائمة فوق الماء، وعند نهايته أعلن السائق المتغطرس بلوغه المحطة الأخيرة من اليابسة، فترجلنا الركاب جميعًا، محطة أعدت مشاركة مع قطارات وزوارق من كل

الأحجام، معلمة الصغيرة منها بعلامة التاكسي، والأكبر صنفت للنقل العام، وأخرى فاخرة مخصصة للفنادق، ومدعوي الشركات ورابعة وخامسة رست عند أبواب أصحابها من أهل المنطقة العائمة، تجوب جميعها مدينة على هيأة جزر، شيدت بيوتها فوق مائة وثمانية عشر جزيرة كونتها ترسبات عشرات من الأنهار تصب عندها منذ آلاف السنين، يرى الماء من أي جهة يتم النظر اليها، يتوسطها شارع رئيسي، أو قناة عريضة طولها ثلاثة آلاف وثمانمائة متر، على حافاتها تتراصف بيوت وفنادق فخمة، ومحال تجارية، ومقاهٍ (كازينوهات) ليلية، يتفرع منها مائة وثمانية وخمسون قناة، هي في الواقع شوارعها الفرعية وأزقتها الضيقة، يعبر ضفافها أربعمائة جسر حجري، وخشبي وآخر قرب المحطة حديدي حديث.

وقفت عند حافة الزقاق المائي أدقق بوجه امرأة تنتظر في قارب صغير وسط الماء، وقربها رجل يتلمس حائط من طابوق تكشفت أضلاعه إثر انخفاض الماء، وأبعد منهما بقليل آخر يحمل راية يتبعه سواح كأنهم مريدون في زيارة ولي من أولياء الله، أو حجاج للبيت الحرام يخشون التيه، وإلى جوارهم في طريق السير حيطان، وأحجار، وخشب زان كأن التاريخ موجود في كل مكان، وكأن المدينة وبيوتها ومحالها التجارية وكنائسها بقيت كما هي عند أول مشاهدتي لها عام 1984، لم يتبدل شيء فيها ومنها، لأنها محمية تراث دولي لا يجوز التبديل في واقعها، يريد العالم وأهلها إبقاءها مرتدية حلتها القديمة، معلمًا يساعد في

جلب السواح، فأضحت بسببه، وتوزيع قنواتها، والماء، وخدمات السياحة، وسهر الليل مدينة هي الأكثر إقبالًا بعد روما العاصمة، وتراثها من التاريخ والنُصُبُ والتماثيل.

مشاهد الفرجة كثيرة، ونصف يوم تبدد في الطريق، وركوب زورق أمرًا لازمًا للتجول في شوارع يتشابه البناء من حولها، وكذلك ارتفاع لها لا يتجاوز الخمسة طوابق، متراصفة مع بعضها وقصور قديمة لأغنياء قضوا فيها ردحًا من الزمن، ثم تركوها لمن أتى بعدهم متحمسًا، حولها إلى متاحف وفنادق فخمة، قالت وهي تتطلع إلى إحداها أرى وكأن البشر في هذا الموضوع يتشابهون فالأبناء والأحفاد لا يتعلقون بالبناء الذي يشيده الآباء والأجداد، يستسهلون مغادرته مع حفنة مال أو لخلاف بينهم على مال.

كل شيء في هذه المدينة كما هو، كاتدرائية سان ماركو الشهيرة بقيت كما هي فن، وعمارة بزخرفة بيزنطية مذهبة كأنها لحن خلود ينساب من بين جدرانها يُعْزَفُ من رهبان على هيأة نقوش، وتماثيل منذ أن بنيت سنة 828. غنية هي فالدخول إلى وسطها لقاء مبلغ بسيط، وإيقاد شمعة ودعاء في باحتها مستجاب لقاء مبلغ آخر كذلك بسيط، يدخلها السياح، والفنانون، وعشاق الدنيا، والمغرمون بالتاريخ طوال أيام الأسبوع، وإنْ يأخذ الدخول من وقتهم أكثر من ساعة في بعض الأحيان، ويستلزم الوقوف خلف البعض بخط طويل.

فينيسيا حكاية صنع الزجاج

أكثر من ثلاثين مليون سائح من دول العالم يدخلون إلى فينيسيا سنويًا، عدد هائل عند النظر من زاويته الى الشارع، والمركب، والماء، تظهر المدينة وكأنها صممت في الأصل لأغراض السياحة والاسترخاء. ورغم نقص الخضرة - أحد أركان المتعة حسب قول الشاعر زهير- فإن ثنائي الماء والوجه الحسن لا يقل أثرًا ومتعة، قول يتجسد في الجمال المفرط لآلاف الحسان التي تملأ جزر المدينة، ووفرة خليط الماء الآتي من عشرات الأنهار ومن بحر لا ينضب، مما يضيف قيمة وأهمية دائمة للمدينة التي يتجول فيها الرجال والنساء بأعمار الوسط والقريبين من الكهولة بين ترع الماء وعلى أرصفة القنوات، وعند كنيسة علت سقوفها لوحات رسمها فنانون عظام، أو عند متحف تاريخي حوى مقتنيات شعب له حصة في التاريخ، وأبطال حروب ورجالات سلام ومكتشفون كتبوا التاريخ أحيانًا، وأحيانًا أخر يقفون عند تمثال لأحد أهل المدينة، أو يشاهدون نجارًا يرمم قاربًا قديمًا، وقد أبيّضَ شعر رأسه وتهدلت عضلات يديه. أما الشباب، من ولدٍ وبنات، فيملؤون المقاهي والبارات التي كثرت في الأزقة وبين البيوت عند اقتراب الظهر وحتى انتصاف الليل. يضحكون، يشربون، يمرحون كمن يريد اكتساب طاقة عملٍ ليوم جديد، أو يَنْفضُ عمدًا عن كاهله هموم الحياة من جديد. آخرون ينظرون حال الطقس في هواتفهم النقالة، متجهين جميعًا إلى جزيرة مورانو القريبة، على بعد مِيلٍ عن جزر فينيسيا الأخرى. يسألون أولًا عن متحف الزجاج في قصر جوستينياني الذي شُيّد في القرن

الخامس عشر على الطراز البيزنطي، وعن كنيسة ماريا سان دوناتو (Chiesa di Santa Maria dei Miracoli) التي بُنيت على الطراز الروماني سنة 1481، مما يجعل الجزيرة القديمة متحف زجاج عائم، والقصر فيها متحفًا وتاريخًا لصناعة زجاج احتكرتها الجزيرة قرونًا، وإشارات لعُرف عمره قرون يمنع أحدًا من العمل أو تَعلَم نفخ الزجاج إذا لم يكن مواطنًا مورانيًا، ويمنع الصناع من مغادرة الجزيرة للعمل خارجها، يذكر تاريخها إصرار الفينيسيين على نقلها صناعة بأفرانها إلى هذه الجزيرة الهادئة حفاظًا على السلامة العامة منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وخطوات تطورها حتى صارت وصُنّاعها بمنزلة أولى في أوروبا بلا منافس، وأبقوها هكذا لها الدور الريادي بلا منازع.

في زوايا المتحف، وعلى رفوف حدد أمكنتها مهندسون فنانون، توجد نماذج زجاجية مصنوعة منذ بداية التحول من الصيد، وانتاج الملح إلى صناعة الزجاج. تَشمل ثريات مذهبة ومزهريات من كل الأنواع، وأواني مائدة متعددة الأحجام، ومصابيح ملونة، وأساور جميلة. إلى جانب ذلك، ظهرت الكنيسة ورصيفها الفسيفسائي معْلمًا آخر، فيها أعمدة رخام تحمل أقواس من العمارة الرومانية، وأرض مرصوفة بالفسيفساء، ومصاطب جلوس، ومكانًا للاعتراف. عند النظر داخلها، تظهر وكأنها متحف ولوحة، قريب منها صالة عرض يملأ خاناتها زجاج مصنّع يدويًا، وفرن لصناعة الزجاج، مفتوحان طوال النهار.

وقف أمام الفرن رجلان، أحدهما ستيني يمسك أنبوب نفخ،

يخرج كُتلة عجين تشبه لونها قطعة من الشمس وقت الغروب. نفخ فيها حتى تضخمت بالحجم الذي يريد، مسك بيده مقصًا وآلة ليّ من حديد، باتت تطاوعه العجينة كما يريد، أعادها إلى الفرن ثانية، ليحافظ عليها عجينة تتلوى من جديد، نفخ من جديد، وقص ولوى من جديد، أنتج تمثال غزال جميل، صار يتبختر بعرضه تحفة تستحق الإشادة والتصفيق. التفت إليه طفل يمسك يد أبيه مشدودًا يشاهد بإمعان، وأم مستسلمة لمشهد أرادته سبيلًا لتعزيز غريزة الاكتشاف عند ابنها الوحيد. استمر الحال في هذه الجزيرة حتى حلول المساء، عنده انقسم السياح جماعات حسب الأعمار بين عشاء على شموع موائد البحر ونديم يقصد بارًا، وبين صاحب أطفال عاد بهم وقد اعتادوا النوم مبكرًا، وشيخ لا يقاوم النعاس.

رحلة قطار عبر الزمن

بقيَّ القطار حتى اللحظة وسيلة نقلٍ بين المسافات القريبة، وهي الأسهل والأكثر أمنًا في أعراف أوروبا التي تغطيها شبكة قطارات واسعة وفعالة. ورغم أنها لم تصل في تغطيتها إلى الشبكة التي تديرها بريطانيا لما يقارب القرنين من الزمان، فقد لَزِمَ اليوم الأخير على الأرض الفينيسية إتمام الخطة بالسفر إلى بولونيا، المدينة الإيطالية التي تمتلك حصة الأسد في تراكم التاريخ، ومنها التفرق عودةً إلى مقاصد الانطلاق، وكانت النية صائبةً والخيار مناسبًا، وكان القطار الذاهب إليها من فينيسيا الوسيلة الأسرع،

أعلنت بوجوده ساعة المحطة تمام الحادية عشرة صباحًا، فانطلق منها هادئاً كمن يشدو لحنًا بوقع خفيف، لحن وداع لمكان جميل.

كان القطار الفضي بطابقين، قصدنا الأعلى منه لضمان زاوية نظر أوسع للمشهد الخارجي، أخذنا طاولة مستطيلة تحيط بها أربعة كراسٍ يغلفها قماش أزرق مخضرًا، جوار شباكٍ يأخذ جزءًا من الواجهة الجانبية، بان من موقعها ميناء فينيسيا، وبانت وسط مياهه الهادئة باخرة ركاب ترسو بطوابق تزيد عن العشرة، كأنها عمارة فخمة وسط حي سكني مكتظ. انطلق هادئًا وبعد دقائق من انطلاقه واكتسابه السرعة التقليدية، بدأت مشاهد السواقي المتعامدة لتصريف مياه الأمطار تظهر تباعاً، وتظهر كذلك حقول زرع، لشدة خضرتها والسرعة العالية صعب التمييز بين أنواعها، ومراعي أبقار مترفة يغلب عليها اللون الأبيض والأسود، ذكرتني بالبقرة التي اعتزت العائلة بتربيتها طوال خمسينات وستينات القرن الماضي، في قرية الجمجمة، لؤلؤة شط الحلة، حتى أضحت جدة لأجيال، وماتت ميتة إنسان عزيز شاخ به العمر، فلم يجرؤ عاشقها الأب على ذبحها وبيع لحمها لمن يريد. دخل قطارنا هذا مدينة بولونيا معلنًا وصوله حسب الوقت المحدد، بعد ساعتين. كان نصف ركاب العربة التي تقلنا أوروبيين، ومعهم بعض اليابانيين الذين جاؤوا ضمن جماعة سياحية. بانت المدينة منشغلة بأهلها ومن يأتي من خارجها سائحًا، أو صاحب عمل، أو طالب يدرس في جامعتها الأقدم تأسيسًا في أوروبا سنة 1088، والأوفر حظًا في تخريج علماء كان لهم الباع الطويل في نهضة

أوروبا وثورتها الصناعية. سكان المدينة المائتين وثمانين ألف إنسان يجوبون شوارعها نهاًرا وفي الليل، أجواؤها الجميلة تدفعهم إلى الخروج، بعكس دول الشمال الباردة حيث الميل فيها إلى البقاء في البيوت وترك الشوارع شبه خالية بعد المغيب. مطبخها متنوع، غني بأكلات يمتد بعضها إلى البحر المتوسط، وقليل منها إلى الشرق، وأهلها يعترفون علنًا أنهم يحبون الأكل.

وقفنا وسطها عند برجين يتجاوران، يُعدّان عاليين بقدرات الهندسة المعمارية لما قبل تسعة قرون، عندما امتلكت المدينة مائة وثمانين برجًا، وسميت لهذا السبب مدينة الأبراج. كثر في حينه استخدام تلك الأبراج في رصد الفلك، وتجارب الجاذبية الأرضية، ومراقبة الأعداء، ويوم توقف استعمالها شاخت وتهدمت، ولم يبق منها إلا عشرين برجًا صامدًا. تدخلت البلدية لتقصير أحدها (جاريسيندا) عشرين مترًا، لتفادي سقوطه بعد ميلانه الشديد.

جلس شيخ من أهلها قريبًا من حافة البرج المعوج، لا يأبه لاعوجاجه، يدل على وسط المدينة، يسترسل في الكلام مزهوًا بكلامه، ويقول: «إن مدينته نشأت قبل الميلاد بألف سنة، هي عاصمة ثقافة أوروبية، ومدينة موسيقى وكنائس ودار أوبرا». وسطها وقريبًا من هذين البرجين، أشار إلى شوارع رئيسة تجمع عمارتها بين حضارة الرومان والشرق القديم، ضيقة تحيط بها أعمدة من الطابوق أو الحجر، وقليل منها رخام، تحمل أقواسًا تُذَكِرُ ببقايا أعمدة كانت يوماً تعلي شأن الرشيد، الشارع الأشهر

في بغداد، وكذلك سوق الحميدية في دمشق الشام. توقف الشيخ عن الكلام قليلًا كمن يعطي مجالًا لاستيعاب القول، ثم أكمل قائلًا: «إن بولونيا عاصمة مقاطعة إميليا، غنية في الدولة الإيطالية غير الغنية، في محيطها مصانع محركات للسيارات هي الأغلى في العالم، بينها الفيراري، والمزراتي، واللامبورجيني». ولما أكمل القول رفع يديه مودعًا، ورفعنا كذلك أيدينا تعبيراً عن انطباع جميل، وعن رحلة انتهت بحفنة ذكريات وقبلة طفل أسمر يحمل الجينات ذاتها، وبعض آخر من الجينات.

* * *

موسكو من الماضي والحاضر

العوم بين شظايا الماضي والحاضر

وقف سامر عند صالة القادمين في مطار ڤون دوڤو الدولي (Vnukovo International Airport)، أحد أربعة مطارات دولية تحيط بالعاصمة موسكو، تلبي جميعها الحاجة المتزايدة للسفر وتغطي واقع التحويل اللازم في التوجهات (الترانزيت) إلى دول عديدة في آسيا، وأوروبا والشرق الأوسط. كان ينتظر وصول طائرتنا العراقية بشوق، حاملًا ثقل الغربة وقسوة زمن امتد أربعة عقود، تحَمَلها عقله المشطور نصفين:

الأول عراقي، مملوء بذكريات الشباب، ونوع من التمرد، وبعض شعارات عن الاشتراكية وديكتاتورية الطبقة العاملة، وفراق أمٍ بقيَّ دفء حنانها طافيًا فوق سطح الشعور، عصيٌ على الكبت في أروقة اللا شعور طوال تلك العقود.

والثاني نصف روسي، تتدافع في خلاياه أفكار مثيرة عن الأهداف التي لم يُمهل الزمن تحقيقها، ومآل حياة وأحفاد روس

أخذوا من أمهاتهم الروسيات جل الصفات الوراثية، وأخذوا من البيئة التي عاشوا فيها كل طبائع الروس، فتشكلت عقولهم ومعالم سلوكهم وطباعهم روسيةً حتى أصبحوا في نهج التفكير جزءًا لا ينفصل عن الروس.

قال «يدفعني وقع التفاعل الثقافي الضعيف بيني وبينهم إلى الغوص في ماضٍ جُلَ خزينه عراقي، لا مجال لإخراجه إليهم حكايات عن بغداد يوم كانت عروساً، يتملقها الفتيان، وعن الأهل قبل الطوفان، وكفاح الشباب وخيبات أمل للعيش في وطن حر بلا قضبان. إذْ لم يعد يسمع أحدهم تلك الحكايات باللغة العربية التي لم يحسنوا نطقها، ولم يتمكنوا من تخيل وقعها أحداثًا في المكان الذي لم يألفوه». وأتم القول بقدرٍ من الحسرة: «لقد آلمتني الغربة، وهدني هذا القلق اللعين عن وضعي عائمًا بين شظايا الماضي والحاضر، وفشل في التفسير لصالح التهوين من هذا القلق اللعين، وعندما هرولت بعيدًا إلى الأمام كي أحسب النهايات أيامًا أو حتى سنين، أرهقني الحساب، هرولتي بين القلق والطمأنينة يا صديقي أرغمتني على طلب اللقاء».

قلت لحظة عناق من على البلاطة الأولى ما بعد الخط المؤدي إلى صالة الاستقبال: «ألهذا طلبتني أيها الصديق المجنون؟». أجاب «لم يعد مسموحًا لي الطيران، فالصحة تآكلت، ولم يعد في العمر بسببها بقية أبددها في الطيران».

خطى خطوات خارج الصالة، أشار إلى سيارة تقف في المكان المسموح، وقال «هذه التويوتا خاصتي اشتريتها بالتقسيط، ستجد

منها آلافًا، ومن غيرها باقي العلامات ملايين مملوكة جميعها للمصارف التي تُقرض بسهولة، ما أسهم في اختفاء السيارات الروسية من شوارع موسكو وغالبية المدن الروسية. وبسببها وتحوّل أسواق الشرق باتجاه الغرب، باعت الفولغا ربع أسهمها إلى شركة رينو لتساير التطور الغربي، وواجهت الموسكوڤيتش مصاعب في التسويق. وإذا ما حاوَلتَ التفتيش عن وجودهما في زحمة السير للأيام التي ستقضيها في هذه البلاد، لن تجد منها إلا واحدة هنا، وأخرى هناك تسير متبخترة فخورة بانتمائها إلى حقبة الاتحاد السوفيتي، لا يريد صاحبها الاعتراف بخسارة الشيوعية».

لم يكمل سامر حكايته عن سيارات الاتحاد السوفيتي التقليدية، حتى دخل الشارع المؤدي من المطار إلى موسكو. بدأ بوصفه شارعًا عريضًا يخترق غابات تغطي معظم مساحة العاصمة التي تمددت في السنوات الأخيرة لتكون من كبريات المدن العالمية، ومن أكثرها تعدادًا يصل حدود العشرين مليونًا في النهار، منهم ثلاثة يتركونها بعد انتهاء ساعات العمل. لقد أشار وهو غارق في طرح المعرفة عن هذه البلاد إلى مجمع فخم للتسوق، ومنه بدأ شرحًا مفصلًا عن مدخل طريق سار باتجاهه، قال عنه «طريق دائري يحيط بموسكو التي سندخلها من الجنوب، طوله يزيد عن المائة كيلومتر بقليل، له خمس مجالات للرواح ومثلها للمجيء، وآخر لطوارئ الإسعاف، والشرطة، والمواكب الرسمية». دخله قاصدًا وسط المدينة حيث الشقة التي يقيم فيها منذ ثلاثين عاماً، في بناية لا تبعد كثيرًا عن الساحة الحمراء، قديمة تتوسط

بنايات تناثرت بشكل متسق، لم تأخذ من المساحة الخضراء لهذه المدينة الكبيرة إلّا جزءًا، وأبقت أجزاءً تتنفس منها. لم يفكر رؤساء بلدياتها ومسؤولوها في اقتطاع بعضٍ منها لتشييد مركز تسوق، أو توزيعها قطعًا سكنية لعبيد السلطان وأمراء الحروب، ولم تخدش تصاميمها في أوج سني الاضطراب ما بعد الشيوعية حياء التصميم العام لمدينة ولدت حسب دفاتر النفوس التاريخية سنة 1174.

قدرة الاحتفاظ بالذاكرة الحية

أشار سامر بطرف عينه إلى حديقة وارفة خضراء، وعنها قال «كانت أرضها فندقًا هو الأكبر في العالم أيام السوفييت. أقاموه صرحًا على ثلاثة عشر فدانًا، بآلاف الغرف، وملاعب تنس، ومسابح مغلقة، وقاعات احتفال، ونوادي ليلية، شاخ من كثر استعماله مقرًا لضيافة الوفود القادمة إليهم يوم كان لهم مجدًا لا يضاهيه مجد، إلا ذاك الموجود في الطرف الآخر من الكون. حكم عليه مجلس المدينة بالهدم، وإقامة هذه الحديقة وبعض المنشآت للترويح. ألبسوا مكانه حلة عشب خضراء زاهية، وسطها ممرات تحيط بها زهور، جعلتها حديقة جميلة بين آلاف الحدائق التي انتشرت بين أحياء موسكو، وجعلت لكل حي حديقته الخاصة، بالإضافة الى حدائقها العامة، أجملها في عيون الروس والسواح حديقة (تساريتسينو Tsaritsyno Park) التي تعكس صورة القلعة في الليل، تظهرها لوحة طبيعة كأنها رسمت بأيدي فنان قدير». دفعتنا مشاهدتها العودة بالذاكرة إلى بغداد، التي أكل خضرتها غول

الصحراء، وتبرع أصحابها بما بقيَّ من مساحات خضراء لتكون أسواقًا بعضها لغسيل الأموال وبعضها الآخر حصص لأهل النفوذ، ومساكن فارهة لتجار السياسة والحروب، ومرتع بؤس لمتجاوزين جردوها عمدًا من خضرتها، التهموا بساتينها مثل أسراب جراد دفعت بها الصحراء.

لم يعلق في سيره مسرورًا بسرد لما بقي في الخزين القديم، مثل مرشد سياحي استلم وظيفته تواً. وبدلاً من التعليق، أومأ إلى فندق آخر وقال: «هذا فندق موسكو الفخم، كان قائمًا منذ تلك الحقبة أيضًا. أرادوا تجديده ليوائم العصر تقنيًا. قدر المختصون الكلفة بأكثر من كلفة الهدم وإعادة البناء من جديد، فاتخذوا قرار الهدم، وتسويته بالأرض، وإعادة بنائه بالشكل ذاته، حتى الخطأ الذي كان موجودًا في تصميم الواجهة يوم أغضب ستالين، أبقوه كما هو واضحًا لأهل الاختصاص». ومن بعد شرح بسيط عن ليالي هذا الفندق الحمراء ومؤتمرات الشبيبة يوم وصل موسكو هاربًا من العراق سنة 1970، عرج على شارع أربات (Arbat) الذي يقتصر السير فيه للمشاة، خلده الفنانون، حافظوا على هيبته لأربعمائة سنة، هي عمره الحقيقي، عاش فيه شعراء، وكتاب، وممثلون كبار، وما زال آخرون منهم يعيشون. وسطه مبنى وردي لمسرح احتضن أشهر الممثلين الروس، وعلى أرصفته يقف رسامون يقتنصون الوجوه الجميلة، وموسيقيون يعزفون ألحانًا من كل البلدان.

عازف جيتار هنا، فرقة جاز هناك، قريب منها هندي أحمر

بآلاته الخشبية، يجاوره صاحب ناي عربي، وبائع لوحات افترش الطريق يعلن عنها بصوت تقترب مخارجه من لحن الراب. بيوت تم طلاؤها بألوان مختلفة، ومصابيح تحاكي فوانيس القيصر، توزعت على الجانبين، حتى أضحى الشارع مهرجانًا من نوع خاص، يتقابل عنده الناس، يتسامرون، يحبون، يتحابون، طمعًا في العيش الأسعد. يجاوره شارع عريض، شيد مثله مئات آخر يعود بعضها إلى قياصرة أقاموا صروحًا من البناء ما زالت عامرة، وإلى شيوعيين أضافوا لموسكو ما يبقيها مدينة تعج بالحياة.

توقف عند تمثال لينين، فسألته:

لمَ هذا التمثال باقٍ في مكانه شامخًا؟

أجاب «إنهم هنا يعدون إرث الماضي مُلكًا للشعب، لا يحق لحاكم إزالته». وأضاف: «إنهم ليسوا مثل أهل الشرق، مصابون بخواف الماضي، يجعلون الحاضر معولاً لهدم الماضي، ويبقون البلاد بلا تراث ولا ماضٍ».

مشى مبتهجًا في شوارع موسكو كمن يكون صاحبها، وقال: «أصبحنا في الشارع الدائري (Boulevard Ring)، الذي يمتد حول وسط المدينة، على جانبيه العديد من المعالم السياحية والثقافية الهامة، بما في ذلك السيرك الوطني الذي أسس قبل أكثر من قرن، وسمي على اسم يوري نيكولين، المهرج والممثل الروسي الشهير، ليصبح شاهدًا على التاريخ، وقاعدة رصينة للفن الرفيع». رجوت رؤية أحد عروضه، فرد بالإيجاب مؤكدًا وجود عرض سيبدأ بعد قليل.

وقف أحدهم مع رفع الستارة وحكى تاريخ هذا السيرك، أثنى على يوري نيكولين وإرثه في الإدارة والفن. ومن بعد حكايته دخل المهرج من باب كانت مغلقة، وضع العلامة الحمراء على أنفه، وخط خطوط التهريج على فمه ليظهر مهرجًا، صفّق له جمهور يزيد عن ألف، مهّد لعروض تميزت بحركات بهلوانية، وأخرى خطيرة. توالى بعدها استعراض حيواني بدأته الأسود، فالنمور، والخيول، ومدربون مسيطرون، ومدربات حسناوات لتختم الكلاب عروضها بحركات أبهرت الجمهور... ساعتان من العرض المثير، ضحكنا فيها مرة، وتعجبنا في أخرى، وخفق قلبنا من حركة في ثالثة، كأننا من يؤديها، لتسدل الستارة في نهاية مطاف وجدنا أنفسنا في لحظته نصفق مع هذا الجمع لفن يستحق التصفيق.

موسكو في التاريخ

حصيلة التجول في موسكو لأربعة أيام بلياليها، كشفت عن مدينة يختلف نهارها كثيرًا عن الليل، إذ يذوب العمال في مصانعهم نهارًا، ويتوارى الشباب خلف المقاعد الدراسية، ويزدحم السير ازدحامًا مسيطرًا عليه، لا يشبه ازدحام الشوارع المنفلتة لبغداد، وتستمر الحياة بوقع سريع، لأناس بالمقارنة مع أناس الشرق يحسبون نشيطين، لا يكلّون العمل ولا يملّونه، بينما تتلألأ أضواء المباني التاريخية والمعالم الشهيرة في الليل، ويمتزج صوت الموسيقى وضجيج الحياة الداكنة مع همس اللحظات الهادئة، ليخلق أجواءً ساحرة من التناقض والحيوية في وسط المدينة

الصاخب. في الليل وعند حلوله تفتح الحانات أبوابها وتغلقها عند انتصافه، مع استثناءات محددة لبعض النوادي التي تستمر أبوابها مشرعة حتى الصباح.

قال سامر: «الروس هكذا يعملون بجد ويمرحون كذلك بجد. عاصمتهم هذه مدينة كبيرة، بنوا فيها من شواهد التاريخ الكثير، وأضافوا لها من عظمة الحاضر أكثر. تستهوي القادم للتعرف عليها من قريب، وأول معالمها الكرملين، القلعة، الشاهد الحي لماضٍ مليء بالأحداث، ممتد إلى حاضر يعج بالأحداث أيضًا. بدايته حصن أقامه الأمير يوري سنة 1156، برع في اختيار موقعه فوق تل على الضفة اليسرى من نهر موسكوڤا، ليعكس سطحه المائي أضواءها اللامعة. ومن بعده شيّد القيصر قصرًا كبيرًا في القرن الرابع عشر، نمت إلى جانبه قصور أمراء، ليكون الموقع مجموعة قصور وكنائس، يحيط بها سياج بطول يقترب من الأربعة كيلومترات، وارتفاع يصل إلى خمسة وعشرين مترًا، تتربع على زواياه مواقع حراسة على شكل قلاع صغيرة كانت في وقتها قادرة على القتال دفاعًا عنه. وعنه يقول الروس، لا شيء أعلى من موسكو إلّا الكرملين، ولا شيء أعلى من الكرملين إلّا السماء». لقد حزنوا شعبًا بأكمله على هدمه يوم تمكن منه المغول، لكنهم أعادوا بناءه بعد رحيلهم غزاة، ليكون بفخامة أكبر سنة 1339، ومقرًا للحكومة أكثر هيبةً، ومكانًا لسكن القيصر وأمرائه القريبين أريح، ومجالًا للعبادة أرحب، ومتاحف يستعرضون في أجوائها عظمة الدولة وقوتها.

تقدم المرشد خطوة ليكون صوته مسموعًا، وقدم شرحًا عن هذا القصر القديم وقاعات سميت على أسماء الأوسمة التي تُمنحُ للشجعان والمتميزين.

أولها جورجيوس، وسام تكريم للعسكريين المتميزين أشخاصًا وكذلك وحدات، قال عن هذا الوسام «إنه قد منح إحدى عشرة مرة طوال تاريخه لعسكريين أبطال ووحدات قاتلت بامتياز: «ثم أشار إلى لائحة أسماء محفورة على زاوية من الجدار هم من استحقه بجدارة. وأكمل الشرح قائلًا: «لقد أوقف السوفييت منح الوسام، وأعاده الروس الآن». ثم التفت صوب طاولة مشيرًا إلى أنّ الرئيس يستعمل القاعة في الوقت الحاضر لمنح رتبة الجنرال، وتكريم خريجي الكليات العسكرية المتميزين، وكذلك لرئاسة اجتماعات مجلس الدولة.

ثانيها وسام القديس فلاديمير، الذي جلب المسيحية إلى روسيا في القرون الوسطى. غطت جدران قاعته صورًا من القرون الوسطى، وعن استعمالات القاعة في الوقت الراهن نوّه انها لتوقيع الاتفاقيات مع الدول الأجنبية، وأن للتوقيع طقوس، ينزل على وفقها وفد الدولة الضيف من الجهة اليمنى للسلم، وينزل الوفد الروسي من جهته اليسرى، يتقابلان عند التقاء الجهتين، ثم ينزلان معًا إلى طاولة التوقيع.

ثالثهما قاعة إيفان الرهيب، جل صورها تمثل قصة الخلق في الأيام السبعة، وقصص دينية بينها قصة يوسف، وتستخدم حتى الآن للاحتفال بالانتصارات.

أما الرابعة فكانت لكاترينا، وصورها التي على الجدران اقتصرت على حكام روسيا الحديثة، وتستخدم لعقد المؤتمرات الصحفية للرئيس.

وأخيرًا جاءت الخامسة وقد أخذت اسم أندراوس، أول تلامذة المسيح، واستعملت من قبل للتتويج، وتستعمل في هذا الزمان لاستقبال ضيوف الرئيس وتقديم الهدايا.

انعطف المرشد يميناً، دخل جناحًا قال عنه: «كان جناح الإمبراطور، غرفة مكتبه، ومكان استراحته، وسرير فراشه أبقيت من شواهد التاريخ، وأبقيَ كرسيًا له عالياً يشبه المنبر جوار شباك يطل على ساحة يوحنا، حيث التجمهر اليومي للناس استعدادًا لسماع المرسوم الإمبراطوري الذي يقرأه الحاجب يومذاك».

كانت نهاية القصر مثل بدايته زخرفة جميلة، وطلاء بماء الذهب. أدركت وأنا ماشٍ بين ممراته، وأبوابه المرتفعة عدة أمتار، وشبابيكه التي يغطي الواحد منها طابقين، ومؤشرات الإدامة الفريدة للمكان وكأن المبنى قد شُيّد بالأمس. وتخيلت في الوقت ذاته آلام آخر قيصر لروسيا، نيقولا الثاني وعائلته يوم خلعوا من على العرش، وساروا في بؤس بين ممرات هذا القصر الذي لم تتغير أوضاعه عبر التاريخ.

لقد بنى الشيوعيون سنة 1961 قصرًا قريبًا من هذا القصر، فخمًا هو الآخر ليكون مقرًا للحكومة، أضحى اليوم مقرًا للرئيس بوتين. يستدل على وجوده في القصر من وجود العلم الروسي قائمًا يرفرف على ساريته أعلى السطح... قصرٌ بقيَ محمية، لا

يقترب منها السواح.

كانت هذه الليلة الأخيرة في موسكو، خُتمت مبكرًا، بغية الاستعداد للمغادرة، حضر سامر صباح اليوم التالي بسيارته التويوتا، قال عند بلوغ المطار: «مثلما استقبلت أودع، وبوداعي سأعود إلى عالمي الذي أشعر وكأنَّ روحي فيه باقية تحوم فوق بغداد».

* * *

أنطاليا، مدينة الشمس

ذكريات وطموحات

اتفق شبابُ العائلة على أن يكون لقاؤها هذه السنة 2022 في تركيا وبالتحديد أنطاليا، بعد انقطاع عن لقاءات التواصل الحضوري لسنتين التزامًا بضوابط وتقييدات وباء كورونا العالمي. تجرأوا هذه المرة وكسروا طوق العزلة، جازفوا بتحمل التبعات، فتمت مسايرتهم باشتياق يستحق المجازفة.

تأخرت الطائرة التركية عن موعد إقلاعها من مطار ستانستيد اللندني ساعة، فابتسمت المضيّفة الأنيقة قبل الإجابة عن الأسباب، وقالت: «إنّ عاصفة ثلجية في الطريق أخّرت الإقلاع». زادت من سعة ابتسامتها، وأكملت بتفاؤل مفتوح: «إنَّ القيد سينتهي، وسنقلع قريبًا». وعلى هدي تفاؤلها وحسابات الأمان، أقلعت الطائرة بعدد من الركاب لم يبقَ بينهم كرسي شاغر، عائلات قصدوا أنطاليا لقضاء عطلة أعياد الميلاد، وأخرى تسعى للتمتع بشتاء شمسه منعشة في تلك المنطقة المتوسطية، وبالطبيعة

الغنّاء وسعة خضرتها الداكنة.

لم تهدأ تلك المضيفة، ولم تتوقف خلال الساعات الأربع حتى أعلنت ربط الأحزمة استعدادًا للهبوط، وقالت: «سنحط بعد الوقت المحدد بقليل. كانت الريح مواتية، مما أسهم في تعويض الفاقد في وقت التأخير عن الاقلاع».

نزل الركاب يحثّون الخُطى كأنهم على عجل. بدا مطار أنطاليا الدولي صغيرًا بالمقارنة مع مطارات إسطنبول وأنقرة، لكنه نظيف، يوفر الخدمات بشكل جيد يتسق مع إدراك الأتراك شأن السياحة والحاجة الملحة لصناعتها، وضرورات التنافس مع الغير، لإخذ الموقع المناسب. لقد تقدموا في هذا المضمار بخطى أسرع من العرب القريبين من حدودهم، فهموا عقلية الأوروبي وميله إلى الطبيعة، والتاريخ، والشمس، والليل، والاستثمار الأمثل للوقت، صاروا من بين الدول السياحية بوجوه تزيدها الابتسامة جمالًا، وسلوك صار أكثر تسامحًا وواقعية مع بعض الاستثناءات.

سائق سيارة الأجرة الذي نقلنا من المطار إلى الفندق الراسي على حافة البحر، كان شابًا تحول طوال الساعة التي استغرقها في الطريق إلى داع لمدينته. تحدث عنها والدولة بشهية مفتوحة، وعن نظامهم الإسلامي الذي ترك للسياحة مجالًا للنمو حسب الحاجة من دون التدخل في التفاصيل، وعن زيادة الاستثمارات السياحية، وكثرة الفنادق الحديثة والمنتجعات، وتوجه آلاف الأتراك إلى العمل السياحي، مما حسّن الاقتصاد، وقوّى وتيرة الصمود في حرب العملة التي استعرت في السنين الأخيرة

لاعتبارات السياسة والرغبة في مدّ النفوذ.

كان حديث السائق حماسيًا، أعطى أمثلة عن التطور والنماء، وتحسين ظروف العيش لأبناء هذا الجيل، فتح أبواب المقارنة مع واقع بلدنا الذي تقيدت فيه خطوات السياحة واصطدمت بتدخلات السياسة وتحريماتها، حتى ضاعت بسببها بابل منجم سياحي، وتلاشت الأهوار كمجال للسياحة، وانحسرت في جبال كوردستان توجهات السياحة. تكلم عن مواطنهم الذي تغيّر وألزم الدولة أن تسايره في التغيّر، فعاش أكثر رفاهًا من آبائه وأسعد، قلت مُعززًا قوله: «مع الأسف مواطننا هناك في العراق لم يتغير، وقليله الذي تغير، جاء بالاتجاه المعاكس، صار يطاوع تحريمات السياسة، بل ويدعو البعض إلى التطرف في تطبيقاتها، حرمَ نفسه والغير من خيرات التطور والسياحة، ومن عوائد الانفتاح على عالم يسعى إلى التواصل والرفاه، فعاش أقل سعادة من آبائه وأكثر قلقًا، وهمومًا، عينٌ على الدولة يستجديها الراتب والخدمات، وعينٌ على التشدّد في الطقوس والتطبيقات، يريد العودة فيها إلى ما قبل ألف وخمسمائة عام، معتقدًا أنها وحدها كافية لإدخاله الجنة».

هلال البحر الأبيض المتوسط

قارب الوقت من لحظات المغيب، ركست الشمس في غيبوبتها، فانكشفت أنطاليا من شبّاك الغرفة القائمة في الطابق الثامن لفندق «رمادا» المطل على البحر، مدينة شرقية المزاج والطبع،

لا تختلف كثيرًا عن باقي المدن التركية الراسية على شواطئ هذا البحر الأبيض المتوسط. عمارتها تمثل زواجًا مُبهرًا بين الحداثة وقدم الزمان، مع تأثيرات الاكتظاظ السكاني وعشق البحر. لكنها تتميز عن غيرها من المدن بموقع فريد جعلها تحتضن خليجًا أو لسانًا من هذا البحر. عند النظر إليها من قارب يقترب من وسط البحر، تظهر على شكل هلال، تراصفت على حافاته المنشآت: فنادق وبنايات سكنية، ونواد للزوارق والترفيه، ومراس لقوارب النزهة والصيد، توزعت على مساحة أرض تحيط بها سلسلة جبال تلامس البحر أحيانًا، وتجافيه مسافة في أحيان أخرى، مما يمنح المدينة عمقًا واستقرارًا على جرف صخري يرتفع في بعض المواقع عشرات الأمتار. وضعها البناة الأوائل في الحسبان ليحموا مدينتهم من عداوات البحر، تاركين الأراضي المنبسطة لطرفيه، غنية بالحصى والرمل، وغابات صنوبر ومزارع حمضيات، استغلها الأحفاد في مشاريع المنتجعات، والفنادق، والبنايات السكنية الفاخرة والمراسي.

طبيعة الجغرافية لهذه المدينة متنوعة وجميلة، تمر عليها الأيام مقدمة لأهلها فصولًا أربعة: شتاء في الجبل المثلج، وصيفًا في شمس النهار، وربيعًا على الساحل، وخريفًا عند الغابة. استغل الأبناء الجغرافية جيدًا، بما فيها الجبل ببعض قممه الجرداء، فحولوا صفته من حامٍ طبيعي لمدينتهم لاذت به مئات السنين، إلى عامل ترفيه وعزوة. مُدّت إليه قاطرتان معلقتان (تلفريك) تبلغ الأولى وسط تل على السفح مرتفع بنيَّ عليه مطعمًا ومقهى

(كافتيريا)، ومُدّت الثانية إلى قمة جبل أولمبوس أو مكان الآلهة حسب التسمية اليونانية القديمة، الذي يسيطر بارتفاعه البالغ (2366) مترًا على سلسلة جبال طوروس في المنطقة. أعطاها الثلج الباقي عليها، أو قريبًا منها، قيمة سياحية في فصل الصيف، عززتها المدينة بفندق فخم، ومركز لرياضة القفز بالمظلات والطيران الشراعي.

طقس المدينة تلك الأيام شتوي معتدل، شمسه غنية، بلسعة برد خفيفة تشبه شمس العراق الشتوية، يصف الأهل غناها بامتلاكهم ثلاثمائة يوم مشمس من أيام السنة. لقد جعلتها هذه الشمس وطيبة أهلها منتجعًا، تصله أفواج تزيد أعداد أفرادها في السنة عن أعداد سكانها المقيمين أصلًا. أكثر القادمين إليها من الروس يفضلونها على باقي الأماكن، حتى باتت بعض التعليمات في الفنادق، والأماكن العامة تكتب باللغة الروسية، بالإضافة إلى الإنجليزية، ولغة أهل البلاد التركية. وهم، أي الروس، أكثر الأقوام نشاطًا وتملكًا في هذه المدينة، يأمونها أيامًا وأسابيع، تاركين خلفهم هموم العمل لينعموا بأوقات خصصت للترويح، سباحة في البحر حتى أيام الشتاء، وسهرًا في النوادي الليلية إلى ما بعد انتصاف الليل، والتجول بين المطاعم في النهار، مطعمًا بعد آخر. حاول شاب مصري تقليدهم والنزول الى البحر، خرج قبل الغطس مرتجفًا لا ينصح التجريب.

شوارع المدينة وأرصفتها نظيفة بمعايير أهل الشرق، يسعى أصحابها والمعنيون في بلدياتها إلى رفع درجاتها المعيارية

للنظافة لتكون قريبة من الغرب الأوروبي، لكنها لم تصل إلى ذلك حتى الآن. يقطعها مترو لتسهيل النقل، شُيدت على أرصفته سقائف وضعت تحتها طاولات لمقاهٍ ومطاعم، وكأن القوم هنا في سباق لاستغلال كل شبر من الأرض. تدفعهم الدولة إلى التسابق لتجبي الضرائب في نهاية المطاف، تشاركهم آلاف الكلاب والقطط التي تعيش حرة في المدينة، وكأن لها حصة في تقاسم العيش. أسواقها ليست مزدحمة، محلات متراصفة على طول الشوارع، و(مولات) حديثة، وباعة لبضائعها أغلبهم نساء تدربن جيدًا على فن التسويق، لمنتجات تركية تطورت في الجودة كثيرًا، لتضاهي جودة المنتجات الأجنبية، التي تتوفر بكثرة هي الأخرى. إنها مدينة مثل باقي المدن التركية معروفة بكثرة جوامعها، وشكل مناراتها المميز، معظمها قديمة مبنية في الزمن العثماني، يؤمّها المصلون خمسة أوقات، ويدخلها السيّاح في الوقت الذي يريدون دون ممانعة أو حرج ديني. فقد استغلت نقوشها وزخارفها كأحد المعالم التي تجذب السياحة. الأجمل ما فيها صوت أذان الفجر يسمع باللغة العربية في كل مكان، يذكّر السامع بذاك الصوت الشجي من مآذن أهل العراق.

تجربة الريف الأنطالي، لا تُنسى

لابد أن تشاهدوا الريف من كثب، قال شيخ تركي يأخذ له من مصطبة على البحر مكانًا لقضاء الوقت. وصف ريفهم بأنه وسط بين ريف الغرب المترف وريف الشرق المتعب، وأكد أنه

يجول في ربوعه باستمرار للتمتع بالمناظر الخلابة، واستنشاق الهواء النقي، وتسلق سلسلة الجبال المحيطة، وإقامة الليل في خيمة كل صيف على إحدى تلك الجبال. رغم أنه بلغ الثمانين من العمر، لم يشبع بعد من تلك المناظر الخلابة وغرابة الطبيعة. اقترح علينا زيارة قرية جوينك (Göynük) على الساحل الغربي، موضحًا أن الطريق إليها من المدينة حديث، يمر ببعض الأماكن على سفح الجبل، وفي أماكن أخرى عبر أنفاق شُقت في قلب الجبل، مرتبة بشكل جيد.

توجهنا صوبها بسيارة أجرة، وسائق لها من أهل القرية، ظهرت من بعيد كأنها حديثة، أو تم تحديثها في السنوات الأخيرة، حيث لم يبق من القديم إلا القليل، بيوت مبنية من الحجر وحدائقها المسورة بأشجار البرتقال. قال ذاك السائق الذي عرّف عن نفسه سليمان: «أنّ قريته قديمة بناها أوائل العثمانيين بين سفح الجبل والساحل، تتوسد مجرى ماء دائم من ينبوع في جبال طوروس». أوضح أن أهلها انتبهوا إلى فقر حالهم قبل ثلاثين عامًا، واستغلوا موقع قريتهم، ونبع الماء، ومجراه النازل إلى البحر، فدفعوا بها إلى واجهة السياحة، بمساعدة الدولة. فتحوا من بيوتهم محال تجارية بسيطة تعرض بضائع تراثية ومنتوجات محلية بأسعار سياحية عالية، ومدت بعض الشركات فروعًا لها في القرية، فتحولت إلى مختصة بالتراث ومعدات التسلق والإبحار، مما جذب الأوروبيين وأهل البلاد بكثرة، فتحسنت أحوالهم المعيشية. حتى من لم يجد له مكانًا في صناعة السياحة، اشترى سيارة أجرة بالتقسيط، وبدأ

العمل من القرية وإليها في طريق سياحي مستمرة عليه الحركة طوال السنة.

انتهت القرية من جهة الجبل عند شارع وحيد يحاذي جدول ماء دائم الجريان. توقفت عند نهايته سيارة سليمان الصفراء بجوار ساحة محصورة بين الجبل والوادي. وسع أهل القرية وبلديتها المحيط المخصص للساحة نحتاً في حافات الجبل، وأقاموا أماكن جلوس وأكشاك لبيع الطعام وبعض المنتوجات المحلية، وأقفاص دواجن، وألعاب أطفال تجذب القادمين. وضعوا حاجزًا مشبكًا في بداية طريق يفضي إلى المنبع، ممرًا للمشاة يتحكمون بدخوله لقاء أجر قدرهُ دولارًا للشخص الواحد، ما يمكن الزائرين من التمتع بخضرة المنطقة وطقسها البارد والتسلق إلى منبع نهرهم الخالد، وإدامة المشروع. لم يغيروا في الطبيعة المحيطة بالممر المتعرج ومنحوتاتها في الصخور وعوامل التعرية، مما يمنح السائح فرصة التمتع بالمخاطر. كان الطريق مخصصًا في غالبيته لشخص واحد، مسيجًا بالأسلاك المعدنية، وأوتاد حديدية لتقليل الخطورة، مع جسور معلقة من الخشب لشخص واحد ترفع الأدرينالين عند المشي عليها وهي تهتز كراقصة تركية.

استمررنا في السير صعودًا أكثر من ساعة ونصف الساعة، بمحاذاة الماء النازف من سفح الجبل نقيًا في سواقٍ تصب في المجرى نزولًا الى الوادي. ظهرت على بعض أجزائه آثار عاصفة وأمطار حدثت في الأمس، غطت جبال طوروس، وتركت خلفها شجرة صنوبر ضخمة اقتلعت من جذورها وتوسدت الممر، وأخرى

جثت إلى جانبه، وصخرة تركت موقعها في الأعلى لتستقر آمنة في الجوار، بينما قاومت أخرى الرياح والزوابع لآلاف السنين ولم تتحرك من مكانها. تدخلت البلدية قليلًا عند المنبع، وضعت أرائك للجلوس، ووسعت اليابسة من حوله، ثم شيدت كوخًا في الأعلى لتخزين معدات الرياضة الخاصة بالتجديف النهري (الرافتنج) لتلبية إحدى هوايات الشباب الساعين إلى التمتع بالمخاطر والماء الجاري بين الصخور والمنحدرات الحادة.

كان النظر إلى الماء لحظة خروجه من بين صخور السفح، وهو يغطي أجزاءً من الجبل، مبهرًا. سماع خريره المميز ينعش العقل كسماع سيمفونية هادئة. تأملناه كثيرًا، فتذكرنا الطبيعة في كوردستان العراق التي لا تقل جمالًا وعطاءً عن هذه الطبيعة، وتذكرنا قرى تحيط بالآثار ومواقع السياحة، أبقى أهلها على فقرها مئات السنين، وأبقوا حالهم على حاله روادًا لمقاهي الخدر، يلعبون فيها الورق والدومينو طوال النهار ويمدونه أحيانًا الى الليل، دون التفكير بكيفية استثمار مواقعها، أو تراثها، أو طبيعتها للانتقال إلى الأفضل، وكأن الأفضل لا يهمهم، أو ينتظرون من يقدمه لهم على طبق من ذهب.

أنطاليا بين الماضي والحاضر

كُتبَ في التاريخ أن الملك أتالوس الثاني أمر رجاله سنة ١٥٠ قبل الميلاد بالعثور على مكان على الأرض يُحسب جنة، فانتشروا في الأصقاع، وعثروا في أثناء انتشارهم على بقعة خضراء موفورة

المياه، أجوائها معتدلة تقع بين الجبل والبحر، فأشاروا إليه أنها الجنة، قَبِلها الرجل إعجابًا، وأعاد بنائها، ومن ثم أعطاها اسمًا يونانيًا «أتاليا». ومن بعده، أُسميت «أداليا»، وأخيرًا «أنطاليا». مدينة عامرة، توارثتها الإمبراطوريات الرومانية ثم البيزنطية، ومن بعدها العثمانية، التي حافظت عليها وأعلت أسوارها الحجرية ومداخل حراستها، حتى نشوب الحرب العالمية الأولى التي أخرجت الأقلية اليونانية منها، وأنهت حكم العثمانيين.

لقد تغير شكل الحياة فيها بعد انتهاء الحرب وزاد عدد السكان داخل سورها، فتوجهوا للخروج منه، وبنوا امتدادًا لها مدينة جديدة، لكنهم أبقوا القديمة كما هي. قلعة ما زالت بقاياها شامخة ترتكز على جرف صخري، تشرف على خليج من البحر يشكل لها خاصرة مرئية. احتفظوا بمقاطع من الحصن الذي كان مشيدًا جوارها لأغراض الدفاع، ووضعوا إلى يساره مدفعًا، يحكي للأبناء جولات أجدادهم دفاعًا عنها، ويحكي احتلال الإيطاليين لها في الحرب الأولى، وإعادتها للحظيرة التركية من قبل أولئك الأجداد، ويحكي كذلك تاريخ مينائها والتجارة مع مدن البحر الأبيض المتوسط والعالم.

تغير موقع الميناء، واختفى من جرف المدينة القديمة، وأقيمت على أعقابه مراسٍ لزوارق صيد وسياحة، وحافظت البيوت العتيقة على أشكالها. تحولت غالبيتها إلى مطاعم ومقاه وفنادق وبارات، يأخذ منها المارة مكانًا للهو والراحة المؤقتة من عناء اللف والدوران. تنتشر المطاعم على الناصية بانتظام، ممتلئة

طوال الوقت بالرواد، تعرض أصناف مأكولاتها الشرقية ببعض كلمات وإشارات لأطباق تركية لذيذة يفرط الأوربيون في تناولها. تفتح أبوابها منذ الظهر، وأخرى تقدم وجبة فطور في الصباح، وتستمر جميعها في حركة صاخبة حتى ساعة متأخرة من الليل. يسمع الماشي في شوارعها والأزقة الموسيقى التركية، ويرى في اللبس أزياء تركية شعبية، وأخرى حسب التقليعة الأوروبية. وإذا استهواه الصوت، وزاد وتر الخضار في روحه، واتجه إلى الداخل، سيجد فِرقًا فنية تعرض وصلات غنائية وأخرى راقصة لفن يدور في محيط شرقي يقترب في الإيقاع واللحن من الفن العربي.

في هذه المدينة، مدّ أصحاب المطاعم والمقاهي نفوذهم إلى الشوارع والأزقة التي أُكسيت جميعها بالحجر، وتحددت حركة السيارات عليها. نصبوا على حافاتها وعند بعض الزوايا طاولات لزبائنهم، مسموح لهم بالامتداد واستغلال جزء محدود من الشارع بإشراف بلدية قوية، غايتها تطبيق النظام والمحافظة عليه، وعدم استغفال السائح، والأهم استيفاء الضرائب. وسط كل هذه الحركة الدائبة لزائري المدينة القديمة، حافظت الجوامع على هيبتها، تقيم الصلاة في أوقاتها الخمسة، على الرغم من توسطها تلك المواقع المختصة بالسياحة والرفاه، لم تتأثر، ولم تفرض شروطها على الجوار، ولم تتصدع، فالإدامة مستمرة على مدار اليوم والساعة. أخذنا من شاطئها زورقًا في جولة بحرية، كان النظر منه إلى هذه المدينة القديمة ممتعًا، والسير في شوارعها النظيفة والأزقة أكثر متعة. ظهر في الجوار اثنان يلعبان النرد لا

يعيران اهتمامًا لمن يمرّ إلّا لصوت النرد بمروره على القاعدة الخشبية. وهناك رجل وضع كرسيًا جوار باب محله، والبيت الذي حافظ عليه، وأضاف إلى واجهته شتلات ورد زاهر، وآخر يقف في الركن الآخر يُمتِّع النظر بمرور الماشين من السائحين من دون قيود، يعي تمامًا مقت السائح الغربي للقيود ونفرته من المجتمعات التي تكثر فيها القيود غير اللازمة.

لقد أدرك أهل المدينة القديمة والجديدة معًا هذه الحقيقة وأهميتها في صناعة السياحة والكسب، فتركوا المجال واسعًا بأقل القيود، وقدموا مدينتهم القديمة بلباس عصري، يذكر شكلها والطباع من بعض المدن السورية المحاذية إلى البحر، وقسم من الحارات الدمشقية، باستثناء القيود.

دمشق وعديد من مدن العرب تكثر فيها القيود الشكلية، على العكس من الأتراك الذين باتوا في السنين الأخيرة يخفِّفون منها ليملؤوا الفراغ، ويحسنوا الصنعة، بطريقة تدفع إلى السؤال:

ماذا لو أحيّت بغداد محالها القديمة، أخرجت النجارين، والحدادين، والطبّاعين من أزقتها، وفتحتها أمام الراغبين بمشاهدة بغدادهم يوم كانت عاصمة الشرق بلا منازع؟

* * *

مصر في ذاكرة الأيام

مصر قبل وبعد

لمصر قصة طواف مختلفة عن غيرها من القصص، بدأت في المرة الأولى التي وطأت قدماي أرضها، سنة 1971، كنت حاملًا عنها أفكارًا حددتها الأفلام، دهشة وتعجبًا وغواية، صححت بعضها في أثناء العودة، والأخرى سنة 1975 أقمت فيها خمسة شهور، سكنت مصر الجديدة، مشاركًا في دورة بالجيش المصري تضاعف خلالها إعجابي بوطنية أهلها وخفة الدم، وحبهم لنهر النيل، وثالثة خلال الدراسة العليا في جامعة «عين شمس» لثلاث سنين، كوّنت طوالها صداقات غالبيتها بضباط مصريين لنا وإياهم مفاهيم مشتركة وشهدت زيارات عديدة إلى مدن عديدة، ورابعة جاءت مشاركة في وفد عسكري وفّر فرصة لزيارة سيناء وخط بارليف، وخامسة مرورًا منها إلى اليمن حتى بتُّ أعرف القاهرة وشوارعها ومحالها مثلما أعرف بغداد والحلة، ومع هذا بقيت سيناء والمرافق السياحية التي أقامتها الدولة المصرية هناك هدفًا للطواف، وفّرته

لويذاء التي تقيم في مدينة «ذهب» على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة، لأشهر ثلاثة من عام 2020 ضمن توجهات عندها للاطلاع على حياة الصحراء، ودراسة أساليب الطب الشعبي هناك. قالت في مكالمة هاتفية «المنطقة، والجفاف، والبدو المحافظون على التقاليد، والمشاريع السياحية على البحر تستحق المشاهدة». فتم الاتفاق على التوجّه صوبها، والحجز في أكثر من منتجع.

حطت الطائرة على مدرج مطار «شرم الشيخ الدولي» في تمام الساعة الثالثة صباحًا، متحدية ريح عاتية قادمة من اليمين، جعلتها تتأرجح بدايةً في عملية الهبوط. صفّق بعض الركاب لربانها حال الهبوط، كانوا خائفين من ركوبها وهبوب الرياح، تذكر بعضهم طائرة روسية تحطمت قبل عدة سنين بعد الإقلاع، وقبلها أخرى مصرية سقطت في البحر، فزادوا من شدة التصفيق، متمتعين بنعمة الوصول.

وقفت لويذاء في الساحة المجاورة لبناية القادمين، تقدم منها باص لنقل أصحاب الحجوز إلى الفندق، المنتجع. ضحكت سيدة بريطانية من أصول عربية جاءت تستمتع بحرارة شمس الشتاء التي لا يقل متوسط درجتها عن العشرين، وبصفاء الأجواء طول النهار، وبالليل الأخّاذ حيث تتلألأ النجوم. التفتَ إليها رجل أشقر طويل القامة بعينين زرقاوين، يمشي إلى جوارها، يبدو وكأنه زوجها، وسألها بلطف ولغة إنجليزية ذات لُكْنَة أسكتلندية عن سبب الضحك. فأجابت: «انها تذكرت غياب خراطيم نقل الركاب من مكان وقوف الطائرة إلى صالة الوصول، في مثل هذه

المطارات التي أنشئت لرفاهية السياح المسافرين». ابتسم الرجل ابتسامة عدم رضا عريضة غطت نصف وجهه السفلي، وتعمد تغيير سير الحديث، كأنه أراد تسجيل بداية جيدة لسياحة يتأملها هادئة من دون انفعال، وقال: «إن المطار صغير، ويلبّي حاجة السياح المسافرين ذهابًا وعودة إلى ديارهم». سكتت الزوجة غير مقتنعة بالجواب، واستمرت بالسير معه إلى الباص لتحشر نفسها مع باقي الركاب.

انطلق الباص وعندما استوى على الطريق العام، شغلَّ سائقه المصري الشاب حاكية مثبتة في الأمام، بدأ شرحًا عن «شرم الشيخ»، قال عنها «بقعة صحراء قاحلة، تغلفها رمال مثل رداء حرير صيني بلون الذهب، وَقَفت منها الطبيعة موقف عداوة فحرمتها المطر، أحاطتها جبال بلون التراب الندي لا خضرة فيها ولا شجر، مدّت منها سفوح جرداء حتى ملتقى خليجيّ العقبة بالسويس أقصى جنوب شبه الجزيرة سيناء التي كلم الله فيها موسى، وتاه به والقوم أربعين عامًا، أخذ منها البدو يوم كانت جمالهم سفن صحراء في سابق العصر موطئ قدم لتجارتهم وتنقلهم، وحوّلها أهلها بعد دخولها عامل صراع في هذا العصر إلى مدينة سلام سياحية، قَبِلَ البدو هذه النتيجة، سايروها، سكنوا بعض أوديتها، سخّروا جِمالهم لأغراض السياحة، والتنقّل في المناطق النائية وتلك الوعرة، حافظوا على وقع حياة خاصة، وتقاليد محدّدة، ولهجة يتكلمون بها مختلفة عن اللهجة المصرية التقليدية، واعتزاز بأصولهم القبلية، مثل سكنة الصحراء في

مناطق الجزيرة العربية، بقوا كما هم عبر الأزمنة صعبي المراس، لا تقترب منهم الدولة».

توقف قليلًا وكأنه يستكشف ردود الفعل من شرحه المتواصل، ولما أدرك انسجام الركاب معه أضاف: «كبرت شرم الشيخ القرية، صارت مدينة، تغيرت أهميتها من منطقة أرادها العسكر المصري، موقعًا إستراتيجيًا للتحكّم في ملاحة البحر الأحمر، إلى مدينة سياحة عالمية، ليتجاوزوا حقبة مواجهات مع إسرائيليين احتلوها والمنطقة في حربيّ (1956 و1967) إذ إنهم وفور إعادتها، بدأوا مشوار تحويلها، جعلوا منها مدينة عصرية بواحات خضراء، جلبوا لها استثمارات عالمية أنشأت مئات الفنادق، والمقاهي العصرية، ومدن ألعاب، ولهو، وأسواق، وعشرات من المنتجعات أخذت من ساحل البحر حصة لمسافات امتدت طويلًا، فصارت مدينة بنكهة عالمية خاصة، تختلف عن مدن مصر الأخرى، وصار الإلمام بها خلال أيام في برنامج سياحي مزدحم، يتطلب سيارة أجرة تلفها من الشمال إلى الجنوب».

حال إكماله الشرح أوقف الباص عند بوابة منتجع كانت مغلقة. فتحها حارس أربعيني بعد نظرة بسيطة إلى ركابها وإشارة استلام الهُوية الخاصة بالسائق. بانَ المنتجع كفندق خمس نجوم، له قاعة استقبال فخمة، ظهر من خلف مكتبها شاب مصري حسن المظهر، ذو ابتسامة واضحة. أنجز المطلوب ببراعة، ثم قال بلهجته المصرية الودودة، موجهًا كلامه إلى السيدة البريطانية التي احتجت على عدم وجود الخرطوم الناقل في المطار: «لو

تسمحي سيدتي أن تعطيني إحدى يديك»، ولما أدرك الحرج بطلبه الغريب، بادر بالقول: «لأضع شريطًا أبيضَ على معصمك لوجبة فطور فقط وأصفرَ إذا ما أضفت عليها وجبة عشاء» سألته باستغراب»: لم هذا التقليد؟

رد بأدب جم: «إنه نظام المنتجع وكافة المنتجعات السياحية المزدحمة سيدتي، وُضِعَ لتجاوز التأخير الذي قد يحصل عادةً عند دخول المطاعم وأماكن اللهو والرياضة». قالت وهي تأخذ مفاتيح غرفتها: «لماذا صنعوا الحواسيب والأجهزة الذكية؟»

ابتسم لها مرة أخرى، متجاوزًا الحرج، وأشار إلى سائق سيارة كهربائية ليكمل مهمته في الاطمئنان على وصول كل نزيل وأمتعته إلى الغرف المبعثرة على مساحة واسعة، شيدت من طابق واحد على شكل مجمعات، توزعت بين حدائق وأراض خضراء، ترتبط جميعها بممرات مغطاة بطابوق الأرضيات الأحمر، يجمعها في الوسط مسبح يبدو كبحيرة صغيرة، وقاعة رياضة ومطاعم ومقاهٍ متفرقة.

▪▪▪▪▪

أعلنت لويذاء على مائدة الفطور استئجار سيارة وسائق لها يُدعى سامح، سيبقى تحت الطلب طوال التواجد في شرم الشيخ، وأكدت وقوفه الآن أمام باب الفندق.

بدأ سامح المشوار من باب المنتجع الفندق (Royal Jolie Ville) باتجاه وسط المدينة، بانت الشوارع عريضة،

معايير نظافتها جيدة، لا زحمة مواصلات فيها ولا عثرات سير، ولا ضجيج سيارات، أو تلوث هواء وصراخ الباعة المتجولين، سكانها الخمس والثلاثون ألفًا، هم العاملون في مجال السياحة، والوظائف الحكومية الرسمية، يبدو على هيأتهم العامة ملامح الانفتاح على العالم، إذ لا يكترث أحد منهم لمن يمشي في الشارع سائحًا بملابس تعرض أكبر مساحة من الجسد إلى شمسها الذهبية، وهو القادم في الأصل من أجل التمتع بخيوط أشعتها، ومياه بحرها الدافئة، وشُعَبُها المرجانية، ولا أحد منهم يسأل عن الديانة، إسلامية كانت أو مسيحية أو من اليهود أبناء العم إسحق، أو حتى عبدة الأصنام من زمن الجاهلية، كأنهم تعلموا فن السياحة، وصناعتها بقدر مقبول وإن لم يتمّوا تعلمها بعد، كما تقتضي حاجة السياحة الفعلية، وفي طريقهم الطويل لتعلمها بات الباعة في المحلات التجارية، وعمال المقاهي، ونُدُل البارات، وبعض من الشرطة، وأفراد من البدو أصحاب الجِمال يتكلمون أكثر من لغة أجنبية، كتبوا أسماء شوارعهم ومحالهم التجارية، ووضعوا علامات دلالة بلغات أجنبية تغلب عليها الإنجليزية، ومن بعدها الروسية، يبيعون بضائعهم بأسعار سياحية، تزيد عن أسعارها التقليدية، رؤيا في التجارة يحسبونها شطارة، جعلتهم يقبلون المساومة على السعر، وجعلت السائح هو الآخر يساوم من أجل الحصول على سعر أفضل، يصل إلى النصف في كثير من الأحيان.

قال سامح وقد فتح مذياع سيارته بأعلى صوته على أغان

مصرية شعبية: «أن المدينة هنا تتطور، تجلب رؤساء دول، وعلماء واقتصاديين، ليعقدوا على أرضها، وفي قاعات فنادقها مؤتمرات ولقاءات قمم عالمية، فاستحقت تصنيفها مدينة سلام عالمية، ومع هذا لم تسلم من غل إرهاب أصفر طالَ سوقها التجاري القديم بثلاثة تفجيرات متتالية في 2005»، وأردف قائلًا: «إن ماء البحر هنا وفي هذه المنطقة التي توسدت في مكمنها خليجين، صافيين كأنهما بلورات من الكريستال، تكثر داخلهما أنواع من الأسماك الملونة، حددت الدولة أماكن خاصة للغوص بغية مشاهدتها، وشجعت رياضة الغطس، حدًا باتت تجلب هواة ومحترفين من كل أنحاء العالم، وكوّنت منطقة غطس من أكثر المناطق شهرة في العالم.» وهو كذلك يشرح عن واقع المدينة، نظر الى ساعته، قال: «هناك في الزاوية، وقريبًا من جامع الصحابة مطعم سمك (Fish Mart) مشهور يستحق الأخذ به مكانًا لتناول الغداء». وبعد تناول وجبة طاجن سمك شهية، أدار سامح مقود سيارته واتجه إلى البحر، إلى شواطئ (بلاجات) خصصت للفنادق والمنتجعات، نظمت بإتقان، الحقت بها مقاه، ومطاعم، وبارات، وأماكن مخصصة للسباحة والعوم على الماء تحدّدت بحبال وكرات حمراء، لتقييد السباحة خشية من هجمات متوقعة لسمك القرش حصلت لمرة واحدة سنة 2010، ختم حديثه بالقول: «هنا الغروب جميل»، وكان كذلك جميل، وموج الماء مع انسحاب الشمس كان هو الأجمل.

مدينة ذهب: بين الصحراء والبحر

جميل هو الصباح في واحة المنتجع، وهواؤه النقي المصحوب بلسعة برد خفيفة، وجميلة نخيله الذي يُزين المكان، والأشجار الموزعة بانتظام، والأرض المفروشة بتلك الحشائش الخضراء. العاملون في هذا المطعم وباقي الأماكن ودودون، يرحبون ويضحكون، ويسعون إلى تقديم الخدمات، يتمسكون بالتعليمات حد الحرفية من دون تمييز. لكل واحد منهم إجابة مناسبة لكل سؤال، وإذا لم تعجب السامع تلك الإجابة، فهناك أخرى احتياط. قالت تلك السيدة البريطانية، التي أصبحت بحكم التواجد في المنتجع رفيقة سفر: «مشكلتنا نحن العرب هي دعاوى المعرفة والرغبة في الإفتاء، كل منا يفتي، كبيرنا والصغير يفتي، وإن لم يمتلك المعرفة اللازمة عن الموضوع، لابد أن يفتي. ومشكلتنا أيضًا هي حجم البطالة المقنعة في مشاريع أعمالنا». ثم أشارت بسبابة يزينها خاتم ألماس إلى مجموعة عمال يقفون قريبًا من بعضهم ينظمون الطاولات، وقالت: «هذه مهمة ينجزها عامل واحد في أكثر المطاعم ازدحامًا. هنا وفي أماكن أخرى من بلداننا يكثرون من العمال والنتيجة فقدان المهارة وزيادة الكلفة». لكنها عادت وكأنها تريد تصحيح رؤيتها، قائلة: «إن المشكلة في قوانين العمل وزيادة أعداد السكان».

ها قد حل الوقت لنغادر «شرم الشيخ» الى مدينة «ذهب»، قالت لويذاء، وحدّدت وقت الانطلاق ظهرًا، ما إن حلّ وانتصف قرص الشمس وسطًا في السماء، وقف الباص بسائقه أمام الفندق،

لتنتهي أربعة أيام في هذا المكان، «شرم الشيخ»، وتبدأ مثلها أخرى في مكان آخر، مدينة «ذهب» في الجزء الجنوبي الشرقي لشبه جزيرة سيناء. تحرك بالركب في الوقت المتفق عليه، سلكَ طريقًا صحراوية غالبيته ممر واحد، كان قد جُددَ حديثًا، وما زالت بعض أجزائه ترزح صاغرة تحت قهر التعبيد، انفتحت من أمامه بعد ربع ساعة مسير واجهة جبال جرداء تتخللها شقوق كوّنتها السيول عندما تحنّ الطبيعة وتجمع غيومًا لتمطر استثناءً، وهي لم تطبق هذا الاستثناء وتمطر منذ خمس سنين، فانتهى في هذه الجبال ووديانها عالم النبات إلّا من شجرة (الغرقد) اليهودية متناثرة، قيل إن الإسرائيليين، زرعوها إبّان تواجدهم في المكان، بقيت متناثرة على جانبي الطريق بين جبال وعرة، تعبرها الرياح برفق حاملة نسمات البحر الأحمر العطرة، تجسد مزيجًا ساحرًا من الطبيعة البريّة القاسية وسحر الشواطئ شبه الجرداء.

استمر السائق طوالها واثقًا، سار من دون توقف إلّا لدوريات وكمائن أمنية، تدقق، تسأل عن الجوازات والموافقات، وكأنَّ التنّقل هنا بين منطقة وأخرى، تنقلٌ بين دولة وأخرى، إلّا أنهم وحال التعرف على الجنسية عراقية، يبتسمون، يؤشرون بمتابعة السير من دون الخضوع لكامل الإجراءات، هُمْ وعموم المصريين يقتربون من أهل العراق، يتذكّرون أنهم أو واحدًا من عوائلهم سبق وأن عمل في العراق، وتنعّم بخيرات العراق.

تسعون كيلومترًا، وسط تلك الجبال الممتدة لعزل الصحراء عن البحر، انفتحت واجهتها الثانية كذلك على البحر، فظهرت مدينة

«ذهب»، أو (دهب) باللهجة المصرية، قال السائق: «إن المدينة قرية قديمة، نشأت قبل الميلاد، ميناءً للتجارة، ونقل البضائع إلى الشمال، ومركز صيد، وعملتْ منها الدولة حديثًا موقعًا سياحيًا بنكهة شعبية محلية ينمو ويتوهج بسرعة، أخذت اسمها من شكل رمال لها تشبه في صفرتها، صفرة الذهب». اقترب من وسطها ببطء، سار في شارع لها رئيسي يكاد يكون هو الوحيد، توقف فجأة لقطيع ماعز يمر عبر الشارع من جهة اليمين، أشر على بيوت قال هذا قسمها الجنوبي، قرية (العسلة)، غالبية سكانها بدو، حياتهم بسيطة، دخلوا وجِمالهم قطاع السياحة، يعملون جولات ليلية وبالنهار في الجبال وفي عمق الصحراء لمن يرغب، وهناك الكثير من الراغبين أجانب من كل الجنسيات.

مع لحظات الوصول إلى ذهب نزلت الشمس من خلف الجبال التي تحيط بالمدينة ومنتجعاتها السياحية العديدة معلنة قرب المغيب، في مكان يُشار إليه من بين الأماكن الأكثر هدوءًا. وفي نزولها، مدت خيوط أشعتها على سعف النخيل، مما يثير في الذاكرة جمال مغيبها على نخيل نهر الحلة في القرية، أيام كانت على شطآنها نخيل.

بعد وضع الأمتعة في الغرف المحجوزة مسبقًا، اقترحتُ التجول في ربوع المدينة مشيًا للتعرف على واقعها من كثب، فكانت عبارة عن شارع تحيط به محال تجارية، ومراكز تعليم الغوص، ومطاعم ومقاه ترفيهية تطل على البحر. أمّا أهلها فودودون، ومنفتحون يفتخرون بأصولهم البدوية، حافظوا على تقاليد بداوتهم، حتى

أن أصحاب المحال التجارية لا يغلقون محالهم عند الذهاب إلى الصلاة، أو لقضاء الحاجات، يضعون قطعة قماش تغطي البضاعة، وأخرى تعلق على الواجهة، إشارة إلى الغياب.

استمر التجول حتى المرور من أمام سلسلة مراكز استجمام (منتجعات) سياحية توزعت على امتداد البحر، توقفنا عند (Jaz dahabeya)، قالت لويذاء: «ها قد عُدنا إلى فندقنا أو المنتجع الواسع نسبيًا الذي يضمّ أربعة مجمعات، تحيط بمسبح فسيح زُينتْ حافاته بالنخيل، وممرات تفضي إلى ساحل للبحر اقتطع المنتجع منه مساحة في العرض تساوي المساحة التي أخذتها الواجهة».

كان الجو عند المغيب ربيعًا أخاذًا، نسيم هوائه عليل آت من واجهة البحر الهادئ، إلّا من مراكب تمر بأشرعة أو بغيرها، تثير موجًا خفيفًا يتلاشى أثره قبل الوصول إلى الساحل، ليبقي الماء هادئًا مغريًا كأنه يتوسل من جاء ماشيًا، أو من كان واقفًا كي يدخله سابحًا، ومن بعد جولة السبح تبدي إغراءات أخرى من إحدى مصاطب رُصّت تحت شمسيات توزعت على الشاطئ، كانت قد استسلمت لها امرأة جاوزت في عمرها السبعين، كي تعرض جسدها إلى الشمس طامعة في الاستزادة من الفيتامين (D)، ومثلها فعل رجل إلى الجوار، واستسلم آخر بنفس الطريقة مادًا جسده والى جانبه كأس من البيرة المصرية (ستيلا) يشرب منه، ويتأمل في البحر من كثب، وثالث يقرأ في كتاب، وأطفال يدفنون أجسادهم في الرمال، حتى حلول المساء، وفترة عشاء

انتهت لتبدأ من بعدها حفلة رقص شرقي أحيته فنانة مصرية، صفق لها الأوروبيون كثيرًا كأنهم صاروا من عشاق هذا الفن الفرعوني الأصيل.

بدأ الصباح التالي في مدينة «ذهب»، قالت بشرى: «لنكمل الطواف في المدينة والأرجاء، لنتعرف على سوقها المليء بالمعروضات المحلية، والحرف اليدوية والمنتجات التقليدية، تعكس جميعها ثقافة سيناء وتاريخها العريق». وبعد تناول وجبة الغداء وهي عبارة عن فول في مطعم شعبي، اقترحت لويذاء استئجار سيارة والذهاب خمسين كيلومترًا داخل الصحراء، لزيارة خديجة من قبيلة الحويطات، تعرفت عليها امرأة تداوي بالأعشاب، سيدة عارفة بتاريخ سيناء وقبائلها وامتداداتها إلى باقي بلدان العرب بينها العراق، فكان الوصول اليها قبل المغيب، خيمًا موزعة، وإبل طليقة السراح، وأغنام، وخيمة معلمة براية بيضاء، قالت عنها خيمة خديجة. رحّبت البدوية المشهورة جنوب الصحراء، قدمت اللبن ضيافة أوليّة، وراحت في الحديث بعيدًا عن الأدوية النافعة والتاريخ، ومشاكل الصحراء، شكت من وصول الإرهاب ديارهم والتأثير على عقول الشباب، أصرت حضور حفلة عرس لفاطمة ابنة أخيها مساء اليوم، فرصة نادرة قالت عنها مناسبة للتعرف على عادات بدو سيناء، ومشت في الأمام متزنة عبر الساحة التي تتوسط الخيام وقد زينت بالفوانيس، وفرشت على طولها أسمطة الطعام، توافد اليها الرجال بثيابهم البيضاء الطويلة، بينما تزينت النساء بالملابس المطرزة بالألوان الزاهية والحلي الفضية.

بدأت الاحتفالات برقصة السيف، تألق فيها الشباب بمهارات التلاعب بالسيوف وتناسق الحركات. كانت أصوات الأغاني البدوية تصدح في الأرجاء، مصحوبة بإيقاعات الدفوف والطبل، مفعمة بالحماسة والحيوية. تناول الجميع العشاء من اللحم المندي والأرز المعطر بالتوابل في حفل جسّد التقاليد الأصيلة والضيافة البدوية الكريمة. وقفت خديجة عند أطراف خيمتها المحاذية للساحة منتصبة القوام حافظت على مسحة جمال بدوي، كأنها شيخة عرب، لوّحت بيدها مثل الرجال، قالت: «في أمان الله». وقبل التفّرق إلى غرف الفندق، أعلنت لويذاء عن برنامج اليوم التالي زيارة محمية رأس محمد، المعروفة بتنوعها البيولوجي والشعاب المرجانية الساحرة، فكان الغوص ورؤية الحياة البحرية الغنية، ممتعًا، وسماع قصص السكان المحليين عن حوادث غرق السفن القديمة بالقرب من شواطئهم، قد أضاف بُعدًا تاريخيًا آخرَ إلى التجربة.

بائعو الوهم

وَقفَتْ عند مدخل الرصيف التابع للفندق، وأشارت إلى باب قلعة خشبية كأنها من العصور الفرعونية. قالت: «تؤدي إلى بيت الرئيس»، بيت تطل جهته الشرقية على البحر، بمواجهة بيتٍ آخرَ أصغر حجمًا لرئيس الوزراء، يجاوره آخر ضخم يرقى إلى أن يكون قصرًا لأحد سلاطين العرب قد نال الأرض مكرمة من السيد الرئيس. بيوت فخمة أو قصور يجمعها شارع يتمدد ملتويًا جوار الساحل مثل أفاعي المياه الدافئة. تطل عليه بيوت أخرى لا تقل

فخامتها عن الأخرى، لعوائل وشخصيات مصرية وعربية وأجنبية. فالماء هنا والهواء والهدوء يستحق أن يسكنها الأغنياء، وقوانين التمليك مفتوحة لمن يدفع من الفقراء والأغنياء. غابت في محيطها الإجراءات الأمنية التقليدية للمواقع الرئاسية، وانسحبت حمايات الرئيس.

سُلّمٌ إسمنتي ينزل من هذا الشارع الأرستقراطي إلى الماء بسلالم خشبية تعلقت بحافات صخرية، بعض زواياها حادة، تفضي إلى شاطئ أملس، رماله صفراء، وُضعت على أسطحه شماسي، ومصطبات، وأنشئت مقاهٍ تفضي إلى منصة خشبية تمتد داخل البحر، أوتادها مثبتة في قعر البحر تبدو وكأنها عائمة. شعرتُ وأنا أقف على سطحها بلفحة هواء منعشة، ومتعة النظر من الأعلى إلى من في الماء يعوم وإلى الأسماك المتسللة.

نزلت الشمس هاربة خلف البيوت الرئاسية، وتركت بقايا متناثرة على مياه البحر، أعطتها لونًا خليطًا من الزرقة والصفرة، سرعان ما عشقته العين، ودفع إلى الجلوس على الرمل تأملًا بخليط جديد، وانتظارًا لما بعد المغيب. وفي خضم التأمل، والانتظار حضر شاب أسمر وسيم بشعر مجعد، كان يتنقل بين مجاميع المتأملين. يتكلم خمس لغات، عرّف عن نفسه محمود. دخل في الحديث بلباقة أخّاذة عن المكان والبحر، وأشار بيده إلى جزيرة تبعد عن الساحل عدة كيلومترات. قال: «إنها تيران، وتمتاز بساحل رملي كأنه بكر، وشعاب مرجانية عائمة، استعملت قديمًا كنقطة للتبادل التجاري بين الهند وشرق آسيا. شيّد عليها البيزنطيون محطة جمارك، نصب

فيها الإسرائيليون نقاط مراقبة بعد النكسة، وأعادها المصريون إلى حاضرتهم بعد النصر. تستحق المشاهدة والتجول، المسافة إليها إبحارًا خمس وعشرون دقيقة في الذهاب، ومثلها في العودة، يمكن الوصول إليها والتمتع بمائها والسباحة على شاطئها بجولة بحرية مدتها ثلاث ساعات مقابل ثلاثمائة دولار».

لكنها جزيرة سعودية في الوقت الحاضر، قلت، فكان الرد حاضرًا في جعبته وكان لكل سؤال جواب: «إنها غير مأهولة، ولا ضير من التجول على سواحلها».

كان العرض مغريًا، فالجولات البحرية ممتعة والوصول إلى مثل هذه الأمكنة المثيرة تاريخيًا تقدم فرصًا لا تعوض. وبعد المساومة على أصل المبلغ قَبِلَ النزول إلى الثلثين (مائتي دولار) سلمني بطاقة وطلب عربونًا نصف المبلغ، لحجز المركب المناسب للإبحار إلى تلك الجزيرة الخالية. على أمل اللقاء في اليوم التالي عند باب الفندق بعد الفطور، حضر صباحًا في الموعد المحدد، ومعه سيارة ميكروباص سارت هادئة إلى ساحل شمال المدينة، يحوي شاطئًا، ومركزًا لتعليم الغوص، وركناً لتأجير القوارب. أحضر واحدًا، وقال: «ن أرافقكم كما هو الاتفاق، لأن حمولة المركب ثمانية أنفار».

لكن مركبك هذا أصغر من ذاك الذي أشرت شبهًا له في الأمس، ووعدت أن يكون، سألته بدهشة، فكان الجواب كذلك حاضرًا كمن يتوقع السؤال: «لقد وصلنا متأخرين دقائق كانت قد استؤجرت جميع المراكب، وهذا سريع يفي بالغرض، وقد حمّله

صاحبه بكافة المعدات».

أدار صاحب الزورق محركه، واتجه مع الساحل مسافة في العمق لا تزيد عن الألف متر. استمر في الإبحار لعشر دقائق، أطفأ المحرك، وأنزل المرسى، وقال: «هنا يمكن السباحة الحرة ومشاهدة الشعب والأسماك».

لكننا اتفقنا مع محمود على الإبحار إلى تيران قلت، فأجاب: «لم أتفق معه على الذهاب إلى تلك الجزيرة».

بدأت أجواء الحديث في طريقها إلى التوتر، أخرج هاتفه النقال واتصل بمحمود ثم عاود الحديث واعدًا بالتوجه صوب الجزيرة، ووقتًا قدّره ساعة إبحار، بدأه بزيادة السرعة عمدًا، فصار ارتطام المقدمة بالأمواج يهز القارب، ويرفعه إلى الأعلى ويعيده مضطربًا لا يقبل السواء. وصارت وجوه الطفلين مائلة إلى الصفرة رعبًا من ذاك الارتطام، قلت: «كفى، عد من حيث أتيت، ولتغرق جزيرة تيران». فعاد مستبشرًا كأنه انتصر، وبعودته اختفى في طريقه الارتطام، وهدأ القارب، ولم يعد الموج موجًا كما كان. ولما رسا على الرصيف الذي انطلق منه، كان محمود واقفًا في المكان، وحاول بمعسول كلامه التبرير بوجود رياح وموج، لم يسمعه أحد، ولما اقترب حد الاحتكاك، قلت: «لم تقتلون مشاريع عيشكم؟».

لم يشأ الإجابة، ترك المكان وعيناه تنظران ما بين القدمين.

تاريخ الدير

قبل أن يتفرّق السياح المقيمون حول موائد المساء المنصوبة في باحات الفندق جوار المسبح، وأخرى أمام قاعة الاستقبال التي تشهد فعاليات يشارك فيها المقيمون للترفيه عن أنفسهم، اتفقنا على خطوات يومنا الثاني، زيارة دير سانت كاترين. وما إن حل هذا اليوم وتناولنا الفطور في وقته قريبًا من الساعة التاسعة، حتى حضر أحمد بسيارته الباص حسب الاتفاق، دقائق وانطلق بها صوب الدير، سالكًا الطريق باتجاه مدينة سانت كاترين، والجبل المسمى باسمها كاترين، شاهقًا يرتفع عن سطح البحر بمقدار 2629 متراً، طريقٌ لا يختلف عن باقي طرق سيناء في ميزتها هجر الخضرة والماء، والخضوع المشدد لإجراءات التفتيش ومكافحة الإرهاب. سار حثيثًا، يؤدي التحية مبتسمًا لمن يقف في نقاط السيطرة من الشرطة المحلية، مصحوبة بعبارات احترام ودية، تتخللها بعض التعليقات لتلطيف الأجواء، وهي عادة عند المصريين المعروفين بخفة الدم ومعسول الكلام، حاملًا ثماني جوازات سفر، يجب عرضها سبيلًا للمرور، مكتفيًا بالتلويح عن بعد لسيارات الشرطة التي تراقب كل الاتجاهات.

ساعة ونصف انقضت، في آخر دقيقة منها مرت بطيئة دخل المدينة الصغيرة، أو المدينة القرية سانت كاترين، الموغلة في القدم، والتي أضفى عليها أهلها المسلمون قدسية مسيحية، بصددها يقولون: «إنّ الملائكة نقلوا جثمان القديسة سانت كاترين بعد وفاتها في الإسكندرية بثلاثة قرون، ليدفنوه أعلى

قمة جبل أخذ اسمها قبل أكثر من ألف عام». ويقولون أيضًا: «إن أربعين نبيًا مروا بها، مات على أرضها ودفن في رياضها أكثر من نبي، بينهم صالح وشعيب».

لا يتفق أحمد مع هذا القول، وينوّه بأنها أساطير وميول للتقديس، ويرجِّح عدم وجود جثامين في قبور أشاروا إليها، قبورًا لأنبياء، بل هي مقامات. تجاوزها وهو يتكلم عن تاريخها وموقعها السياحي، وتوقف عند ساحة خارجها تسبق الدير بمسافة طريق يمتد إلى ما يقارب المائتي متر، النفاذ إليه محكوم بسيطرة الشرطة وتفتيش دقيق، وهو من البداية إلى النهاية مكسو بالحجر، عرضه يقارب الأربعة أمتار، يميل إلى الارتفاع تدريجيًا، ميلًا يخفف عناء اجتيازه لكبار السن وصغاره، سيارة يمكن تأجيرها بالأنفار، أو جمل أعدّه صاحبه لهذا الغرض وللمتعة في غالب الأحيان، لقاء خمسين جنيهًا، عرضًا أوليًا قابلًا للمساومة نزولًا إلى الثلاثين، لكن الغالبية يفضلون المشي لأنّ كل خطوة يخطوها صعودًا على سطحه الحجري تعزر في داخله قدسية المكان الذي تختلط في محيطه عظمة الماضي بقسوة الطبيعة، ومعنى الأديان.

ظهر الدير حال بلوغه رصينًا يتربع على هضبة، كأن أعمدته غرزت في سفح الجبل، مدت قوائمها عمقًا يتزايد بالأيام والسنين منذ تشييده عام 545 ميلادية وإلى هذا اليوم. قوائم، وحجر، وأساطير، ورهبان يونانيون، وقبلهم روس يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية حمت الدير من تقلبات الزمن، وتغير الأديان والمذاهب والحكام من ذاك اليوم إلى هذا اليوم. يفد إليه آلاف

السياح والحجاج من جميع الأديان مؤمنين بقدسيته، مكانًا يجاور من جهة الشرق ذلك الجبل الذي وقف عليه النبي موسى مناجيًا الرب. كما ورد في القرآن.

ممر الدخول إلى الدير حجري ضيق، يبدو أن من صممه تعمد تصميمه هكذا ضيقًا لإمكان إحكام الغلق عند الضرورة، يفضي إلى بئر قيل إنّ موسى حفره، وشجرة زرعها موسى، تسميات أضافت لها مزيدًا من القدسية أبقت الدير قائمًا في منطقة شبه معزولة كل هذه السنين. ومن بعدهما طَلَتْ الكنيسة بأعمدة رخامية، وزخارف سقف ورسوم بألوان، وفسيفساء عربية، وأيقونات روسية ويونانية، ولوحات جدارية ونقوش جعلتها قطعة فن تعبر عن معنى التاريخ. إلى جوارها مَعْظَمَة، غرفة تحوي رفات رهبان عاشوا هنا وخدموا الدير، ومكتبة مخطوطات تصنف بغناها الثانية في العالم المسيحي بعد مكتبة الفاتيكان. في الركن القريب طاولة وإناء وشموع، وقفت عندها امرأة أوروبية في منتصف العمر أخذت واحدة، تمتمت متمنية طفلًا منها يملي عليها وحدتها، وشاب إلى جانبه شابة جميلة يمسك بذراعها، أخذا شمعتين معاً وأوقداها، وتمنيا العيش سوية ما تبقى من العمر، ورجل شرقي قصد بعد إيقاد شمعته رزقًا وفيرًا لآخر العمر، وعراقية دمعت عيناها عند إيقاد شمعتها متمنية بصوت مكبوت خروج عراقها من الغمة، أمنية ابتلعتها بجرعة من لعابها الناشف، يائسة من إمكانية تحققها في القريب.

أقفل الدير أبوابه عند الساعة الثانية عشرة، غادر القادمون

مكانه، كل إلى مكانه، وجلس أحمد خلف المقود عائدًا مع رتل السيارات الذي يتحرك كل ساعة، تحرسه مفارز شرطة تماشيًا مع إجراءات الأمان.

سحر الغردقة ومرحها

إنها الضفة البعيدة من خليج العقبة، مصر الأفريقية، المحطة الأخيرة في رحلة تم التخطيط لها بشكل سريع. أقصر الطرق السالكة إليها، إبحارًا على ظهر عبارة أخذت اسمها من الملكة الأعظم، نفرتيتي. تابعة إلى شركة الجسر العربي للملاحة، المصرية الأردنية العراقية، التي أعلنت على موقعها في الشبكة العنكبوتية موعدًا لعبورها هذا اليوم الجمعة، في تمام الساعة السادسة مساءً، كما هو مكتوب.

لملمت المجموعة أغراضها عند حلول الظهر، وصل أحمد بسيارته مبتسمًا في الوقت المحدد، واتجه بها إلى شرم الشيخ حيث الموقع الذي ستنطلق منه العبارة صوب الضفة الثانية من الخليج. قال: «لنحجز التذاكر أولًا». رد موظف الحجز: «لزوم الحجز جوازات سفر عليها تأشيرات نافذة إلى مصر».

لكن النقيب ضابط الجوازات، يوم الدخول إلى مطار شرم الشيخ، قال لا حاجة للتأشيرة، ومواقع السياحة لا تخضع لقوانين التأشيرة، قلت بقدر من العجب، فرد بثقة عالية: «إن النقيب على خطأ، أو لا يعرف واجباته وإن المستثنى من التأشيرة مواقع

السياحة في سيناء فقط، وأي عبور إلى مصر الأفريقية مشروط بوضع التأشيرة، ولا مجال في الأصل إلى ركوب العبارة إلا بعرض تأشيرة سيدقق فيها ضابط جوازات. سأل أحمد: وما الحل؟

بين أنّ الحل، ومن حالات تكررت من قبل، يكمن في الذهاب إلى المطار، وشراء تأشيرة من فرع المصرف الموجود هناك، ومن بعده تعديل بيانات الدخول في الجواز عند ضابط الجوازات، ثم العودة إلى مكتب الحجز قبل الساعة السادسة مساءً موعد الإقفال. أكد على إن إبحار العبارة سيكون في الساعة الحادية عشرة صباح يوم الغد، وليس اليوم كما تقولون.

لكن إعلانكم على الموقع يقول اليوم، قالت لويذاء.

ردّ دون أن يأبه لهذا اللبس في المواعيد: «إنه إعلان قديم، والمواعيد تتغير تبعًا لظروف البحر، والموظف المختص بتعبئة البيانات على الموقع قد يكون غافلًا عن تحديث التغير».

كان المطار الذي أخذ شكل خيمة قريبًا من الميناء، سبقتنا إليه جوقة سياح أجانب، يشكون المشكلة ذاتها. مشكلة ليس لها تفسير سوى الاجتهاد الخاطئ وتداخل الأمن مع السياحة، تداخلًا تم في مجال تفاعله المغالاة بإجراءات الأمن التقليدي بما يخل في ناتج السياحة كصناعة عصرية، لم يَتقن أصولها أهل البلاد بعد على الرغم من تفوقهم في مجالها على العرب باستثناء اللبنانيين.

نوّه أحمد، الذي فتح وشقيقه شركة سياحية للنقل والخدمات، بأنها لو أتقنت حسب المعايير الصحيحة، واستثمرت بعض الفرص

المتاحة للبرّ والبحر، ورمال الصحراء، وشمس الشتاء، وآثار الفراعنة والرومان، كما هو مطلوب، لما اشتكى مصري من عوز العيش.

ساعتان في المطار، حتى تثبيت التأشيرة نافذة، سهّل آخر خطواتها عقيد في الجوازات كان أبوه مهندسًا عمل في العراق. قَبِلها موظف الحجز حال الوصول إلى مكتبه قبل الوقت المحدد للإقفال، وأعدّ التذاكر نافذة من يوم الغد، نصح بضرورة الحضور إلى الميناء قبل ساعة من الإبحار.

وقفنا في الساعة العاشرة عند طابور الانتظار لصعود العبارة، أو قبلها بقليل، كنا أقل من خمسين عابرًا أغلبهم أجانب، اصطفوا في الدور وضع فيه الأول قدماه عند باب يقف على عتبتها شرطي، يفضي إلى أجهزة سونار للتدقيق في الأمتعة، ومن بعده شرطي ينظر في الجوازات. سرنا فرادى باتجاهها وهي ترسو بثبات، بصحبة حقائب نسحبها على أرضية شارع معبد منذ سنين. وقف على آخر سلم الصعود أحد أفراد الطاقم وقد وضع على أنفه وفمه كمامة بيضاء، وزع القادمين على طاقم طبي، يضع جميع أفراده كمامات، يقيس الواحد منهم حرارة الأجساد، فوباء الكورونا قد انتشر في الأرجاء، ومصر من جانبها أعلنت وجود إصابات.

بدت العبارة من الداخل مقسمة درجات، وأماكن جلوس عادية، وطاولات، ولافتة كُتبَ عليها «سوق حرة». بدت معداتها ومرافقها وسوقها الحرة، وكأنها قد توقفت عند العام 1988، سنة دخولها الخدمة. شرعت في الإبحار بوقتها التقريبي، ابتعدت عن الميناء سريعة في عومها، خطت على خط السير مسارًا امتد طويلًا في

الماء، صارت المدينة أصغر في نهايته البعيدة، وأثارت على جوانبها أمواجًا خفيفة تسهم وهواء البحر العليل، والشمس الناصعة في إنعاش الواقف على السطح. طيور النورس تقترب منها وتبتعد عنها بانتظار شيء ما، ولما لم تجده تتركها متجهة إلى البعيد، حتى اقترابها من ميناء الغردقة على الساحل الغربي للبحر الأحمر بعد ساعتين من الإبحار، حيث رست واجتاز ركابها جولة تفتيش أخيرة، قبل الوصول إلى بوابة أفضت إلى مدينة الغردقة التي تسعى لأن تكون مدينة سياحية، على ضفاف البحر الأحمر، مدينة تستحق الصفة لأنها واحدة من أجمل الواجهات السياحية في مصر. جمالها طبيعي، حيث المياه الزرقاء الصافية لبحرها الهادئ ورمال شواطئه الذهبية. تلمسنا فيها حال الوصول الى الفندق أجواء الراحة والاسترخاء، فالمدينة تعرف بملاذ للسياح الباحثين عن الهدوء والاستجمام، تمتد شواطئها مسافات طويلة، مزودة بأفضل المرافق السياحية من فنادق فاخرة ومنتجعات راقية تقدم خدمات عالمية المستوى، وتقدم أشعة شمس دافئة واستلقاء على الشاطئ مع الاستماع إلى خرير الماء الهامس. إنها ليست مجرد مدينة شاطئية، بل هي أيضًا مركز حيوي للأنشطة البحرية والرياضات المائية، بينها الغوص في أعماق البحر لاكتشاف عالم مليء بالألوان والأسماك والشعاب المرجانية الرائعة، محطات له تنتشر على طول الشاطئ توفر كل الحاجة من معدات وإرشادات لتجربة غوص لا تُنسى، وبالنسبة إلى الذين يفضلون البقاء على سطح الماء، ونحن منهم استأجرنا قاربًا بقاع زجاجية، أتاحت لنا

مشاهدة الحياة البحرية من دون الحاجة إلى الغوص.

في اليوم الذي تلى خصصناه إلى المتنزهات المائية، كانت من بين معالم المدينة التي تجذب الزوار من جميع الأعمار، خاصة مدينة الألعاب المائية «مكادي ووتر وورلد» كتب عنها تماشيًا مع صفات الكتاب العرب بالتهويل) واحدة من أكبر الحدائق المائية في الشرق الأوسط، قضينا فيها يومًا كان مخصصًا للشباب حيث المرح والإثارة بين الألعاب والمنزلقات المائية المتنوعة. تحولت الغردقة بعد غروب الشمس إلى واجهة أخرى للسياحة المفعمة بالحيوية والنشاط، حيث المطاعم والمقاهي التي تنتشر على طول الممشى السياحي، تقدم تجربة طعام فريدة، تتنوع بين الأطباق المحلية الشهية والمأكولات العالمية، فكان العشاء لهذه الليلة كشري، طبق مصري مشهور. وقبل التوجه إلى المطار من أجل العودة عصر اليوم الذي تلا، كان للسوق حصة، وسوق «دهار» العامر فرصة كانت لاستكشاف الثقافة المحلية وشراء هدايا تذكارية والاطلاع على المنتجات الحرفية، والمجوهرات، والتوابل، والتحف الفنية التي تعبر عن التراث المصري الأصيل، وعلى كرسي الطائرة المتجهة إلى لندن كتبت على واجهة الحاسوب اللوحي أن الغردقة مدينة رأيتها تزخر بكل ما يمكن أن يحلم به السائح من جمال طبيعي، وأنشطة ترفيهية، وتجارب ثقافية، وهي حسب ظني وجهة مثالية لكل من يبحث عن مزيج من المغامرة والاسترخاء في قلب مصر الحافل بالتاريخ والجمال.

* * *

أكسفورد، المدينة الجامعة

صروح العلم

هناك اتفاق بين الناس على أن صروح العلم في دنيانا الحاضرة كثيرة، بفضلها ينعم العالم بحياة أفضل، وتغيير مستمر نحو الأفضل، وهناك حقيقة أن سنتنا التقويمية في هذا الزمان تقدم للإنسان اكتشافات وإنجازات علمية تفوق ما كان يحصل لمئات الآلاف من السنين السابقة، يعود الفضل في هذا إلى الجامعات الرصينة، ومن بين الأهم والأكثر رصانة منها جامعة أكسفورد في بريطانيا، الغنية عن التعريف. أُسست هذه الجامعة الأولى في دراسة العلوم الصرفة مع الدراسات الكنسية التي كان العالم المسيحي غارقًا في دراستها طوال الألف الأولى من عمر المسيحية، أسستها الكنيسة الكاثوليكية في فترة قوتها وغناها، عندما كانت توزع صكوك الغفران لمن يدفع أكثر، كي يسقط من ذنوبه ما يكفي لدخوله النعيم الإلهي في الجنة.

قال مصطفى، الذي سيتخرج منها قريبًا في حوار عائلي:

«أن لهذه الجامعة قصة تتداولها بعض كتب التاريخ. يُعتقد أنها النسخة الثالثة عن أول جامعة في العالم أسسها العرب الفاتحون في المغرب، حين قدمت السيدة فاطمة الفهرية، ابنة التاجر المهاجر محمد بن عبد الله الفهري، فكرة التأسيس على شكل مسجد القرويين الذي يُعنى بالتعليم. تم تنفيذ الفكرة في مدينة فاس المغربية سنة 859م، وجرى تطويرها لتدريس علوم الدين وبعض العلوم الأخرى التي كانت تحتاجها الأمة في بناء دولتها العصرية»، وزاد في الايضاح: «أن صيت المسجد كصرح علمي قد ذاع في كل الأرجاء وتوسع بالتدريج ليصبح جامعة تستقبل الدارسين من أنحاء العالم. كان البابا سليفستر الثاني من بين أهم الوافدين إليها من أوروبا الغارقة في الظلام بداية الألفية الثانية (999 ـ 1003)، له يرجع الفضل في تأسيس جامعة بولونيا؛ أول جامعة في أوروبا، نسخة من تلك الجامعة العربية. وعندما عاد منها الدارسون الإنجليز إلى بلدهم، نقلوا التجربة ذاتها وأسسوا في مدينة أكسفورد بإنجلترا نسخة عن تلك الجامعة الإيطالية. بدأ التدريس فيها فعليًا سنة 1096، عدها المؤرخون النسخة الثانية عن جامعة القرويين العربية، وحسبوها الجامعة الأقدم في بريطانيا». ولما أتم مقدمته عنها جامعة مرموقة، اقترح زيارتها وعمل جولة في ربوعها ليوم كامل، جولة قال: «انها ستُعيد الحاضر إلى الماضي، تؤكد عظمة أهل العلم وفضلهم على البشرية»، فكانت الوجهة اليها مدينة تبعد عن لندن مسافة تقل عن المائة كيلومتر، والوصول إليها مضمون بعدة وسائل، كان القطار هو

الأسلم في مثل هذه الأيام الشتوية العاصفة. انطلق من محطة ملبورن وسط لندن في الوقت المحدد تمام الساعة العاشرة واثنتين وأربعين دقيقة، سار متهاديًا وسط بقايا رياح لعاصفة أسموها (يونيس) كانت قد اقتلعت أشجارًا ودحرجت سيارات. توقف خمس مرات في خمس محطات حتى بلغ وجهته الأخيرة أكسفورد في الوقت المحدد، الثانية عشرة وثماني دقائق، مكتوب عنها محطة بُنيت سنة 1845 وهي في الوقت الراهن مزدحمة، مثل غالبية المحطات القريبة من العاصمة لندن. ركاب قطاراتها القادمون والذاهبون يختلفون نسبيًا عن باقي الركاب، غالبيتهم شباب من الدارسين في هذه المدينة الجامعة، والعاملون في دوائرها والأقسام. بدت الأرصفة المحاذية لها، والساحة المجاورة منتظمة، تقف الباصات على ناحية منها، وفي الناحية الأخرى أخذت سيارات الأجرة مكانًا للوقوف.

في أول خطوة مشيناها بعد المحطة، بانت المدينة مختلفة، يتحير الزائر في تعريفها كمدينة إدارية أم جامعة أكاديمية. الكليات أو بتسمياتها التقليدية مدارس، حافظت على بنائها من الحجر المرصوص بعمارة جميلة منذ مئات السنين. توزعت على عموم المدينة، كلية هنا تجاورها أقسام داخلية هناك، وقريبًا منهما مركز أبحاث، ومتجر، ومقهى، وعلى الناصية مكتبة بودلي، تشير العلامات التعريفية إلى تأسيسها سنة 1602، ثاني أكبر مكتبة في المملكة المتحدة بعد المكتبة البريطانية، تحوي أكثر من ثمانية ملايين مادة، يتبعها العديد من المباني بعضها تحت

الأرض، ولها تسعة فروع تتوزع على المدينة. أوقفنا موظف في بابها طلب التوقيع على تعهد بالمحافظة عليها وعدم إشعال أي شيء، شرطًا لدخولها أول مرة. في مواجهتها متحف من بين ثمانية متاحف، يحتفظ الأول بأدوات طبية عُدت في وقتها ثورة في عالم الطب، وأصبحت مثل غيرها بعد التطور موادًا للتاريخ. وعلى مسافة منه كان هناك متحفٌ آخر احتفظ على حائطه بالسبورة التي شرح عليها عالم الفيزياء أينشتاين نظريته النسبية بخط اليد، وفي وسطه وضع صندوق زجاجي يحوي كاميرة لورانس العرب، العميل البريطاني خريج الجامعة ذاتها، الذي وثق بها أحداث مرافقته الملك فيصل الأول وجيشه الثائر على الأتراك. ساعتان من الطواف بين معالم هذا الصرح اقتضت الاستراحة وإعادة ترتيب الأوراق.

أكسفورد: بين ماضي العلم وحاضره

كانت الاستراحة قصيرة، وجبة غداء في مطعم قريب، «Turl Street Kitchen»، الذي أخذ موقعه في مبنى قديم كان في الأصل سكنًا لطلاب كلية أكستر 1785. عاد بنا الحديث على إحدى طاولاته عن الجامعة وتطوراتها وتاريخها. وخلال النقاش، أشار مصطفى إلى خلاف وقع بعد مائة عام من تأسيسها مع الأهالي إثر مقتل طالبين اتهما بالاغتصاب، ما تسبب في هروب بعض الأساتذة وتوجههم إلى مدينة كامبردج شمال شرق لندن ليؤسسوا جامعة جديدة هناك، هي جامعة كامبردج، نسخة عن جامعتهم

الأصل أكسفورد. بدأت هذه الجامعة كامبردج التدريس في سنة 1209 واستمرت إلى يومنا هذا منافسةً لجامعة أكسفورد على الصدارة في التحصيل العلمي ليس في بريطانيا وحسب، بل وعلى مستوى العالم. تفخر كلتا الجامعتين بتخريج الصفوة والمشهورين في السياسة، والطب، والمال على مرّ العصور، وأكمل الإشارة الى أنّ الجامعة تفتخر في إصداراتها بأنها خرجت أربعة من الذين تولوا العرش البريطاني، وسبعة وأربعين من الذين حصلوا على جوائز نوبل، وخمسة وعشرين رئيس وزراء بريطاني، بالإضافة إلى شخصيات مشهورة مثل عالم الاقتصاد آدم سميث، والكاتب تولكين، والشاعر إليوت، ورئيسة الوزراء الهندية أنديرا غاندي، والرئيس الأمريكي بيل كلينتون، وتوني بلير، ومارغريت تاتشر، وديفيد كاميرون، وتيريزا ماي، وبوريس جونسون. لقد استمر التجول وكانت جولة بعد الظهر مع مرشد أربعيني قدّم نفسه باسم روبرت. قاد مجموعتنا المكونة من شابة برتغالية تعمل محاضرة في جامعة لشبونة، ومعلم فرنسي، ونحن ثلاثة عراقيين، وأمريكي مع ابنته لينا ذات الستة عشر عامًا، تود الدراسة في هذه الجامعة مستقبلًا.

بدأ المرشد روبرت جولته من شارع بومونت، حيث المسرح الكبير لأكسفورد. بناء حجري فخم ينتصب وسط بنايات خدمية ومطاعم ومحال تجارية، بانتظام يجعله مع باقي الكليات الموزعة على شوارع المدينة سببًا في وسم أكسفورد بالمدينة الجامعة. بعد مغادرة واجهة المسرح، مرّ على المطبعة الفخمة ودار النشر،

وقال: «إن أكسفورد جامعة لا تمتلك حرمًا جامعيًا لأنّ كلياتها ومؤسساتها موزعة على طول المدينة وعرضها».

سألت البرتغالية عن عدد طلاب الجامعة، فأجاب روبرت: «أنها تضم حوالي ثلاثين ألف طالب، يلازمهم عشرون ألف شخص لأغراض الخدمة في مجالات التدريس والإدارة والبحث، يشكلون معاً ثلث سكان المدينة التي يعيش أهلها على هذه الجامعة وطلابها من جميع الدول والأقوام». مر بعد الانتهاء من الإجابة على المدرسة الثانوية (Eton College)، قال: «إنها تستقطب الشباب من الذكور فقط، بناءً على قبول مشروط باجتياز اختبارات لياقة وذكاء، وعيش في أقسام داخلية على وفق نظام قاسٍ يقترب من النظام العسكري، يؤهل المناسبين منهم للدراسة في إحدى كليات الجامعة التسع والثلاثين، التي تتمتع بشبه استقلال في إداراتها، وشروط قبول تتأسس على درجات التخرج، واختبارات عامة، ونسب ذكاء عالية، بالإضافة إلى مقابلة لتحديد الشخصية واللياقة». وعن كلف الدراسة فيها نوّه إلى أنها أعلى بكثير من كلف الدراسة الجامعية، إذ تبلغ ثمانية وأربعين ألف وخمسمائة جنيه إسترليني لكل طالب في السنة». وعندما سألته لينا عن ميزانية الجامعة، أجاب: «إنها جامعة حكومية، آخر ميزانية لها كانت خمسة مليارات جنيه، تؤمن من المنح الحكومية، والتبرعات الخاصة من الأشخاص والشركات، ومن التعاقدات لإنجاز الأبحاث والمشاريع، ونشر الكتب والدوريات».

استمر روبرت في التجول والشرح، وتوقف أمام كلية جميع

الأرواح (All Souls College)، قال: «إنها لا تقبل سوى ثمانية طلاب في السنة، تخصص لهم أكثر من عددهم من الأساتذة والمساعدين بهدف تخريج الصفوة من العلماء». من بعدها توقف ثانية أمام كلية سانت هيلدا التي لا تقبل سوى الإناث، وأشار إلى كليات أخرى ذات طابع ديني لا تقبل إلا الذكور.

انتهت الجولة قبل المغيب، وقبل تفّرق المجموعة عرفَ روبرت عن نفسه طالب دكتوراه في هذه الجامعة، يدرس العهد العباسي، لديه أسئلة عن العراق مهد تلك الخلافة، رافقنا بسببها إلى المحطة مشيًا، وفي الطريق سأل عن المدرسة المستنصرية والمرجانية والخان، فأجبته: «لم يعد القوم مهتمين بها حتى كثرت في حواشيها الرطوبة والأزبال»، عاود السؤال عن جامعة بغداد والمسجد وفاطمة الفهرية، أجبته: «لقد انتهى عصر الجامعة الأولى في بغداد، بعد تأسيس الجهلة أكثر من خمسين جامعة أهلية تنشر الجهل. ويوم ماتت فاطمة الفهرية، لم تلد الأمهات المسلمات مثلها فاطمة عصرية، ولم يظهر لدينا من الرجال عالم دين مثل البابا سليفستر الثاني ليقلب المعادلة، أمّا مساجدنا، فحمدًا لله صارت تفوق أعدادها أعداد المدارس، ومن كثرتها انقسمت لتلبي حاجتنا إلى الانقسام. يلقن قسمها الأول الشهادة قبل التفجير سعيًا للعودة إلى الماضي البعيد، ويعلم الثاني فنون التجهيل إيغالًا في العودة كذلك إلى الماضي البعيد». ختم أسئلته بسؤال محرج:

لماذا كل هذا وأمتكم العظيمة ودينكم الإسلام أصل التنوير؟

أخشى نهاية لكم ستُمهد إلى الانقراض؟ فكانت الإجابة: «لا تعليق».

لقاء على ظهر قارب

كان الطواف في جامعة أكسفورد مناسبة للمّ الشمل، إذ اجتمعت العائلة كاملة لأول مرة بعد سنوات انقطاع فرضها تبعثر المكان، وزيّدت كورونا الجائحة طول المسافة الزمنية بين لقاء ولقاء. وكان ذلك على طاولة غداء تغطي وسطها صينية دولمة بغدادية، وتتزاحم على أطرافها أسياخ الكباب مع أصناف أخرى. رجعت في الحديث مع أفراد العائلة إلى الماضي البعيد، إلى خزين ذكريات عن الريف، والقرية الجمجمة، والمدينة الحلة، وبساتين نخيل كانت تزيّن شواطئ نهرها الجاري ماءً زلالًا لمسافة تبدأ من الحامية العسكرية حتى حدود بابل الأثرية، وتمتد أبعد من ذلك بكثير في الجانب المقابل، واحة خضراء تُشعر الناظر إليها من على التل القائم فوقه مرقد الإمام عمران وكأنه ينظر إلى لوحة رسمها فنان عظيم شأنه كشأن بيكاسو، أو سجادة حيكت من خيوط حرير أخضر، وكأن العثة البشرية قد التهمت تلك السجادة الجميلة، لم تبقِ منها إلا بعض خيوط متهرئة غيّر الإهمال ألوانها إلى لون ترابي أصفر، واقتلع التجاوز الملعون نخيل بساتينها العامرة لمئات السنين، فبان النهر وسطها مخلوق عار، تساقط شعر رأسه، ونُزعت عن جسده الأوصال، وبانت القرية عجوزًا يفتك القيظ بها وانقطاع الكهرباء.

قالت لويذاء في كلام صريح، خال من اللف والدوران: «أنتم الآباء تتمسكون بالماضي، تعيشونه وكأنه الحاضر، تعودون من خلاله إلى ريف لم يعد في الواقع ريفًا. تمسككم هذا في الأصل خطأ بنيوي ناجم عن تقادم الزمن الحتمي، وهجر المكان، حتى أضحى وهمًا قد يصيبكم بالدوار الزمني، ويتسبب باكتئاب المزاج، وبدلًا من البقاء في طياته، واجترار الأفكار، ونبش الخيالات وصور تشوهت، سأريكم هذه المرة بعضًا من الريف الإنجليزي، وقرية مائية أعيش وسطها، ويعيش مثلي آخرون كثر في هذه البلاد. عوائل أخذت من قوارب مختلفة الأحجام بيوتًا لها، رست بهدوء وسط البحيرة، كفرشام (Caversham) وعلى أطرافها».

توقفت عن الكلام لحظة وأضافت: «لقد وجدت في العيش بين سكانها القادمين من أقاصي الأرض، ومختلف الأقوام والأديان، إلفةً، ووقع حياة، وتكافل، تفوق قيمها ما موجود عند البعض من أهل اليابسة، وهم يشكون العزلة، وتمادي الذهاب في دروب الخصوصية حد الافتراق»، فصار الاتفاق حتمية الطواف في أرجاء تلك القرية، تقلّ السيارة بعضًا، بينما يأخذ البعض الآخر القطار من محطة بادينغتون (Paddington) وسط لندن، يصلون معًا في توقيت مقارب إلى المحطة الرئيسية لمدينة ردينگ (Reading) تلك المدينة القائمة في الغرب، ومنها إلى قريتها الراقدة فوق الماء.

كانت محطة القطار اللندنية بادنغتن مزدحمة قبل الظهر، جماعات تمشي باتجاه رصيف قطار متجه صوب الشمال، وأخرى

تغادر قطارًا قادمًا من جهة الغرب، وثالثة تجري سريعًا باتجاه القطار الذاهب إلى المطار، ومثلهم واقفون أمام لوحات العرض لمتابعة قطاراتهم حسب التوقيت ورقم الرصيف، وبعضهم يلملمون حاجياتهم، يُقبّلون بعضهم بعضًا مودعين، أو مستقبلين، وآخرين يفترشون ركنًا من الأرض المكسوة بالمرمر، يأخذون قسطًا من الراحة قبل الاتكال.

حان وقت المغادرة، التقت عقارب الساعة عند الحادية عشرة، تحرك القطار بطيئًا في بداية المشوار، واعتذر سائقه عن تأخير سيحصل لوجود إشارات حمراء تجبره على البطء والوقوف في بعض الأحيان، لكنه حالما خرج من مدينة لندن عاد سريعًا في عبوره حقولًا ومناطق تغطيها أشجار، وجسور على أنهر وسواقٍ. وصل في نهاية المطاف بعد خمس دقائق من الوقت المحدد، فعاود سائقه الاعتذار.

كانت لويذاء في الانتظار جوار المحطة الرئيسة للقطارات، صعدنا منها إلى السيارة، فتحركت صوب القرية حسب الاتفاق. سارت وسط مدينة ردينگ غير المزدحمة، دقائق عبرت خلالها جسرًا حديديًا، مرت بجوار جامعة من اثنتين تتنافسان على جودة التعليم، تعززان مركز هذه المدينة التجاري المعروف منذ القرون الوسطى. أخذت من بعدها طريق ريفي وسط حقول قمح اقترب حصادها، ومتنزهات تنتشر على طولها غزلان. خرجت من ذاك الطريق لتأخذ طريق آخر، أوصلنا إلى بحيرة في واجهتها موقف سيارات، وبناية صغيرة للخدمات، وسياج حديدي مشبك وسطه

باب يفتح بأرقام، يفضي إلى طريق خشبي فوق الماء، ومرسى طويل بفروع متعددة على الجانبين.

لامست أطراف أناملها السمراء أربعة أرقام من لوحة المفاتيح الجانبية، انفتح إثرها الباب الحديدي، الوحيد لهذه القرية العائمة. تقدمتنا واثقة إلى ممر خشبي فيه انحدار تدريجي من اليابسة إلى آخر يطفو على الماء، يغطي النظر منه غالب البحيرة وأجزاء من أطرافها الثلاثة. توقفتُ قليلًا للتمعن بتلك القوارب الراسية متعددة الأشكال، وبالطبيعة المحيطة بها، وما تخفيه من أسرار، عجز الإنسان عن كشف بعض خباياها، وعجز كذلك في صياغة التعبير عن بعض معالم جمالها.

جمال هذه البحيرة في عذوبة مياهها، وتناسق الألوان، وفي نسمات هواء تمر منعشة طوال الصيف. أما أسرارها فتكمن، حسب الرأي السائد بين سكانها، في استحالة تعب العين، وإن أطالت النظر إلى مياهها داكنة الخضرة، وفي إصرار الأوز على مشاركة السكان عيشهم وسط الماء، وفي تململ قواربها طوال الليل اهتزازًا غريبًا يشعر النائم من حيث لا يعلم وكأنه باقٍ في أمان الرحم المقدس لأمه الحنون.

سرنا على الممر الخشبي الطافي خطوات أخرى، ومن بعدها مائة أخرى، حتى بان قاربها المقصود (Emma) راسيًا بين قوارب تحيط به، تقابله أخرى مرصوفة على الشاكلة ذاتها، تشبه هيئته، أو تصغره في الحجم، قليلة جداً تلك التي تكبره، فطوله، أو النزال بلغة الدلالين البغداديين، ثمانية عشر مترًا والجبهة ثلاثة أمتار

ونصف جعلاه قاربًا قياسيًا لعائلة صغيرة. غالبية العوائل هنا صغيرة، قوامها طفل واحد أو بلا أطفال، كأنّ من يعيش وسط الماء له فلسفة خاصة فيما يتعلق بعدم الانجاب. قالت عند بلوغ القارب: «عليكم توخي الحذر في الدخول، فتصميم الباب يقتضي الانحناء قليلاً». ثلاثة سلالم كانت كافية للوصول إلى قاع شماله مطبخ أنيق، تجاوره صالة جلوس، ومنها إلى ممر يفضي إلى غرفتي نوم وحمام، ومقدمة له صممت لمن يهوى الجلوس في الهواء الطلق. على يساره قارب بالحجم ذاته يسكنه عازب إنجليزي يتجاوز الثمانين، وعلى اليمين سيدة إسبانية خمسينية أصرت على البقاء في قاربها بعد وفاة زوجها البرتغالي منذ أشهر مضت.

انتهت فترة الدهشة والتعرف على القارب البيت في خمس دقائق. بدأ بعد انتهائها السعي الحثيث لإشباع الشباب حاجتهم للاكتشاف، توزعوا بين أمكنته المتعددة. وقف ألوند على السطح، متأملًا ذاك الشريان الذي يغذي البحيرة بالماء، وقطيع الأوز الذي حط على سطحها تواً. وتوجه ألمير إلى المقدمة، وقف على حافتها كمن يتخيل حاله قبطانًا في أعالي البحار. هو هكذا بطبعه، يعيش نصف الوقت المتاح في خيالات يكتب قسمًا منها على ورق يصحبه في الترحال. بينما جلس الباقون حول طاولة مستطيلة وضعت عليها مقبلات تصبيرة حتى حلول الغداء. كانت المشكلة الأساسية في الغداء عدد الملاعق والشوك، إذ لا يكفي المتيسر منها لعشرة أنفار. فكان الحل توافقيًا باكتفاء الواحد

بملعقة أو شوكة. وحال اكتمال المائدة برزت أطباق من الرز والمشويات بأنواع حرّكت جين الكرم العراقي، دفعها لتناول صحنًا ملأته من كل الأصناف، وناولته جورج جارها الثمانيني، بعد تيقنها من دخول روائح مطبخها قاربه الملاصق دونما استئذان. وعلى المائدة أيضًا اقترحت القيام بجولة نهرية نزولًا عند رغبة شباب الفرع الألماني من العائلة.

تحرك القارب بهدوء بعد فك الاشتباك مع حبال تربطه بمقابض المرسى، واتجه إلى الأمام من دون الحاجة إلى مناورة في الخروج. انساب على الماء بسرعة تُحسب قليلة، هكذا هي السرع المحددة بالنسبة إلى القوارب المصممة للسكن. دار نصف دورة وسط البحيرة، واتجه بعدها إلى نهر التيمِز (Thames)، ذلك النهر الذي يعده السكان خالدًا يغذي البحيرة ومثيلاتها مياهً عذبة طوال الصيف والشتاء. يكبرون فيه الامتداد ثلاثمائة وست وأربعون كيلومترًا، ومرورًا في مدينتي ردينگ ولندن، ومصب على بحر الشمال. دخل إليه القارب واثقًا من قدرته، أبطأ السرعة فبانت على اليمين أشجار الصفصاف تتدلى أغصانها في الماء كما كانت مثيلاتها تتدلى على مياه شط الحلة أيام زمان، وبيوت متفرقة هي الأجمل في الإطلالة والتصميم. وعلى الشمال متنزهات وسوح لعب للشباب، وممر لهواة الجري، ومحل للتسوق أعدّ خصيصًا لأهل القوارب والبيوت المتشاطئة، ومراسٍ لقوارب أخرى فضل أصحابها أراضٍ لهم على النهر يمتلكونها مراسٍ تخصهم، بينما يدفع سكان البحيرة أجرة رسو مع الخدمات تصل إلى ما يقارب

تسعمائة دولار في الشهر.

بلغ القارب ساعته الأولى إبحارًا، وصل سدًا قائمًا على المجرى، فأدار وجهته عائدًا. وفي طريق العودة قدمت لويذاء إيجازًا عن النهر في هذه المنطقة بالذات. قالت: «تجري في مياهه أنشطة رياضية، وسباقات للقوارب والتجديف، واحتفالات، عرف بها منذ مئات السنين، جعلته نهرًا خالدًا بحق، وجعلت المبحرين وسطه لا يملّون الإبحار»، وحال اكتمال الإيجاز، وصل القارب مرساه بمناورة رجوع تطلبت مهارة وشد انتباه، قال أشرف «نختمها حفلًا بسيطًا للشاي.» بدأت بعد ختامه تحضيرات العودة فريقين، وقفا خارج الباب، رفع الجميع أياديهم في دعاوى اللقاء بموعد تمنّوا أن لا يكون بعيدًا.

* * *

مرابع نوبل

جولة في مدينة أوربرو السويدية

بانت تباشير صيف 2022 على أرض السويد واضحة، صار الهواء منعشًا، مغريًا لتفقّد الذكريات وتبادل الزيارات. زادت الخضرة عن حدود ظلالها التقليدية، وتفتحت أزهار منتصف الصيف (Midsommarblomster) بكثرة، حتى راح الشباب يزيحون عن أجسادهم ثقل ملابس الشتاء الدكناء، ليعطوا لأنفسهم والمارة نفحة من البهجة والمسرّة. كبار السن من السائرين والجالسين على الأرائك، ردوا الجميل بابتسامة تشجيع، وعودة بالذكرى لأيام ساروا بها على الطريق ذاته، حين كانوا يتمتعون بأشعة شمس خجلة، تظهر من بين الغيوم المسرعة. خلعوا نصف ملابسهم مستبشرين بصيف ندي، لم يعترض أحد منهم وإن خانه البصر على ابنة الثامنة عشر في استقبالها الشمس بخصر أخرجته من مكمن الشتاء، وذراع شذّت عن باقي الجسد، ولا عن زميلها حافي القدمين مفتول العضل. هم جميعًا يؤمنون بالحرية، يقدِّسونها،

ويستثمرون الصيف كطاقة مرح تكفيهم لمداد الشتاء.

كان اليوم الذي حدّده فؤاد لهذه الزيارة، قد بدأ بجولة في ربوع أوريبرو (Orebro)، المدينة السويدية القابعة وسط المملكة، المتميّزة بقلعة بنيت في القرن الثاني عشر الميلادي، واستمرت شامخة كالنخلة. مرّ بالقرب منها شخص بملامح عربية، وإلى جواره أفريقي بشعره المجعد، وصومالية تسير بجلبابها الفضفاض، وسطهم شابة غطى القسم العلوي من سيقانها سروال قصير (شورت)، وغطى نصف جسدها الأعلى قميص مخملي، وأخرى ارتدت ملابس العمل الفسفورية، وخوذة تتدلى من أسفلها خصل شعر أزرق، كأنها تمردت على إجراءات المكوث تحت الخوذة، كانت مستعجلة لإنجاز مهمة. سبقها شيخ يحث الخطى إلى الجامع القريب التزامًا بصلاة الظهر. علّق فؤاد، المنتمي إلى حضارتها منذ عشر سنين مضت قائلًا: «هكذا هي المدينة بتركيبتها القائمة، ستة عشر بالمائة من سكانها ذوي أصول أجنبية»، وعن إحصاءات البلدية للسكان قال: «لقد أشّرت النتائج إلى رجوع سكّان هذه المدينة لأصول تعود إلى مائة وخمسين جنسية، يعبدون أكثر من إله، وبعضهم لا يعبد. ومع هذا، لا يختلفون في النقاش عن موضوع العبادة، بل يتجنبونه احترامًا لخصوصية المعتقد. نجح بعضهم في سياقات التطبّع على حياة السويد الاجتماعية وصار لا يناقش في المعتقد، وبعضهم لم ينجح. ومن جانبها، لا تعوِّل الحكومة هنا على الآباء الذين لم ينجحوا، ولا على من يغرد منهم خارج السرب الناجح. هدفها الأبناء والأحفاد، أمل

المستقبل، بوجودهم ستعوض النقص الحاصل في أعداد السكان، وقد حققت نجاحات ملموسة في الاستثمار بعقولهم، حتى صار العديد منهم كفاءات يُشار إليها بالبنان».

متحف نوبل

في نهاية الجولة، اقترحت عُلا الابنة الصغرى لفؤاد، إثر تسجيلها نجاحًا بالمنافسة الهندسية، وبلوغ التقدير الكافي لأخذ الوظيفة المعلن عنها، غداءً على حسابها في مطعم صيني يعرض وجباته في أوانٍ تجاور الممر. يستثير البخار الصاعد منها وروائح الشواء لعاب الماشي، ويسهل الاختيار بشكل أدق. في طريق العودة، نظر أسعد في هاتفه النقّال، إلى ملف الطقس، وأكد وجود الشمس نافذة لما بعد ظهر الغد. اقترح استثمارها في جولة بمدينة كارلس كوغا (KARLSKOGA)، لزيارة متحف نوبل، صاحب الجائزة الأشهر في العالم. لم يدع الوقت يمر سدىً، حضر منذ الصباح الباكر إلى شقة فؤاد، تناول معنا الفطور على طاولة عمادها، صحن باقلاء على الطريقة البابلية، مدعوم برأس بصل سويدي باهت. سار من بعدها بسيارته التويوتا في طريق بممرين عامرين لأربعين كيلومترًا، لم يتجاوز السرعة القصوى مائة كيلومتر في الساعة. تخلل الطريق غابات، ومزارع قمح، وبحيرات تسكنها طيور البط الأبيض، تحيط بها أكواخ من الخشب يؤمها الأصحاب صيفًا. بانت بعد قليل منها علامات لمدخل المدينة المقصودة، وإشارات إلى المتحف، طريق خاص،

وسكة قطار، ومحطة، وسط مزرعة اختارها نوبل مكانًا لتجربة اكتشافاته، ومصنعًا لإنتاجه الحربي، صارت من بعد قرية جوار المدينة، يتوسطها نصب للرجل نوبل، وبيت يزيد عمره عن المائة والخمسين سنة على الطراز القديم حافظ على وضعه، ومعامل متفرقة، تجاورها بيوت للعمال، وأبنية للمختبرات حافظت هي الأخرى على حالها، وقسم تم تحويره لاستيعاب المعروضات:

مفجرٌ في زاوية وكبسولة في أخرى، ومدفع وسطهما ساهم في حرب القرم، وفي الجوار محرك تم تطويره، ورفاس باخرة توربيني. في غرف أخرى بقيت ملابس الرجل وقبعاته معلقة في أماكنها الأصلية، وكذلك العربة التي كان يتنقل بها، حافظت عليها البلدية وكأنها صُنعت في الأمس، وقصاصات ورق وضعت على رفوف مكتبة تشرح بعض اكتشافاته، وأشعار كان يكتبها ساعات الهروب من سلطان التفكير بمآل نظرياته. جميعها، وكل زاوية منها، وترعة مياه وسطها، وأشجار ما زالت شاهدة تقدم هذا الإنسان العالِم والمكتشف نوبل على أنه وُلد في العاصمة السويدية ستوكهولم سنة 1833، عاش حياة تنقل غير مستقرة: طفولة قضاها مع العائلة في مدينة (سانت بطرسبرغ) وكأنه روسي، وجامعة درس فيها الكيمياء وكأنه أمريكي، وعمر عاش غالبيته وكأنه فرنسي، ومات بالذبحة الصدرية في الجزيرة التي اشتراها مستقرًا لآخر العمر إيطالياً. لم يكن فقيراً ولا متسكعاً، فوالده صناعي، والأخوين الأكبر يعينان في أعمال الصناعة. ذكي، عصبي، يتكلم خمس لغات عالمية غير لغته السويدية. أول اختراعاته كان مقياس غاز، وجهاز

تفجير يوم كان البارود أعظم اختراعات العصر، وأبدع بعد ذلك في اختراع الديناميت، لتتوالى من بعده الاختراعات في هذا المجال، ومجال الأسلحة حتى سجّل قبل مماته 350 براءة اختراع دولية. بنى لتحقيقها تسعين مصنعًا للأسلحة والميكانيك، واستثمر أموالًا وقدرات التفجير في النفط. استثمارات زادت من عدم استقراره، فحاجة المتابعة والإشراف تقتضي السفر بين أمريكا ودول أوروبا التي تتوزع شركاته بين بلدانها وبلدان أخرى.

جوائز نوبل

كانت المحطة الأهم في هذه الجولة مكتبة يجلس على كرسي في رواقها رجل مسن يرتدي ملابس شعبية قديمة من تلك الحقبة الزمنية. أشار إلى كتبٍ ألفها نوبل، وأخرى كتبت عنه وآراء لأهل السيرة، اتفقوا على وصفه مكتئبًا، واتفقوا على أن حبه الأول كان فتاة روسية، رفضته عند تقدمه لزواجها، فوطّدَ علاقته بسكرتيرته الكونتيسة النمساوية بيرثا، إلا أنها تركته هي الأخرى وعادت لتتزوج عشيقها. فتعرّف على هيس ثالثة من فينا، استمرت معه إلى يوم وفاته سنة 1896، واتفقوا أيضًا أنه وقبل موته مات شقيقه الأكبر، فتوهمت صحيفة فرنسية بالاسم حامل اللقب ذاته نوبل، فاستعجلت تقديم نعي له، كتبت فيه «تاجر الموت ميت»، وأضافت «نوبل الذي أصبح غنيًا من خلال إيجاد طرق لقتل الناس أسرع من أي وقت مضى، توفي بالأمس». شعر بقراءة النعي بخيبة أمل قوية، وارتياب بشأن الذكرى التي

ستبقى بعد موته وسما للإسم قاتلًا وهو العالم، فأوصى بغالبية ثروته دون معرفة من العائلة، لمؤسسة تمنح باسمه خمس جوائز سنوية عالمية (العلوم الطبيعية، الكيمياء، الطب، الأدب، وأخرى للأشخاص والمشاريع التي تخدم السلام). أرادها نوعًا من التكفير عن تلك الحياة التي قضاها باختراعات تمحورت حول التفجير، والمتفجرات، والأسلحة التي فتكت عقودًا بالبشرية. وقد حقّق مرامه، وأبقيت الذكرى متلازمة معانيها مع جوائز العلم والأدب والسلام.

توقف أسعد عن الشرح والكلام عندما غيرت الشمس رأيها في الاستمرار بالظهور، ولاذت بالفرار خلف غيوم هاجمت المدينة والمنطقة. وبدلًا من الاستمرار، اقترح ختام الجولة غداء في مطعم السليمانية، المشهور في هذه المدينة والمنطقة. يديره شاب كوردي برع وأبناء قومه في إدارة المطاعم الشرقية بنكهة الكباب العراقي، بل وتفوقوا على بعض أقرانهم من أهل العراق، وتقدموا خطوات لمنافسة السوريين الذين تمكنوا من المهنة حال دخولهم أوروبا في السنوات الأخيرة.

لم ينته اليوم بعد، ويوم السويد الصيفي طويل، تغيب فيه الشمس متأخرة. جلب فؤاد فراشًا من الإسفنج مغطى بقماش وردي، ولفائف تشبع ولعه في التدخين لساعتين، وجلب أبو سلام كرسيًا يُطوى وعلبة سجائر لا تفارقه، وضع الكرسي في مكانه المعهود، وقال: «فرصة التمتع بهواء ما قبل المغيب لا تُعوّض في هذا الحي (ڤيڤالا) الراقد على أطراف مدينة أوريبرو». جلسنا

الثلاثة على ناصية الطريق عند بقعة أرض يغطيها العشب الأخضر، مكان اعتادوا الجلوس عنده أيام الصيف. بدأ الحديث عن ماضٍ مدفون وحروب عبثية، وذاك المجهول من السياسة العراقية. أخذ أبو سلام نفسًا عميقًا من سيجارته الثالثة، أعادت ذاكرته الطوعية إلى أيام النضال كفاحًا مسلحًا، وبداية الحياة موظفًا في متصرفية بغداد، وأيام الديوانية مدينته العريقة، وبعض من إرهاصات الشباب. كان الحديث طويلًا، اقترح اكماله في الشقة التي يسكنها وحده، على مائدة عشاء خفيف، امتد سهرًا توافقيًا إلى ما بعد الساعة الحادية عشرة، حيث المغيب قد حل حسب التوقيت المحلي لمملكة السويد.

* * *

عرس عراقي أمازيغي

أغادير: حلم مغربي

استبشرت أم مؤيد رغبة ولدها البكر إنهاء عزوبيته طويلة الأمد بزواجه من زميلته المغربية. بدأت إثر ذلك بتوجيه الدعوات لحضور الحفل في أغادير، مدينة العروس، لمن يستطيع الوصول من أقربائها والأصدقاء. وبدأت القصة تلبية لدعوتها، صديقة قريبة إلى العائلة، والشروع بالرحلة من مطار لوتن (Luton)، واحد من مطارات لندن الدولية، أقلعت منه الطائرة باتجاه الجنوب، وما إن عبرت الجزء الأخير من المحيط الأطلسي، حتى أعلن الطيار لزوم ربط الأحزمة والعودة إلى المقاعد تمهيدًا للهبوط. أدرت مع الجالسين جنب النوافذ وجهي صوب الأرض، متلهفًا رؤية المناظر من ارتفاعٍ شاهقٍ بدأ يقل تدريجيًا، ثم أعادتها باتجاه الفضاء. بانت الغيوم التي غطت أوروبا وأجزاء من المحيط كثيفة قد تبعثرت، وتباعدت كتلها ناصعة البياض كي لا تمطر. وبانت سطوح الأرض مختلفة، أقرب إلى الجرداء، وكأنّ الرب قسّمها

حصصًا خضراء ماطرة هناك، وجرداء عاقرة هنا لحكمة ما، وبانت كذلك وديانها ومجرى السيول التي تركت آثارها واضحة بلا ماء، وأشجار متفرقة على القمم وبين السفوح. قرى متباعدة على حواف الصحراء ترعى فيها الإبل والأغنام. اجتازتها الطائرة طوال انخفاضها أكثر فأكثر، حتى هبوطها على مدرج المطار، قبل ثمان دقائق من الوقت المحدد، منهية أربع ساعات طيران هادئ. ظهر المطار بحلته والخدمات والمكاتب، كأنه محلي بسيط. وجدتُ في ربوعه ما لا يسر السياح ولا يعجبهم ووجدت التدقيق في النوايا يفوق الاستحقاق.

سألني ضابط الجوازات بلغة فرنسية عن أسباب الزيارة، وأدرك من تأخر الإجابة صعوبة الفهم، فتحول إلى العربية بلهجة مغاربية لا تقل صعوبة. لكن الإجابة باللغة الفصحى حلت قدرًا من الإشكال، وشجعته على الاستمرار في توجيه أسئلة ليست ذات معنى في مطار لمدينة تسعى الدولة المغربية جعلها سياحية، بغية اللحاق بالركب العالمي في صناعة تَفُوق مواردها موارد النفط الآيل إلى النضوب.

لاحظ ردة فعلي لأسئلته غير المترابطة، خليطًا من الدهشة والابتسامة الفاترة فأصرَّ على معرفة السبب الكامن وراء الزيارة، وضع الختم جانبًا، وبدى جادًا في التعرف على السبب. ولتأكيد النوايا الطيبة، قال المغاربة يحبون أهل العراق. فأجبته: «وكذلك أهل العراق يبادلون المغاربة ذاك الحب والاحترام». ولمزيد من الإيغال بالدهشة حرفت الموضوع برمته قائلًا: «إن هكذا أسئلة

تذكّر بأسئلة أولئك الواقفين في السيطرات العسكرية بين المدن العراقية، عندما يبدؤون توجيه ما لا ينفع منها في تحديد النوايا والغايات، إبان تأزم الموقف الأمني واشتداد الزحام». أدرك بنباهته الأمنية معنى المقارنة، أعاد الابتسامة على وجهه الأسمر بقدر قليل من التصنع، ورجا المزيد من الايضاح فقلت: «إن جل الأسئلة هناك تتمحور حول سؤال واحد: من أين أتيت وإلى أين تروم الذهاب، وأسئلتكم هنا تدور حول الغاية من الزيارة». ضحك حتى بانت ضروس أسنانه التي غيّرَ الدخان لون بياضها. مسك الختم، أسقطه على الجواز بحدة، واستمر في عمله دون أن يسأل الواقفين في الدور من باقي المجموعة عن الأسباب، وهم في الغالب عراقيين.

جالت السيارتان اللتان وضعهما العريس للنقل من المطار إلى مطعم قريب من الساحل، حدده مكانًا للترحيب وتناول العشاء: صحن من الأسماك البحرية التي تشتهر بها المدينة، أعقبها بعد الانتهاء جولة في بعض شوارعها. قال: «هي مدينة ليلية، لا ينام سكانها من المغاربة والأجانب، وقد امتلأت مطاعمها ومقاهيها بالرواد بعد انتصاف الليل، فأجواؤها المعتدلة، ونسمات الهواء الباردة المنعشة من جهة المحيط بين الحين والآخر تثير البهجة في النفوس» واستمر في القول: «إن لهذه المدينة مستقبلًا تريده الدولة أن يكون سياحيًا، ومقوماتها من بحر نظيف، وساحل ذو رمال ناعمة، وشمس معتدلة، وأجواء انفتاح نسبي عند السكان، وإن كانت موجودة، لكن بعض التقييدات وأساليب التعامل

والاستعداد النفسي غير الناضج أبقاها مدينة تعيش على حافة السياحة. قلت من ملاحظات عابرة بدأت في الخطوة الأولى على أرض المطار، وأخرى أضيفت خلال التنقل بالسيارة إلى هذا المطعم، وآراء بعض الزوار وتعليقاتهم تم الاطلاع عليها قبل المجيء: «إن الواقع الفعلي الظاهر للعيان، وبطء الاستجابة في كل شيء، وافتقار العقل الشعبي إلى المرونة والحس السياحي، أبطأ سرعة تقدم هذه المدينة في عالم السياحة، إذ أن البحر لم يُستغل كما ينبغي، وفقراء يستجدون المارة لم يكتفوا، وانقطاع الماء أحيانًا، واستعداد البعض للاستغلال، وبعض مقاولي البنية التحتية تركوا حفرًا ومعدات في أماكنها، جوار شوارع أعادوا تأهيلها، وأرصفة تعرجت بعض حافاتها، تُذكّرُ القادم إليها، والماشي على أسطحها بتلك الأرصفة المغدورة لشوارع بغداد يوم داسها الجهلة. تجعل تصنيفها مدينة سياحية مسألة ليست سهلة، تحتاج إلى الجهد والوقت الطويل، مع الأخذ في الاعتبار أن العرب في مدنهم، باستثناء اللبنانيين قبل التخريب، لم ينجحوا حتى الآن في إقامة مدن سياحية ترقى إلى المقارنة بمدن أخرى مشابهة في الأرجاء».

أغادير: بنت المحيط

لقد أخذت مدينة أغادير من المحيط الأطلسي مرسىً لها، قديمة تعاقبت عليها الأجيال سكنًا فوق يابستها، أقوام ومن بعدها أقوام بينهم الأمازيغ. استوطنوها، ومدن أخرى في الشمال الأفريقي قبل ظهور الأديان الثلاثة، صار بعضهم يهودًا، ومن بعد الفتوحات

العربية أضحى الغالب مسلمين. ويوم عبر طارق بن زياد الجانب الثاني من البحر، عبروا معه جنودًا من خيرة المقاتلين، هم قوم ليسوا عربًا، وإن امتزجت دماؤهم مع دماء العرب قتالًا عن الإسلام، وزاد امتزاجها صلة بالتزاوج مع أبنائهم والبنات. هؤلاء من أنشأوا هذه المدينة أغادير بمحاذاة المحيط، وعاشوا فيها، وشكلوا نسبة كبيرة من سكانها الحاليين، يتكلمون الأمازيغية، لغة قديمة، والعربية باللهجة المغربية. لهم بعض عاداتهم واعتزازهم بأصول تمتد في أعماق التاريخ آلاف السنين. مخالطتهم العرب والأوروبيين، أنتجت بيئة اجتماعية منفتحة على الأغراب، وإن كان أهلها في بعض المعتقدات محافظون، ينتشر الحجاب بين غالبية نسائهم، وكذلك السفور من دون تناقض في معاني السلوك. جوامعها مميزة بمنائرها مربعة الأضلاع، ونوادٍ ليلية تتناثر وسطها وكازينوهات. مدينة غابت من بين صفوفها الطبقة الوسطى، ولم تغب السيارات من صنع السبعينات، وكذلك العربات التي تجرها أحصنة. ترك وجودها وسواد الفقر علامات شاهدة على مصاعب العيش، وكثافة السكن في المناطق الشعبية، وأزقة حافظت على سطوحها ترابية حتى هذه الألفية الثالثة من الزمان. ومع هذا وكل ضغوط الفقر والحياة، بقيَّ الأهل على طيبتهم، قليلي الشكوى، حتى ترى في التجول بائعًا لا يلح كثيرًا لإيقاع السائل في شراك الشراء، وشحاذًا يترك الماشي حال الامتناع. وترى في وسط المدينة سوق الأحد عامرًا، معلم تسوّق يفتخر الأهل بعدّه الأكبر في أفريقيا. أفقي يمتد على مساحة واسعة ذات

عشر أبواب، نشأ من بسطيات تعرض احتياجات البائع والشاري، القديم منها والجديد، تطور ونمى حتى بات سوقًا، مسقفًا بمحال تعرض الخضروات، والفواكه، والعطارة، والأثاث، وزيوت الطبخ، والتجميل، وقفاطين مطرزة يدويًا تعيد الشاري إلى حواف التاريخ مئات السنين، ومطاعم شعبية، قدمَ الأول منها فطورًا مده على طاولة خشبية أومليط طماطيشا (أومليت) والبريوات (الفطائر) ختمها بالسفة (شعرية باللوز والسكر).

محالها الشعبية شوارعها ممتلئة بالبسطيات، مكتظة، بعض بيوتها مغلقة الجدران حدًا يجد الهواء في التسلل إلى غرفها مصاعب شاقة. جوارها شوارع من نوع خاص هي الأرقى، بنيت على نواصيها قصور، ومجمعات سكنية، تتوفر فيها كل المستلزمات، يصف أهل أغادير مدينتهم بالمنكوبة، إذ ضربها الزلزال أول مرة سنة 1731، دمر جزءًا كبيرًا منها وأمات الكثير، وعاود ضربها ثانية بقسوة وسبق إصرار في 1960، دمر تسعين بالمائة من أبنيتها الرابضة على السفح، وأتمت الدولة هدم العشرة الباقية لتفادي تساقطها المحتوم. فعدت المدينة القديمة زائلة تمامًا، لكن بنائها قد أعيد في السهل الكائن بين البحر والجبل، وأبقيت أطلال القديمة منتزهًا مدرجًا لخليط من الأشجار والنخيل، احترامًا لأرواح آلاف الضحايا الذين بقيت جثامينهم مدفونة تحت الأنقاض، يمر من فوقه قطار معلق (تلفريك)، تنقل عرباته المثبتة فوق سلك معدني الراغبين في التمتع بالنظر من الأعلى، والساعين إلى التبرك في زيارة سريعة لضريح الولي الصالح سيدي بو قنديل.

توقفت العربة ذات اللون الأزرق قريبًا من قبة الضريح البيضاء، جوار ساحة مستوية استقر على وسطها والجانبين باعة لبعض الصناعات اليدوية، والمنتجات الشعبية، وأصحاب جِمال، وبعض خيول لإركاب الهواة. قال العم أنس، في سياق الترويج إلى بضاعته من الحلى المعدنية: «أن جده الرابع كان بحارًا عراقيًا من البصرة استوطن المدينة، تزوج منها، ومات فيها معروفًا بتقواه». وعن الضريح قال: «لقد هدمه الزلزال، وأعادت الدولة بناءه كما هو، إكرامًا له وليًا، ينقل عن زمنه الرواة كثرة السهر على حماية البحارة وهم يسترشدون بأضواء قناديله المضاءة ليلًا، وينقلون عن دوره المشهود في الجهاد ضد الاستعمار البرتغالي إبان حكمه أغادير». من موقعه بانت المدينة، وأجزاء من الساحل، وميناء الصيد والقاعدة البحرية، لوحة يحف جوانبها الضباب. وبانت قطع غيوم انفصلت عن كتلتها الآتية من المحيط، تحلق تحت القمة متجهة إلى مدينة يختلط فيها الجديد بالقديم، وتختلف فيها الشوارع، ويتباين العيش بين أغنيائها والفقراء، يجاهدون جميعًا من أجل اللحاق بالركب العالمي لتكون مدينتهم سياحية، جهادًا ليس هينًا، وتحقيق غاياته ليس بالأمر اليسير.

يوم في ضيافة الأمازيغ

كان الطقس في أرجاء أغادير خريفيًا منعشًا، وكانت الشمس قد أشرقت من بين الجبال المحيطة، مدت خيوط أشعتها ناحية الساحل الذي كثرت على طول شارعه الممتد مجاميع الفنادق

ذات النجوم المتعددة، والمطاعم الشرقية والغربية والمقاهي، بتناسق منحها فرصة وصف بأنها جميلة. قصدناه نهار الأحد، يوم العطلة الأسبوعية، مع آلاف القادمين من الأرجاء، وآخرين من أوروبا القريبة. نصب البعض منهم خيمًا شخصية عند حافات الماء بعد انحساره عشرات الأمتار بفعل ظاهرة الجزر، زيدت طوعًا مساحة الرمل ذا اللون الترابي المائل قليلًا إلى الصفرة، في حين استأجر البعض الآخر شماسي لحماية البشرة الناعمة من الأشعة الساقطة عن الشمس، فأصبح الشاطئ بعد الظهر وكأنه في احتفال يتزاحم وسطه المشاركون.

نزل الكثير من المشاركين إلى الماء بقصد السباحة في مياه دافئة ونظيفة، بعضهم نسوة نزلت بملابسها التقليدية، وبعضهم الآخر بملابس السباحة (المايوهات)، وصبية راحوا يتنقلون بين السباحة غوصًا وبين اللعب في فرق محلية لكرة القدم. تجول بينهم وعلى طول الشاطئ بائع قهوة وآخر للعصائر، وكذلك بائع فواكه مذاقها حلو من كل الأصناف، وآخر يعرض لعباً بَحْرية لإغراء الأطفال. وآخرهم كانت امرأة بلغت أواسط العمر، حافظت على نشاطها، مرت قريبًا بعد الظهر، نقاشة حناء محترفة، أتقنت صنعتها فنًا حسب الطلب، رسومًا على الأكف الناعمة، والأذرع اليافعة، وكعوب زادها الرمل نعومة.

كانت هذه السيدة ومن سبقها في التجول بقصد الارتزاق فنانين في الدعاية لبضاعتهم، يتكلمون عدة لغات ببعض المفردات وتعابير تقضي الحاجة إلى التصريف، لا يلحون كثيرًا،

كأنهم يحافظون على ذات لا تشعرهم بالدونية مقارنة مع أشقاء لهم في بلدان عربية تسعى هي الأخرى لأن تكون سياحية.

نزلتُ الى الماء مع النازلين ومشيت حافيًا على الرمال الناعمة، فتبدد الوقت، وما بقي منه كان أمسية أقامتها عائلة العروس لتعارف العائلتين، طقس من طقوس الزواج الأمازيغي. حضرها الأقربون من الجهتين، تخللتها موسيقى وأغان من كلا البلدين، وعشاء على مراحل دام أكثر من ساعتين، بدأ بحليب يقدم مع التمر واللوز المطحون بعد الاستقبال، ومن بعده الأتاي (الشاي الأخضر) الذي باتت تسكبه والدة العروس بطريقة ترفع بها الإبريق عاليًا، لينزل الناتج في كأس صغير مشروطًا بتكوين الرغوة أساسًا لهذا النوع من الشاي. أحضروا من بعده الوجبة الأولى: مشويات، ظن الجمع العراقي بعد إتمامها انتهاء مراسم العشاء، فضحكت الأم مرحًا ونوهت إلى أنّ العشاء ما زال قائمًا، عندها تدخل العريس للتوضيح «أنّ العشاء يقدم على شكل وجبات، يمكن التعرف على أعدادها من عدد المفارش الشفافة الموضوعة فوق الطاولة المعدة للطعام». توجه أبو علي لا إراديًا إلى تلمسها بأطراف أصابعه، فبان الباقي منها اثنتان. لم تتأخر الوجبة الثانية، من الكسكس، إناء من الخزف الأزرق يقيم فوق إناء آخر توزعت على محيطه المقبلات المنوعة. عند رفعهما بعد الانتهاء رفع المفرش الثاني، لتأتي الوجبة الثالثة: أطباق فاكهة متنوعة، سيدها الرقي المغربي المشهور بحلاوته والبطيخ. عندها اقتربت الساعة الثانية عشرة ليلًا، وعاد الجميع إلى سكنهم. قال أبو علي إنها

مناسبة لإحياء تعلولة عراقية افتقدناها نحن المهاجرين للعيش في أوطان أخرى. فكانت سهرة لأربعة عوائل عراقية، وثلاثة أجيال امتدت إلى الثالثة بعد انتصاف الليل، راح فيها الحديث بعيدًا إلى بغداد وبابل وأيام زمان وصفاء النوايا في ذاك الزمان، ومعاناة الغربة في هذا الزمان. نام من بعدها غالبية الشباب جزءًا من نهار اليوم التالي المتفق عليه: غداء في بيت العروس. انسحب بعد انتهائه الرجال، ليتركوا المجال للنسوة أساسًا لإقامة الحنّة، تقليدًا من تقاليد العرس يتشابه في إقامته المجتمعان المغربي والعراقي. حضرت في بدايته النقاشة، شابة في مقتبل العمر، ومساعدتان كذلك في سن الشباب. بدأت النقش بسم الله، ارتفعت من بعدها وصلات غناء وزغاريد. تناولت يد الضيفة الأولى من جانب اليمين، قلبتها كمن يقرأ الكف، وضعتها على قطعة قماش مثبتة على الفخذ، وبدأت النقش على مهل، رسومًا عرضتها من صور تحملها إحدى المساعدات، انتقلت بها من الأيادي إلى الأقدام، ومن امرأة إلى أخرى. هكذا استمرت في عملها حتى الغروب. ترك بحلوله الجميع أماكنهم في البيت، وخرجوا في جوقة استقبال الهدايا القادمة خصيصًا من أقارب العروس، وصلت محملة على عربة يجرها حصان، تسير خلفها نسوة، تصفق وتزغرد، ومن خلفهن اصطفت فرقة شعبية تنشد موسيقى فرح أمازيغية.

جالت الجوقة في الحي، رقصت أمام الدار حيث الاستقبال الودود من عائلة العريس، دخلوا من بعدها معًا إلى الدار، لتبدأ حفلة أغانٍ ورقص وعشاء استمر إلى الساعة الرابعة صباحًا.

عرس تتمازج فيه الثقافات

تُوِّجَت الأيام الثلاثة الماضية بأنشطتها وفعالياتها المتعددة، ليأتي اليوم الرابع بالزفاف، تميزت طقوسه الأمازيغية مختلفة عن تلك التي في العراق. بدأت احتفالاته باستقبال الضيوف، ولم تنتهِ بوصول العروسين. أقيم الحفل في قاعة فخمة، محفورة أركان سقوفها بنقوش مغربية جميلة، تتدلى منها ثريات بمصابيح بيضاء، تضيف لها جمالًا وبهجة.

اصطف على جانبي ممر مفروش بالسجاد الأحمر أفراد العائلة، وبدأوا في الاستقبال المنظم للضيوف في تمام الساعة العاشرة مساءً. غالبية الضيوف كانوا من جهة العروس، بينما كان القلة من جهة العريس، جاءوا من أمريكا وبلدان غربية، نتيجة لأحكام التأشيرات المطلوبة، وكانوا جميعًا فرحين، دائمي الابتسامة. توافد الضيوف تباعًا، معظمهم نساء، على وقع عزف وغناء فرقة مغربية ومطربها، حتى وصل العريسان قبل انتصاف الليل بقليل، وقفا عند الممر، استقبلتهما مجموعة اللبيسة، أربع نساء بزي موحد أضفنَ بعض اللمسات على بدلة العروس ذات اللون الأخضر.

جلست العروس في العمارية (الهودج)، مغطاة بوشاح ذهبي شفاف، تقدم منها أربعة شباب محترفين بلباس شعبي، حملوها على أكتافهم وساروا ببطء على أنغام الطبل والمزمار، متخللين صفوف الطاولات حتى وصلوا الكوشة (مكان جلوس العريسين). داروا بالعروس في جميع الاتجاهات مع ترديد الأدعية من قبل جوقة شعبية ونساء قريبات رقصن وتصورن. أنزلوها ببطء طقوسي،

وساروا بها إلى مكان الجلوس بانتظار العريس، الذي وقف عند الممر. اصطحبته العائلة والأصدقاء في موكب زفاف رائق على أنغام الموسيقى والأغاني العراقية. تقدم بتأنٍ نحو العروس، رفع البرقع عن وجهها الجميل، قبَّل جبينها، وجلس بجانبها، مما أشعل حماس الفرقة الموسيقية.

خفَّت أصوات الموسيقى قليلًا، فتقدمت اللبيسات، لاصطحاب العروس خارج القاعة. عادت بعد نصف ساعة بحلة جديدة يغلب عليها اللون البيجي، محمولة في عمارية أخرى، جال بها الشباب الأربعة بين الطاولات، وأعادوها إلى مكان جلوسها جانب عريسها. عادت الموسيقى بنشاط صاخب، واستمرت كذلك حتى الغيبة الثالثة للعروس، لتعود منها ببدلة يغلب عليها اللون الأزرق الفاتح. تقدمت من بعدها والدة العروس، أشارت إلى طاولة جانبية مخصصة لعشاء مشاركة للقريبين من أهل العروسين. بدأت الوجبة الأولى بالبسطيلة (عجينة الكاهي) بمنتجات البحر، تلتها الوجبة الثانية من طاجين لحم الخروف، ثم وجبة الفواكه الطازجة. لم تنسَ الفرقة بعد العشاء العودة إلى الغناء المغربي، وأعطت العراق فرصة لثلاث أغنيات بينها «ألف مبروك» لحسام الرسام، مما زاد من حماس الحضور العراقي والمغربي على حد سواء.

أبدلت العروس حلتها للمرة الخامسة ببدلة بيضاء، ودخلت القاعة بطريقة مميزة. أعلنت الأم عند الساعة السادسة عن مفاجأة تحتم على نساء أهل العريس ارتداء الثياب المغربية التقليدية

والمشاركة في رقصة أمازيغية، انتهت عند الساعة الثامنة صباحًا، فاسحة المجال لتقديم كعكة العرس. قصها العروسان، مُعلنين نهاية الحفل وبداية حياة جديدة، مع تمنيات أن تكون سعيدة.

* * *

جُزر الكناري

رحلة محفوفة بالتحديات

قال كبير الأخوة هزنا البرد الأوروبي القارص، وطول أمد الشتاء وندرة ظهور الشمس في الآفاق، لنفتش هذه السنة (2022) عن شمس تظهر في الأجواء، وشتاء أقرب إلى ربيع العراق، فكان خياره جُزر الكناري، وعلى إثر اتفاقنا على الخيار، شرع هو وعائلته بالطيران إليها من مطار هامبورغ، وبدأنا الرحلة نحن على الخطوط الجوية البريطانية من هيثرو، المطار الأكثر ازدحامًا في المملكة، وحال استواء الطائرة في الأجواء، ظهر صوت سيدة عذب، يتمنى التمتع بالرحلة على متن الطائرة بوينغ 787، وإبقاء الأحزمة في حالة الربط في أثناء التحليق، وبعد ساعة من التحليق الهادئ اهتزت الطائرة بقسوة إثر انخفاض حاد في مستوى الارتفاع، أثار الهلع بين الركاب. خرجت صاحبة الصوت العذب، من مقصورتها بعد عودة الطائرة إلى حالها الطبيعي، جلبت الانتباه: شابة أربعينية انتصبت واقفة في المقدمة جوار صف الكراسي الأولى باتزان، وأمسكت سماعة الهاتف الداخلي.

عرّفتْ عن نفسها بلغة إنجليزية واضحة كابتن الطائرة، وقالت والابتسامة تتناثر على وجهها الجميل، أنها تعمدت خفض ارتفاع طائرتها لعبور مطب هوائي يصادف أحياناً في رحلات الطيران عبر الأطلسي. وأشارت إلى أن الاهتزاز الحاصل لبدن الطائرة كنتاج حتمي لذلك العبور. عاودت الابتسامة بوقع أطول، وقالت لقد تجاوزنا المحنة معًا، وختمت حديثها بالتلويح للمسافرين الذين كانوا وكأنهم محتاجون لهذه الطمأنة، كما هي حاجتها لإثبات القدرة على قيادة الطائرة في ظروف صعبة، مثلها مثل الزملاء الطيارين الآخرين. وقد تأكد هذا عند هبوطها على مدرج مطار تينيريفي الجنوبي (Tenerife South Airport) بهدوء دفع الركاب الذين هزهم القلق بدرجة غير مألوفة إلى التصفيق بحماس ومحبة، ودفعها الخروج من المقصورة ثانية بعد أخذ المكان المحدد لطائرتها وإطفاء المحركات. وقفت مع رئيس المضيفين جوار الممر هذه المرة، وقد خرجت من بين شفتيها الممتلئتين ابتسامة ود إضافية. أعطتها قبعة الطيارين عند وضعها تحت رسغ الشمال قدرًا من الهيبة، وأعطاها الشعر الأسود المتدلي على الكتف مزيدًا من الأنوثة والجمال. لوّحت بيدها اليمنى لكل مسافر نزل، فتركت ذكرى أنست الجميع تلك اللحظات الصعبة.

نزل أولئك المسافرون من طائرتها يهنئون بعضهم بعضًا بسلامة الوصول. تبادل الشباب بعض القبلات وتبادل الآخرون ابتسامات ود وربت على الأكتاف. مشينا قليلًا فوجدنا أنفسنا وقد انتظمنا وقوفًا بالدور أمام مكتب الجوازات. لم يدم مشينا ولا الوقوف سوى دقائق، لم تسمح لأحد وصول الحدود الدنيا للتذمر. أهل السياحة

هنا ومن يتقنها في الأصقاع يحسبون حساب التذمر في نفس السائح، واتجاهاته تجنب الأمكنة التي تثير الضجر وعدم الرضا. وموظفو الجوازات هنا كأنهم معنيون بالسياحة، نشطون يؤدون واجبهم في التدقيق والختم بسرعة وهم يرحبون، ونظامهم في الإجمال أوروبي يحكم فيه الحاسوب، ويلتزم الجميع بالقانون. كانت الحقائب قد وصلت الحزام الناقل قبل وصولنا إليه، وجدناها على سطحه تدور وسط قاعة تبدو رئيسة، ووجدنا المطار جنوب الجزيرة مزدحمًا، هو وتوأمه مطار آخر في الشمال، يؤمِّنان معًا نقل خمسة ملايين سائح في السنة موزعين على مساحتها البالغة طولًا 83 كيلومترًا وعرضًا 53.

قال مهندس نفط نرويجي متقاعد مسن في أثناء مساعدته لسحب حقيبته من الحزام الناقل وهو يدور: «إنه تعود وزوجته المجيء إلى هذه الجزيرة كل شتاء لاعتدال طقسها وانتظام درجة الحرارة بين العشرين والخامسة والعشرين» وأضاف: «ستجد الغرابة ماثلة في هذا الطقس: ثلوج تغطي قمم جبالها العالية يقصدها هواة متسلقون، وساحل صخري تلامسه مياه المحيط الدافئة، يسبح فيها الشباب وباقي الأعمار طوال العام». أخذ الرجل فرصة للتنفس العميق، وأكمل: «ستجد حتى الرياح التي تهب شديدة حد التعكير النفسي للمزاج السياحي في بعض الأحيان، يُستثمر دفعها أمواج المحيط العالية باتجاه الساحل سياحيًا، إذ أسسوا لها نوادٍ لهواة ركوب الموج ستجدهم يتهافتون بالمئات بقصد ركوبها حال الهبوب».

وقف عند البوابة بانتظار سائق أجرة تعود التعامل معه من قبل، ووقفتُ إلى جانبه بانتظار أشرف صاحب مقترح السفر إلى الجزيرة، كان قد وصلها صباحًا، فوجدت في الانتظار فرصة الاستزادة من المعرفة التي يمتلكها هذا الشيخ الوقور. قال في أثناء تبادل الحديث: «إنه زار العراق عام 1975 خبيرًا نفطيًا، وسنحت له فرصة التجول في أرجاء العراق». سأل عن الأهوار هل أخذت مكاناً لها في السياحة؟ إذ لم يقرأ عنها بعد. ولما أجبته أسهم الجيران في تجفيف مائها العذب يوم ضعف العراق، ضرب كفه بكف، وعاود السؤال عن بابل حضارة هل ما زالت جاذبة لأهل العلم ومحبي التاريخ؟ قلت: «عاود الأبناء تقليد أجدادهم في سرقة طابوقها المرصوف، وحرموا في ربوعها الموسيقى والاحتفالات». عندها توقف عن الحديث، وكأن في توقفه احتجاج علينا أهل حضارة طالما تغنينا بها، دون التمكن من الحفاظ عليها. ولتأكيد احتجاجه، صعد إلى سيارة الأجرة وهو يتمتم مع نفسه بلغة نرويجية لم أفهم منها شيئًا.

رياح تينيريفي العاتية

لم تقلل الريح طوال الليل من سرعتها، ولم تبطل صفير اصطدامها بحافات الشبابيك، لكن المطر المصاحب لهبوبها قد توقف تمامًا، وأبقى الغيوم عالقة تحجب الشمس عن عموم السياح، الآتين من بعيد لاستجداء أشعتها الدافئة. ناقش الشباب عند حلول الصباح وضعهم على انفراد، وأخرجوا أجهزتهم اللوحية

وأجروا مسحًا على طول الجزيرة وعرضها. قالوا معًا: «حديقة القرود ومن بعدها قرية ماسكا (Masca) في وادٍ جبل التيد (El Teide) هما الأنسب لبرامج يومٍ تهب فيه الرياح قوية خارج المألوف». فكان الأمر اتفاقًا نفذ الآخرون حذافيره بإتقان. حشروا أنفسهم في السيارة المستأجرة وقبلوا حشرها برحابة صدر طول الطريق من المجمع السكني إلى تلك الحديقة المملوكة للقرود.

كان الطريق سالكًا من ممرين، وسطحه المكسو بالقار الأسود الفاحم، وخطوط التأشير البيضاء وسطه وعلى الحواف، جعلت منه طريقًا وكأنه عُبِدَ في الأمس، وجعلت مزارع الموز المنتشرة على جانبيه، وعموم المنطقة ريفًا من نوع خاص، هادئًا، ليس مزدحمًا، يمتد متعرجًا من الساحل إلى الجبل. كانت المشكلة عند الحديقة وفي غالب مدينة تينيريفي، شحة الأمكنة المخصصة لوقوف السيارات بالمقارنة مع أعدادها فائقة الكثرة. نظام الوقوف المجاني جعلها مشغولة طول الوقت، وجعل السائق الراغب في الوقوف مجبولًا على اللف والانتظار لإيجاد المكان المناسب، وكان المكان المناسب مئات الأمتار عن بوابة الحديقة الرئيسية، وفر المجيء إليها مشيًا فرصة لتأملها. حديقة موقعها أقرب إلى الساحل، حجمها يبدو أصغر من توقعات الصور المنشورة عنها، طبيعتها ممرات تحيط بها أقفاص تسكنها قرود من أنواع شتى، بينها الحجم الصغير قزمًا بطول كف اليد، وبينها الأكبر في الحجم قريبًا من حجم الدب، وبينها الشمبانزي الذي يشارك الإنسان بـ (96٪) من خواص الـ (DNA)

قفصهم أوسع الأقفاص، وأكثرها رفاهية، وضعوا فيه العديد من الأصحاب، تماشيًا مع رغباتهم العيش في جماعات، وأبقوا سياجه بمحاذاة المارة يساعد على تقديم البعض غذاءً جاهزًا لهم من فتحات تكفي لمد اليد. كان أكثر المغرمين بتقديم الغذاء أطفال يستجيب لهم فرحًا بتأدية بعض الحركات والقفز بين الأغصان، وتسلق حبال وضعت لهذا الغرض. لكن الحديقة هذه لا تقتصر على القرود، أرادوا إعطائها قيمة سياحية أكثر فأضافوا لها أقفاص أفاعٍ وطيور، ووضعوا في برك مائها سلاحف معمرة، وأشيرَ إلى تمساح لم يظهر إلى العيان. ومن بعد ختامها كحديقة مغرية بقرودها وغير القرود تم التوجه صوب جبل التيد. بدأ الصعود إلى قمته البالغ ارتفاعها (3718 متراً) بالسيارة المستأجرة من طريق معبد قديم ذي ممر ضيق، كأنه شق وسط الصخور، التواءاته حادة، في الصعود، وكذلك في النزول، تلزم السائق التوقف مرارًا للسماح الى السيارة قادمة بالمرور. تقتضي المناورة جيدًا من أجل العبور. بعض السائقين المترددين على القرية، يعرفون الانحناءات جيدًا، ويعرفون فجوات أوسعت فيها السلطات ذاك الطريق لغرض تسهيل العبور. ومع هذا، كان العبور شاقًا تخللت بعض مواقفه أدعية للاطمئنان. بعد ساعة صعود حذر، ونزول من الجهة الثانية أقل حذرًا، بان وادٍ سحيق ملتصق بالسفح، وبانت القرية على حافاته، ثمانون بيتًا، بعضها قابع على صخرة، وبعضها الآخر كأنه معلق بنتوء صخرة، مَثَلَ وجودها في المكان قرية، في ريف جبلي يختلف عن ريف السهول. حافظ سكانها

التسع والتسعون على طبيعتها لمئات السنين، ونجحوا في تحويلها إلى منطقة سياحية. خصصوا بعض منها بيوتًا مميزة للسكن السياحي، ومن جاء بيته قريبًا أو محاذيًا الى الطريق، حوله إلى مطعم تراثي يستهوي السياح، أو متجرًا لبعض الأعمال والمنتجات المحلية. فكان هناك في هذه البقعة القرية ثمانية مطاعم لا تجد لك مكانًا مناسبًا حول طاولاتها لتناول الغداء، إن لم تمتلك حجزًا مسبقًا.

توقفنا وسطها ومن المكان نظرنا الى الأسفل، لإمتاع العين بصور الطبيعة الغنية، ومن ثم الى الأعلى باتجاه القمة الجرداء، بانت وقمم اخرى جميعها جرداء، ذات سفوح خضراء مغطاة بنباتات شوكية، عميدها الصبار. لا وجود للغابات بين صفوفها، إلّا من بقع متناثرة لشجرة السرو، قريبة من المجمعات السكنية، غرسها السكان في وقت قريب، ومن أشجار نخيل متفرقة في الوديان، لكن نخلتهم هنا لا تشبه نخلتنا هناك، إنها من النوع الضخم، مزروع لأغراض الزينة. ومع هذا، تجد واحدة من فصيلة نخيلنا هنا وأخرى هناك تشكو الواحدة منهن العزلة. عند الاقتراب منها شوقًا، لا تكتمل الفرحة، لأنها عاقر، ثمارها ليست تمرًا، بل منتجاً أصفر كأنه خرز، يستمر ماسكًا بعذوقه طوال الشتاء، ليتساقط من بعدها دون نضوج. مرده اعتدال درجات الحرارة، وعدم اقترابها من الأربعين، الحد التقريبي الأدنى لنضج التمور.

جزيرة تينيريفي: خضرة ورمال

ما إن أظهرت الشمس أطراف أشعتها خجلة من بين الغيوم المتفرقة على الطرف الجنوبي للجزيرة حتى تغيّر المزاج، وتغيرت الوجهة، متجاوزةً تلك الخضرة ومتع الطرق الملتوية، ولذة التجول النسوي بين المحال والأسواق المتعددة، صارت صوب ساحل حورت الطبيعة بعض مساحاته جعلتها التعرية على شكل تجاويف، أكمل الإنسان الكناري تشكيلها كأماكن سباحة وشواطئ تغطيها رمال مائلة إلى السمرة. كان الشاطئ المقصود أولًا في جولة اليوم مملوكًا لمنتجع أباما (Abama) الذي أقيم عليه فندقًا فخمًا، وضع تسعيرة لغرفه قيل إنها مؤقتة لأعياد الميلاد ورأس السنة تقترب من الألف دولار، مع وعد بعودة سريعة إلى مستويات الأسعار الاعتيادية البالغة ثلاثمائة دولار حال الانتهاء من الاحتفال المعهود. لم ينتظر القادمون إلى ساحله النظيف وقتًا للتدقيق في التفاصيل، غيروا ملابسهم حال الوصول، وضعوها في الزاوية القريبة، مدّوا عليها بساطًا كعلامة للحجز، نزلوا الماء كل على هواه، مترددين من لسعة برد عادة ما تصاحب لحظة النزول في مثل هذه الأجواء. لكنها كانت لسعة خفيفة ولذيذة، انتهت حال الغطس في مياه تبدو وكأنها دافئة، ملائمة لحرارة الجسم، تسحب القادم إليها منتشيًا إلى نقاط أبعد. بان الشاطئ من وسطها تجويفًا عرضه يزيد قليلًا عن المائة متر، وعمق لا يتجاوز أبعد حد فيه ستين مترًا، تحيط به كتل صخور ضخمة أشبه بالمنحوتة، ترتفع قريبًا من الثلاثين مترًا عن الماء. أنشأ الفندق بين

تلافيفها مطعمًا نصف دائري بطراز وكأنه يحتضن المياه ورملها النقي، وأولئك المنتشون سباحة. وأنشأ في منتصفه مصعدًا نظم حركته على سكة مائلة، ينقل النزلاء الراغبين في جس نبض الماء وتناول الطعام على موائده الشهية، حاسبًا أثر السباحة على زيادة الإحساس بالجوع. وهذا ما حصل، إذ طالب الشباب حقهم في وجبة غداء، بالإشارة إلى المطعم المذكور. أخذوا طاولة مشرفة على الماء، وأخذت عائلة تبدو ملامحها خليطًا من الكناري وأهل الشرق طاولة مجاورة. حاول الأب، وهو رجل أشيب، التدقيق في ملامحنا، حال إدراكه لغتنا العربية، تشجع على التوجه للاستفسار أولًا عن ندرة السياح العرب في هذه الجزر، ثم قص حكايتها: «جزراً نشأت على أعقاب براكين ما زالت آثار تدفقات حممها مذهلة عند النظر إليها من قريب، وما زال أحد أحفادها البركان (تيد) ينفث غازًا من نقطة تعلو (3718) مترًا عن سطح البحر». حكايات حاول ربطها بأجداده الأمازيغ مدعيًا أنهم الغوانش من سوس ودرعا، أول من استوطن الجزر قبل ألف عام من الميلاد، عاشوا فيها حتى احتلال الإسبان لها سنة 1496. حال توقفه عن الكلام للاسترجاع، تدخلت زوجته الإسبانية قائلة وهي تضحك: «لكن بعض الرواة يقولون إن الفينيقيين الذين حكموا لبنان وتونس وجنوب إسبانيا، وأحكموا السيطرة على البحر المتوسط، هم من نزل هذه الجزر أولًا، وهم من أسموها الكناري نسبةً إلى كلاب البحر التي كانت تعيش فيها وتتكاثر، وهم من جلب إليها مواطنين بينهم الأمازيغ، أسكنوهم لتكون مأهولة لغاية في

نفوسهم تتمثل بالسيطرة والتجارة.

رد عليها بثقة عالية: «لكن المنطق التاريخي يُرجِح روايات الأمازيغ، وانه يعتقد شخصيًا مجيئهم الجزيرة من المغرب موطنهم هناك حيث لا تبعد سواحلها عن الجزر سوى ستين ميلاً». لم ينس الرجل أباه في سرد الحكاية قال عنه: «انضم في ستينات القرن الماضي إلى حركة استقلال جزر الكناري بقوة دفع أمازيغي، وجهد ثوري مسلح تدعمه الجزائر». وتذكر أنه جهد لم يفلح سوى بالحصول على حكم ذاتي أبقى مجموعة الجزر إسبانية أوروبية على الرغم من موقعها الأفريقي. لكنه وقبل ختام حديثة عبر عن خطأ أباه، وخطأ الثورات في دعاوى الانتقال إلى الحياة الأفضل، قال: «إن مستوى عيشهم الآن هو الأفضل، وحريتهم مضمونة بشكل أفضل، وشعور الانتماء إلى هذه الجزر ضمن عالم أوسع يفوق متعة التعنصر للأصل والمكان». نصح في ختام حديثه بزيارة شواطئ أخرى وحدد ديكيو (Playa del Duque) بالذات، قائلًا: «منه يمكنكم مشاهدة مغيب الشمس، المنظر الأجمل على سطح هذه الجزيرة».

كان ذاك الشاطئ ممتدًا على مساحة واسعة تحيط به مجموعة فنادق ومطاعم ومقاهي، قريبًا منها أسواق ومرائب لوقوف السيارات كانت غالبيتها ممتلئة. وكانت المياه دافئة أيضًا، تشجع العودة اللازمة لتجربة السباحة قبل المغيب، ومن ثم الوقوف على حافة المياه لمتابعة الشمس في مغيبها. كان المشهد مبهرًا، وكان الرجل الأمازيغي محقًا، إذ بانت وهي تنزل ببطء محسوس

كأنها تعانق حبيبًا وسط المحيط، لكنها وحال الاقتراب من الغطس تمامًا وإتمام فعل العناق، زادت من سرعتها حتى اختفت إلا من شفق بسيط أضاف احمراراً خفيفاً إلى مياه البحر جعلها الأجمل. وباختفائها تغيرت درجات الحرارة، ولملم القادمون حوائجهم، تركوا المكان إلا قلة من الشباب يتحركون بتحدي أنفسهم أينما يكونون.

سانتا كروز: العاصمة الثانية

من لم يرَ العاصمة الرسمية للبلد المقصود سياحةً، لم يحسب زائرًا، ولا تعده الذات السائحة من بين الذين تمتعوا بمعالمها التاريخية، وشهدوا أماكن تميزها. لكن جزر الكناري مقاطعة لها عاصمتان: لاس بالماس وسانتا كروز، ولها أربع جزر كبيرة، وأخواتها ثلاث صغيرة. نظام حكم ذاتي فريد، تستضيف فيه العاصمتان الوزارة والرئاسة والبرلمان تناوبًا كل أربع سنين. ولأن تواجدنا للأيام التي مضت في هذه المقاطعة تينيريفي، صار التوجه صوب عاصمتها سانتا كروز للطواف في ربوعها، مدينة تنتصب على الساحل الشمالي، أخذت من أراضٍ متموجة محصورة مكانًا لاستقرارها. هي مثل أخواتها استقامت راسخة بين جبل بركاني وماء محيط وافر، تتواصل معهن جزرًا أخرى عن طريق الطيران والعبارات البحرية، يربطها بالأرجاء الجنوبية طريق بري يقطعها بالطول، سريع شُقَّ بإمعان وعُبِدَ جيدًا، وتأشر بطريقة انعكاس الضوء، تساعد السائق في إدراك الوضع من حوله وباقي السيارات

بوضوح في الليل وهدوء في النهار. يتمدد بمحاذاة المياه الصافية للمحيط سبعون كيلومترًا، قطعته السيارة في أقل من ساعة.

ظهرت معالم العاصمة بعد إتمام الكيلومتر الأخير منها، أبنية في الغالب ليست عالية تتكئ على السفح برصانة، أخذ الميناء من جغرافيتها حصة كبيرة، بسببه، وسعة النشاط التجاري، تسجل أنه الميناء الأكبر في إسبانيا. توقفت السيارة عند بوابته، في مكان مناسب للترجل، والتفتيش عن مرآب قريب، فنظام الوقوف في العاصمة هذه لقاء أجور، يختلف عن النظام المجاني في الأماكن السياحية الجنوبية. ومع هذا، يتشارك النظامان صعوبة إيجاد مكان لوقوف السيارة شاغر، فبات المشي في المكانين سيد الموقف.

بدأت الرحلة من الميناء، ومن رصيف قريب، رست عليه باخرتان (كروز) عملاقتان تُنزل الأولى مسافريها لإتمام جولتهم في المدينة، وتلحق الأخرى ركابها صعودًا بعد إتمام جولتهم فيها. هكذا هو نظامهما: تجوال لأيام وأسابيع في مياه البحار، وبين المدن والشطآن، كفنادق عائمة بعشر أدوار وخمس نجوم تؤمن أماكن سهر وتسوق وسباحة، وشمس تسد الحاجة عند الظهور. استمر المشي بعد الميناء بمحاذاة الشاطئ، بانت في منتصفه أنقاض حصن المدينة القديم ودار الأوبرا، واحداً من أشهر المعالم الأثرية في العمارة المعاصرة أوروبيًا. عند النظر إليه من الجهة البعيدة رأيته وكأنه منقار طائر ضخم، ومن جهة أخرى كأنه ذيل حيوان بحري عملاق. قريبًا منه تستقيم كنيسة (الحَبَلُ بلا

دَنَسْ)، أو سيدتنا التي حَبَلَت بلا دنس (عقيدة مسيحية، تخص مريم العذراء)، واحدة من أولى الكنائس التي بناها الإسبان على الجزيرة سنة 1500، جعلوها مميزة عن جيلها بطراز معماري فريد، ووضع لها الأصحاب عقيدة أثارت نقاشات، واختلافات بين المسيحيين الكاثوليك. يأخذ المشي منها إلى متحف الطبيعة والآثار، متحفًا يقدم تاريخ الجزر، ويحكي ثقافة الغوانش، أوائل من سكنها، وكذلك الوافدين إليها من الإسبان. يضم نماذج من خرائط أضحت قديمة لمواقع الجزر وأوروبا وأفريقيا والمغرب. هو والكنيسة والنصب التذكاري للمنتصرين في الحرب الأهلية الإسبانية، يمهدون الطريق إلى المدينة القديمة. حال الدخول إلى محيطها تبين أنها مختلفة بشوارعها الضيقة، وأزقتها النظيفة، وأبواب بيوتها المرتفعة وشبابيك تطل على الشوارع والأزقة، ومشربيات (شناشيل) نُسجت من أخشاب الزان على طوابق بعض بيوتها. منازلها الملونة وأزقتها المتشعبة، تأخذ الناظر إلى حواري مدن أمريكا اللاتينية، وهو مأخذ ليس غريبًا، فطراز المدن هناك قد تأسس إبان تواجد الإسبان مستعمرين لتلك البلدان. أخذوها عن العرب الأندلسيين، ويبدو أن الأتراك هم أيضًا أخذوها من هناك. قالت حواء، من فرع العائلة التركي، إن هذا الحي يشبه تماماً حي جملك (Gemilk) في مدينة بورصا التي تنحدر منها.

سكان هذا الحي وأبناء المدينة الذين يتجولون مشيًا في أزقته وخارجها هادئون، كأنهم غير مستعجلين في حياتهم كما هو حال الأوروبيين، سعداء بتصنيف عاصمتهم من بين أفضل مدن العالم

عيشًا. مدينة يختلط فيها القديم بالحديث، وتتعايش وسطها الأقوام وأصحاب الأديان. تضيف إليها المتنزهات المتعددة بهجة وتمدها بالأوكسجين. متنزهات تحوي أشجارًا متنوعة ضخمة، كأنها جمعت من عالم آخر غير عالم الجزيرة الممهور بالصبار والشوكيات. وزعت بأشكال هندسية على ممرات مرصوفة، ومصاطب استراحة تضللها الخضرة، بنت على أغصان أشجارها طيور الكناري أعشاشاً، لترفرف في الأرجاء حرة، تصدر أصوات زقزقة تضفي على المكان متعة سمعية خاصة. تناثرت بينها مطاعم ومقاهٍ يأخذ المتنزهون والسياح من كراسيها الوفيرة استراحة فرجة على أنواع تلك الأشجار وأشكالها وألوان الطيور وأصنافها، من كثرتها بقع خضراء كُتب عن واقع المدينة مميزًا كون ثمانين بالمئة من مساحتها بيئة طبيعية.

حل الليل وسط أحد المتنزهات، واستحقت العودة. في الطريق ذاته وبعد عشرين دقيقة، بانت مدينة كانديليرا (Candelaria) الساحلية، قديمة وشعبية، وبانت ملائمة لأخذ استراحة طعام، لم يدم التفتيش عنه طويلًا، فمطعم وضع طاولاته وسط شارع مغلق لا يسمح لمرور السيارات. تديره نادلة من أهل المدينة، لا تتكلم غير الإسبانية، ولم تنفع معها لغة الإشارة. غابت قليلاً، لتجلب معها شاباً سوري الأصل يعمل في المطبخ، حل إشكال اللغة، اقترح بلهجته الشامية المعسولة البيتزا لأنهم متخصصون بها، واقترح الكريمة الكتالونية نوعًا من الحلويات، وقال: «لابد من بعدها المشي على ساحل المدينة الجميل بهواه المنعش» فكان له ذلك قريبًا من انتصاف الليل.

احتفالات الجزيرة برأس السنة

استنفر الشباب خزين طاقتهم، تهيؤا أسوة بالغير من شباب جيلهم، وباقي الأجيال لوداع سنتهم القائمة واستقبال أخرى ستقوم. هكذا هي العادة في بلدان العالم المتحضر، غربًا وفي كثير من بلدان الشرق، بينها الكناري، جزر تجمع في حضارتها الحديثة جل الحضارات، وغالبية أصحاب الأديان، وتسعى مثلهم طي الصفحة الأخيرة لعام مضى، إزالة الدرن العالق منها في النفوس، وفتح الصفحة الأولى لعام أتى، إحلال الفرح مكانًا على سطور مشاعرها المتفتحة، تيمناً بحقيقة القول إن الفرح طاقة، نحتاجها لاستمرار عيشنا بقدر من الرضا عن حياتنا والكون، وتأسيًا بآراء العلماء الجادين في علم النفس، وتأكيدهم لأثر انفعال الفرح في تقليل مستويات التوتر والقلق وكذلك الإجهاد.

بدأ أولئك المستنفرون يومهم مسحًا لأماكن المدينة السياحية تنريف، إثر تخيلهم نشاطها المعتاد في إقامة هكذا مناسبات وداع، وتقليب الصفحات الخاصة بالزمن الذاهب والآتي على حد سواء، كان مسحهم مشياً على الأقدام في شارع (Los Cristianos) الموازي لذاك الشاطئ المفتوح على مياه المحيط، وكنا الباقون من خلفهم نمشي متعة بأجواء هذا الشارع وشوارع أخرى تتهيأ في غالبها لساعات الوداع، كانت البداية نشطة، وكأنهم يريدون استغلال ما تيسر من وقع السياحة واحتفالات رأس السنة في آخر يوم لهم على الأرض الكنارية المصنفة ممتعة بامتياز، توقفوا فجأة راحت آذانهم تلتقط اشارات موسيقى،

وأغان عربية خفيفة الظل، أداروا وجوههم جهتها تبين مصدرها مطعمًا عُلِقَتْ على واجهته قطعة كتبت عليها كلمة (Habibi) تقرأ واضحة بجميع اللغات التي عدتها الجزيرة أساسية (الاسبانية والانجليزية والألمانية)، تجادلوا وهم واقفين يقرؤون عن أصله لبناني، فاللبنانيون حسب الرأي التاريخي أول من فتحوا باب الهجرة من العرب الى خارجها واستثمروا مهاراتهم في تحقيق الذات، لكن جدلهم لم يستمر، إذ خرج من باب المطعم الى رصيفه رجل متوسط العمر أسمر حنطي، قال بلغة عربية، تفضلوا، قولاً لم يحسم الجدل القائم عن أصل المطعم، سألته مباشرة عن الأصل، رد بثقة عالية مطعمه عراقي، وأصله باق عراقي كوردي من كركوك لأم عربية، يجيد اللغة العربية والكوردية والتركمانية بطلاقة، عاد لتأكيد شخصيته محمد، ترك العراق وكركوك احتجاجًا على واقع لم يقتنع به، وصل ميناء الجزيرة في عنبر سفينة نقل، أمضى خمسة عشر عامًا على أرضها عاملًا في هذا المطعم، أثمر نجاحه تحقيق حلم تمناه في امتلاك المطعم شراءً كخطوة أولى، ومن بعدها خطوات تحويله إلى مطعم عراقي يقدم أطباقًا عراقية بينها الكباب وجميع أنواع المَراقّ، ابتسم راضيًا وأكمل الحديث قائلًا: «إن أطباق العراق تلقى اقبالًا من الأهالي والسياح، ولما سُئِلَ عن وقائع احتفالات مطعمه لاستقبال العام الجديد، تأسف لنفاذ الحجز»، أكد إمكانية الوقوف قبل الساعة الثانية عشرة على ناصية المطعم، وسيبادر هو بتقديم الخدمة المطلوبة بشكل خاص، وأضاف سيكون الشارع في تلك الساعة

وبعدها مسرحًا لجمهور يصعب التفريق في مجاميعه بين المشاركين والمتفرجين.

تم الأخذ بنصيحة محمد والوقوف في المكان المعهود قبل الساعة الثانية عشرة بقليل، كان هناك المئات قد وصلوا من قبل زادوا بالتدريج ليتجاوزوا الآلاف، أناس من شتى بقاع الأرض وشتى الأعمار والأجناس، بعادات مختلفة، وأزياء مختلفة، تجمعهم مشاعر العبور السار لآخر لحظات سنة انتهت، لتُخزَن في العقل رقمًا، وانتظار حلول مثلها لحظات تبدأ فيها سنة أخرى يأملون إضافتها على العمر. حمل بعضهم زاده من الشراب في شنطة ظهر، ومسكه آخر في كلتا يديه، وقصد ثالثهم مطعمًا فتح بابه لتزويد الراغبين بذاك الزاد، جلس منهم على أغطية محارك سياراتهم، ومنهم أخذ من دكك الشاطئ مكانًا للجلوس، ومنهم من غرق في بحور العشق، مسك يد محبوبته واستمر ماشيًا، من شارع الى آخر، يتأمل الغد في مخيلته ورديًا، ومع هذا لم يستمرا في الخيال هكذا، فقد غيرا الوقع بعد أن استثارتهم قطعة موسيقى توقفوا قرب مصدرها، دخلوا مع الجمع يرقصون، ومثلهم آخرين حتى تكون جمعًا راقصًا ملأ الشارع، امتدت أطرافه الى الشاطئ القريب، لم يتوقف عن الحركة حتى انتهاء الدقيقة الأخيرة من الساعة الثانية عشر، انطفأت عند حلولها أنوار الشوارع والمطاعم والمقاهي، وأطفأ سائقو السيارات مصابيح سياراتهم، وتعالى الصراخ غبطة وعبارات بعدة لغات، أعقبها عناق، ومعاودة رقص كل على هواه، مشاركة لفرح

غامر بحلول عام جديد، استمر قريبًا من ساعات الصباح، موعد المغادرة عودة الى الديار، مصحوبة بأمنيات في أن يكون عامًا سعيدًا للجميع ملؤه الفرح والمحبة.

* * *

بابل آخر المشوار

لزوم تغيير الوجهة

سنن الطواف ورغبات الاطلاع على المعرفة والمِلَل لم يطالها المَلَل، وبدوافع الالتزام بتلك السنن، قلتُ لرفيقة العمر: «ما زال في الجعبة كثير والوقت المتاح بات أقل من القليل، ولاستغلال المتاح من هذا القليل سأتوجه هذه المرة صوب الصين ومنها إلى اليابان حضارتان أضافتا إلى البشرية الكثير». حسمت الأمر، وحزمنا القليل من الأمتعة، لكن القلب لم يحسم أمره، كان له رأي آخر عبّر عنه في وجع من جهته اليسرى، ومصاعب في التنفس، اقتضت التوجه الى طوارئ المستشفى (سانت ماري) وسط لندن بعد انتصاف الليل. شخّص الاستشاري الخفر لهذه الليلة، ذاك الوجع (قصور القلب الاحتقاني Congestive Heart Failure)، كتب الدواء وجملة نصائح بينها تجنب ركوب الطائرة، سألته لِمَ؟ فأجاب بحزم: «لمصاعب التكيّف مع انخفاض مستوى الأوكسجين وضغط الهواء في الارتفاعات العالية». وبعد استراحة محارب

دامت أشهر ستة، عاودت حسم الأمر وقبل حزم الأمتعة قصدت المستشفى لإعادة الفحص والاستفسار، قال الطبيب المختص: «قصور القلب ومهما أعطي من علاج لا يرمم»، ومع هذا أجاز ركوب الطائرة بحذر عال ولمسافات ليست طويلة، فقضى برأيه هذا على الأمل في السفر إلى تلك البلدان البعيدة، وأثار في النفس قلق من أن السفرة؛ أية سفرة قد تكون الأخيرة، شعور سيطر على مسارب التفكير بقوة، ودفع إلى أن أغيّر وجهة السفر إلى بغداد، وبابل والقرية الجمجمة كأنّ السفر اليها والطواف في ربوعها وداع هو الأخير.

بدأت المشوار مجزءًا على محطتين؛ الأولى إسطنبول ليلتان للراحة والتقاط الأنفاس، ومنها إلى مطار النجف الدولي، حطّت على أرضه الطائرة قبل طلوع الشمس، تلقفت حقيبتي الخفيفة وتوجهت إلى سيارة مستأجرة وافق صاحبها نقلي إلى بابل محطتي المقصودة لقاء أجر أصرّ على أن يكون ستين ألف دينار، قلت بعد استواء عجلات سيارته الحديثة على طريق النجف – الكوفة «أشك بتصنيف مطاركم دوليًا، ليس فيه ما يوحي انتماءه إلى المجال الدولي. رد باستهزاء تهكمي:

لم اخترته إذن؟

فأجبته بجد: «لم أجد تذكرة إلى مطار بغداد في الأمس، لأننا وكما تعلم لم نتعود التخطيط المسبق»، وسألته: لم هذا السؤال؟

قال باختصار: «إنه مطار غير أمين بكل المعايير، قبل أشهر تسللت منه امرأة تستجدي إلى داخل الطائرة المغادرة، وبقدرة

قادر اكتشفها الركّاب قبل الإقلاع بدقائق معدودات، وتسلل آخر إلى طائرة أخرى من دون جواز، لا أحد يعرف من يسيطر على هذا المطار ومن يديره، ولمن يتبع، فسلطة الطيران المدني في الدولة لا تقترب منه ولا يقترب منها، وواردات مجهولة يعصف بها الفساد، وإدارته سيئة تضرب بها الأمثال، وبنيته التحتية قاصرة عن تأدية الخدمات، تتدخل في شؤونه السياسة ورجال الدين ومن هبَّ ودبّ، فأعاقت خلافاتهم تطويره ليكون كما ينبغي أن يكون، وأثرت على كفاءة التشغيل». ولما أكمل إجابته باختصار معقول أشرت اليه إيقاف السرد المؤلم، وينتبه إلى الطريق فهموم هذا المطار والنجف ليست أقل من هموم بابل وبغداد.

وقفت السيارة في حي بابل بالحلة الفيحاء عند الباب الرئيسي لبيت علي؛ رفيق الطفولة والصبا وآخر العمر، كان مجرد مرورها بالمدينة الحلة قد أثار من العقل المكبوت كثيرًا من خزين الشباب، وصور قديمة لها مدينة كانت جميلة تغنّى بها الشعراء على مرّ العصور منذ النشأة الأولى على يد الأمير صدقة بن منصور الأسدي عام 1101، الذي اختار موقعها الزاخر بالمياه والتربة الخصبة، والأهمية على طريق التجارة الرابط بين عدة جهات، ومجاورة النجف وكربلاء مما ساعد في تطورها لتكون مركزًا اقتصاديًا وثقافيًا وموطنًا لعدد كبير من العلماء والشعراء، عاش فيها المتنبي فترة وقال فيها شعرًا، وتغنّى بجمالها صفي الدين الحلي وأبدع في القول.

وجدت علي يتكأ على ركن الباب بعد خروجه للاستقبال، وقد

أصابه الهزال وتضاعفت في نفسه دواعي الاكتئاب بعد موت أبو لقاء (خضير عباس) ثالثنا في علاقة القربى الممتدة إلى بداية الخمسينات من القرن الماضي. اقترحت عليه الخروج معًا لإعادة بعض الذكريات العائدة لأيام الشباب، امتنع بشدة وسبق إصرار، قال: «لا يمكنني المشي، وليس لي مزاج للخروج» فأخذت بعضي وبدأت المشوار سيرًا من بيته مرورًا بجسر باب الحسين المكنّى جزافًا بالجسر الجديد وإن زاد عمره عن السبعين عامًا، ومنه سلكت الشارع المحاذي الى النهر باتجاه المتوسطة المركزية، لم تعد هذه المدرسة العريقة كما كانت أنيقة كأنّ يد الإهمال قد خرّبت صورتها، وقريبًا منها لم أجد أثرًا لحديقة النساء التي قضينا المتاح من وطر الشباب على حافاتها الناعمة نتأمل فتاة الأحلام. دخلت السوق المسقف، حال الزمن دون العثور على محل الأحذية الذي اشتريت منه أول حذاء عُدّ في أيامه غاليًا بستة دراهم منتصف الخمسينات، ربما لم يعد المحل موجودًا فقد تغير كل شيء وكثرت في المكان محال الحلويات، لكن السوق بقي كما هو مزدحمًا، بدا لي وكأنه قد ضاق وقصرت المسافة بين ضلعيه، لكن هيئته وسقفه المهلهل وبعض المحال المختصة بتجارة الأقمشة تؤكد بقاؤه كما هو، وتؤكد أن الذي تغير هو إدراكي للمسافة والمكان.

اقترب المغيب من الحلول في ذاك السوق، لم تساعد الصورة المشوهة للمدينة النفاذ منه إلى شارع المكتبات التي غابت من بين أركانه المكتبات، فقررت العودة عبورًا إلى الضفة المقابلة

محلة (الوردية) من على الجسر القديم، وقفت عند منتصفه قلت في نفسي: «يستحق اللقب فهو قديم بكل شيء حتى العابرون عليه هم في الشكل قدامى، وكأنّ المشي على سطحه المتصدع يستثير في ذاكرتهم الجميل من ذاك القديم». لم يسعفني الحظ من بعد إتمام عبوره العثور على مدرستي متوسطة الجمهورية في محلة (الگلج) التي كانت خانًا لبيع التمور حولته مديرية المعارف بعد استئجاره من مالكه حسن خنوس إلى مدرسة عام 1958، ولا على محل البقالة الذي اشتهر بإدارته لطيف بربن، الشخصية الحلية المعروفة، صاحب النكتة والهزار المشهور، اصبح السوق والمحال مجرد أطلال بعد تحطم سقفه الهرمي يوم كان يقي الروّاد مطر الشتاء وشموس الصيف.

تلفت إلى المكان الرابض على النهر الذي استمرت تقف عليه سيارة عبس الخشبية عشرات السنين لنقل أهالي الجمجمة إلى المركز وإعادتهم اليها مسرورين، لم يبق أثر للمكان ولا للخان المقابل له. سألت أحد المارة، يرتدي بزة عسكرية عن نادي الضباط الذي كان عامرًا أيام زمان، ضحك ضحكة سوداء وقال: «لقد أطفأ نوره الرعاع في 2003/4/9 نهبوا خزينه من الكحول بدعوى الحرام، لا يتذكره أحد ولا يحتاجه ضباط هذا الزمان، بعد تحولهم إلى زيارة المراقد والمقامات كنوع من الخدر الروحي بديلًا عن الكحول.

▪▪▪▪▪

جولة المساء خُصصت إلى بيت أبو لقاء للتعزية وتفقد عائلة ارتبطت وإياها بتاريخ طويل، كانت أم لقاء عمودها الثاني قد أصيبت بجلطة دماغية بعد رحيل العمود الأول بأيام فقدتْ على إثرها النطق إلّا بعض الكلمات باتت تعود اليها ببطء شديد، فبات الدار ليس ذاك الدار المفتوح لذكريات تجمعت لأكثر من سبعين عامًا لم تعكرها اختلافات الرأي لمرحلة ما بعد 2003، شعرت وأنا أودعهم بعصرة في الصدر عكّرت المزاج، فألححت على مصاحبتي في مشوار زيارة أحمد علي شهاب في بيته جوار معمل الحرير.

أحمد هو ابن العم علي المربي الفاضل لأبناء العوائل العبيدية في القرية، ولدنا في السنة ذاتها (1946) وترافقنا بحكم القرابة والانسجام منذ اللحظات الأولى لفعل الادراك العقلي وإلى الآن، بيته مفتوح للأقرباء والأصدقاء القدامى والجدد، الجلوس على أرائكه تهدئة للأعصاب، وتعديل المزاج، إذ اشتهر بتوزيع الموسيقى بين أركانه وإقامة الولائم لمن يأتي خاصة من خارج الحدود، وكانت وليمة اليوم أقيمت في الحديقة الزاخرة بأشجار الحمضيات ونخلة المكتوم وشتلات الورد، حاول الاتصال برفيق الطفولة الآخر والجار ناظم مضحي، المتبقي من رفقة المدرسة الابتدائية والقرية، فالتحق بالركب محملًا بأعباء العمر وعديد من الأوجاع توزعت على جسده عموم جسده، قال: «لأني لا أخرج، ولأنّ حركتي قلّت، بدأت أشكو السمنة وبعض الأوجاع، وهكذا ختمت الجلسة اجترار للذكريات التي جمعتنا طوال الدراسة

الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وبعض من ذكريات الشباب قبل الانشغال بهموم الوظيفة والعائلة والسياسة التي أبعدت الجميع عن بعضهم لعشرات السنين، إلّا لقاءات عابرة بالصدفة أو بالمناسبات.

ما إن اكتملت السهرة في حديقة أبا زياد، وفي أثناء الطريق المار بشارع أربعين إلى حي بابل، وضعت أفكاري جانبًا، وغرقت في دوامات الحيرة، أسماء من أهل الحلة ما زال بعض أصحابها عالقًا في خلايا الذاكرة، وحوادث لم تمحَ من الذاكرة، وسنيّ شباب أعيدت لها الحيوية من بقايا ذاكرة، يُحسب نصف خزينها حِلْيًّا، أو حلّاويًا حسب الاصطلاح الشائع، هذه المدينة الفيحاء، التي سار في شوارعها خيرة العلماء، والأدباء والفنانين، والأساتذة، والقادة العسكريون، وبعض من السياسيين المنصفين، لم تحافظ قدراتهم وقوة الدفع على تجنيبها سعير الإهمال، وإن لم تكن الوحيدة التي عانت غدر الإهمال، فمدن العراق جميعها تعاني آفته منذ نشوب الحرب مع إيران، لم يجرؤ أحد من سكانها توجيه التهمة الى أحد بتعمد الاهمال، ولم يجرؤ أحد من أولي الأمر في هذه المدن بالعتب على المجتمع، والدين عجزه عن الحيلولة دون وقوع الإهمال، كأن كل التوجهات المجتمعية في هذه المدينة التي كانت جميلة ترتد إلى الماضي، آفة اهمال وتجهيل أصابت المجتمع العراقي في العقود الثلاثة الأخيرة، أضرّت بجهود الانتقال إلى المستقبل، وكوّنت اتجاهات للعودة إلى الماضي المختل في النظرة إلى التحضر والرُقي.

قرية الجمجمة

مسكت علي من يده التي تمسك عكازًا، الزمته التوجه الى قرية الجمجمة التي فيها ولدنا ونشأنا ومن وسطها تفرقنا، تلك القرية وحياة لها كانت سعيدة يقف غالبية أهلها وسطًا بين الريف والمدينة، بين قديم يسعى للتمسك بقيمها قرية، وبين حديث ينوي التَّمرُّد على أصلها قرية، بين النهر المار بها وطوق النخيل ببساتينها الفاتنة، وبين تلال جعلتها شبه جزيرة، أبقتها صامدة، تُعارِك الزمن، تتدافع مع أهلِها وهم ينظرون إليها مدينة، نظرة جعلت منها بيئة طاردة جاذبة، يوم يكبر أبناؤها في سُلَّم الوظيفة والسياسة، يتبعثرون خارج أسوارها، يأملون العودة إليها ليتذكَّروا الطفولة... مثل عودتي لها هذا اليوم، وجلوسي على التخت الخشبي إياه في بيت الوالد، هذا الذي بقيَّ خالدًا من موجودات العائلة، كأنه يناغي آثار بابل الخالدة، سرحت وأنا على سطحه المستوي رحت بعيدًا إلى أيام الطفولة، وانتظار العام الجديد كي أرتدي ثوبًا جديدًا، إلى سمر الليل وقصص يرويها محسن منخي تمتد في العطل المدرسية إلى بعد انتصاف الليل، وتقضي على فرص الحصول على حصة في العشاء والاكتفاء بفردة تمر زهدي لسد الرمق. لم أكن وحدي من يكتفي بفردة تمر أو ينام دونها على أمل التمتع برغيف خبز من تنّور الوالدة عند الصبح، فأطفال القرية جلهم متساوون عند خط البداية، يأكلون من ناتج زرعهم، يهيئون مستلزمات حرّ

القيظ بالطريقة ذاتها، مروحة خوص (مهفَّة)[1] يصنعونها محليًا، وعماريَّة[2] عاقول من جريد نخيل ميسور بكثرة. ومتساوون في المتعة بالنظر إلى ضوء القمر في الأرجاء وهو في الطريق لتبديد العتمة. وراضون عن عيش البساطة، متساوون في درجات الرضا، حتى صار الشقّ في خاصرة الثوب وظهور العورة مألوفًا لا يثير التَّحسُّس، وصارت القرية صورة علقتْ في الذاكرة، لها صوتٌ، ورائحةٌ مميّزة، كوّنت لها سلسلة ممتدة من تلك الطفولة التي عشتها سهلة، حتى هذا الزمن الرابض وسط الغربة اللندنية الصعبة. تخللتها كثير من الحكايات عن شكل القرية القديم، عن البساتين التي كانت شاهدةً على وقع الحياة، والتلال المُكنّاة بـ (يشن عمران) التي تغطي أتربتها جماجم وعظام صارت شاهدًا لعظمة الأجداد، وسور انتصبت فوق أساساته بيوت دون انتظام، وباب له شطاني مقوَّس يُشبِه قبل اختفائه أبوابًا بابلية.

لم يبقَ في خزين الذاكرة إلّا القليل، ولم يبقَ من شواهد الماضي لهذه القرية ما يعيد الذي مسح أو ترسب في المكبوت، لأنّ الكثير قد تغير منذ مغادرتها ملتحقًا بالكلية العسكرية في 1964/1/1، وما بقيّ صار سلسلة تربط ماضيها بالحاضر، أضحت

1) المهفَّة، التسمية الشعبية لمروحة يدوية، تصنع من خوص سعف النخيل، يكاد لا يخلو بيت من وجودها قبل وصول الكهرباء وما زالت تستخدم إلى يومنا هذا.

2) العمارية، عبارة عن مشبكين من جريد النخيل، يعملها صانع الأسِرَّة، يوضع بينها، نبات العاقول، يُسكب عليها الماء من الأعلى ليبقى العاقول مبتلاً، رطباً وطالما بقي كذلك يتحوَّل الهواء المار عبره إلى البيت باردٍ نسبياً.

من طول فراق وكأنّها تتقطّع، وكأنّ العقل يريد العودة إليها، لوصلها قطوع، امتدت من تلك الأيام وبعض من سنيّ الشباب التي احتكرتها القرية، إلى سنيّ الاستقرار القسري التي فازت بها لندن، وما تبقّى من عمر لا تُراد له نهايةٌ تكتنفها القطوع.

لقد ظلّتْ قصَّة هذه السلسلة ضجيجًا متواصلًا في العقل الباطن من الوصل والتقطيع، دفعني لا شعوريًا إلى العودة اليها عودة قد تكون الأخيرة.

صادف هذا اليوم في القرية ذات الأصول البابلية يومًا هو الأول من أيام العيد، أخذنا الحديث فيه إلى الصبا يوم كنا نتسابق فور النهوض من النوم مسرعين للوصول إلى ثياب وضعت تحت المخدة، بديلًا عن المكواة، ننتظر بعد ارتدائها على عجل مدّ الوالد يده إلى جيب ثوبه (الدشداشة) ليخرج العيدية، (عانة)[1]، تدفعنا إلى الطيران فرحًا، ما زالت لذة مشاعره باقية أتلمس أثرها النفسي على راحة اليد كل عيد، أكرر حركات دسّها في جيب ثوبي الأعلى ثروة لا يطويها النسيان، ولا يطوي كذلك صينية (الكليچة) وسيدها الخنجر من العجين تعمله الوالدة ابنة داوود خصيصًا لتمييزي صبيًا عن البنات.

لهذا الخنجر قصة بدأت عند استلامه من يد الوالدة المزينة

1) العانة، عملة معدنية فضية اللون، سُكَّتْ في العملة العراقية من أول أيام سكها بعد العام 1921، تعادل أربعة فلوس زمن الحكم الملكي، زادت فلسًا لتكون خمسة فلوس زمن الحكم الجمهوري عبد الكريم قاسم، واختفت تدريجياً بعد عام 1980.

بالوشم، ومن ثم الخروج استعراضًا بقبضته الى العجد وتبختراً بوجوده كمن يحمل خنجراً عمانياً بالفعل، قصة عيد لم تنتهي بعد العودة من فقرة التبختر لتناول الفطور خبزًا طازجًا مع الشاي، وأمنية لم تتحقق زيادته بيضة أو قليلًا من الزبد إكرامًا للعيد، فالبقرة قد نشف حليبها انتظارًا لمولود جديد، وبيض الدجاج وُضعَ جميعه تحت دجاجة مجرّبة بقصد مضاعفة الإنتاج، قصة استمرت وقائعها إلى اليوم الثاني منه عيدًا أضحى، فيه التواجد عند مقام الامام عمران بن علي سنة لأهالي القرية والقرى القريبة وبعض من أهل المدينة، يغمرهم الفرح وأنشطة يتكرر بعضها منذ عشرات السنين، كانت الأنشطة في ذاك العيد من عام 1953 أراجيح نصبت من جذوع النخيل، وجولات على الحمير تسلك نياسمًا بين التلال، وسباقات خيل في الساحة التي تجاور الامام أسفل التلال، ودبكات (الچوبية)[1] على أنغام مزمار عاصي (المطبگ)[2] وهو في حال الوقوف بالمواجهة لصف من الدابكين يشكلون نصف دائرة، يتحرك فيها حافي القدمين بجسم نحيف يتمايل والمطبگ، في فمه، دقائق لم يأخذ طوالها نفسًا، ولم يرمش له جفن، ودقائق ترتفع طوالها فقاعتان من جهة فكيه

1) دبكة عربية تسمى في اللهجة المحلية الدارجة (الچوبية).

2) المطبگ، قصبتان أسطوانيتان متساويتان بالطول والقطر، تلصقان معاً بمادة «القير» وتثقب كل قصبة بعدّة ثقوب متقابلة ومتوازية وتكون القصبتان مفتوحتين من الجهتين، وتدخل في الجزء الملامس للفم قصبتان صغيرتان تسميان «الزمارتين»، مصنوعتان من القصب الرفيع، متساويتان أيضاً في الطول والقطر. يخرج الهواء المار من الاسطوانتين صوتًا موسيقيًا يتحكّم به النافخ لحنًا كما يريد من خلال الفتحات الموجودة في الأسطوانة.

تشبهان تلك التي يكونها الضفدع أسفل الحنك في أثناء النقيق، يُقَسِم الصوت الناتج عن مخارج الهواء لحنًا يثير الدابكين، يزيد ضرب الأرجل على الأرض بإيقاع خاص، يتطاير من شدتها التراب أكوامًا، يختلط بالعسلية التي نمْسك بها فيعطيها نكهة خاصّة.

لم ينتهِ اليوم الثاني إلّا عند بائع مشروب السيفون[1]، وهو لا يكف عن المناداة بأعلى الصوت، (بارد السيفون)، ليصرف عنده الفلس ما قبل الأخير من العانة وما تبقى فلسًا للمخلط[2] من محل ابراهيم العزير يختم بالتهامه اليوم الثاني للعيد.

كلّ شيء قد تغيّر في القرية وفي أيام العيد، بعد مرور رتل الدبابات قريبًا من الإمام، طريق المشاة القادم منها إلى الإمام ضاق لقلّة الاستخدام بعد استبداله بطريق آخر للسيارات. الساحة الكائنة أمام الضريح لم تبقَ كما هي، ابتلعها التحديث، وغاب التراب الذي تعوّدَ الأطفال التهامه لجراح الخوف من الامتحان، بفعل التجديد. أشجار الكالبتوز التي غرزها عبد علي عبود قبل ستة عقود زادت أعدادها، غرز الخيّرون إلى جنبها أشجارًا أخرى، يتفيّأ تحت ظلالها الزوار. تناقصت قبور الفقراء وأطفال القرية المستثنين من الدفن في وادي السلام، اندرست شواهد بعضها، ابتلعت السنين بعضها الآخر، كأنّ الأهل نسوا موتاهم من الأطفال

1) السيفون، مشروب غازي ظهر قبل عصر الكوكاكولا والبيبسي كولا، عبارة عن ماء وصبغة لون في الغالب أصفر مع مادة الصودا، اختفى حال ظهور المشروبين المذكورين.

2) المخلط مجموعة من الحلويات صغيرة الحجم متعددة الألوان بينها ما يسمى ضروگ الفار.

لصالح الموت الذي كثر بين الشباب في حروب واضطهاد وتغييب قسري استمر عقودًا؛ من ذاك الزمان إلى هذا الزمان، وكثر الجهل والاستخفاف بالدين والأئمة إذ ظهر في القرية فجأة إمامين شقيقين (أيمن وأمين)، يشاع عنهما أولاد الإمام الكاظم، سألت علي عن قصتهما لأنه لم يغب عن القرية كما غبت لأكثر من ثلاثة عقود متواصلة، فأجاب: «كانت السيدة زهرة قد تزوجت من رجل غريب عن القرية، سكنت وإياه داخل أسوارها بيتًا مستأجرًا لحميدة جويد، صارت من بعد السكن فيه أشهرًا قليلةً، تتكلّم مع نسوة من جيلها عن نور يظهر بين الحين والآخر في الغرفة التي تجاور الشارع (العجد)، توجَّهت من بعد ظهوره إلى إيقاد شموع في أركانها الأربعة، واقتصرت على صَلاة تقيمها ثلاث أوقات على أرضها التي حسبتها مباركة.

في ليلة شتوية، هطلت غيومها مطرًا غزيرًا، رعدت سماؤها رعدًا لم يتوقف، ذهبت هي إلى فراشها بعد أداء مراسم صلاة العشاء في الغرفة إياها كالمعتاد، ردَّدتْ أدعية لإتمام الستر وإزالة الخوف، رأت في المنام بعد غفوة عميقة رجلًا مهيبًا، يشعّ من وجهه الجميل نورٌ ساطعٌ يغشي العين، وقف في ساحة دارها تحت زخات من المطر لن تمسه، أشار لها بيده إلى الغرفة ذاتها، قال: «هنا يرقد ولديّ أيمن وأمين»، وعندما استيقظت من النوم بعد انتهاء الحلم صارت ترتجف، تتصبّب عرقًا، مبهورة، لم تهدأ، لم يغالبها النعاس، وكأنّها نهضت مكتفية من نوم دام أيامًا، أخذت تتحرك في أرجاء البيت من دون سيطرة من عقلها على جسمها الذي صار يتحرّك بإرادة غير إرادتها، نقلت إبان ذاك التحرك

موجودات الغرفة إلى خارجها، نظّفتها مرتين، بَخْرَتْ وسطها، علّقت راية في أعلاها كانت خضراء. قصّت على أفراد عائلتها في أول الصباح تلك الرؤيا، وما فعلته طوال ليل لم تهدأ خلاله، ولم تتوقف عن الدعاء، ثم قصّتها على المعارف الذين فسروا جميعهم تلك الرؤيا تأكيدًا لحدسها بوجود قبر الإمامين، باستثناء ابنها البكر، الذي قال إنّ الجيران قد سخروا منها ومن تهيؤات تحصل لها بعيدة عن الواقع، راحت من بعدها تزور بيوتات القرية، تقصّ حلمها، اقتنع البعض بأقوالها، ذهبوا إلى الأوقاف والنجف الأشرف، لم يحظوا بالدعم الديني الكافي لإنشاء مرقد يضاف إلى ما موجود من مراقد، من دون سند تاريخي، فتوجّهوا إلى جمع مبلغٍ بسيطٍ من المال تبرعات من أهل القرية، بنوا دكتين على شكل قبر افتراضي طول الواحد مترين، وارتفاعه متر ونصف المتر، وقبتين محيط الواحدة منهما بحدود المتر. جعلوا من شباك الغرفة بابًا على الشارع، وعلّقوا في أعلاها قطعة للدلالة، فصار مرقدًا يؤمه الزوار، وتقدّم له النذور، وصارت هي أول قَيِّمَةٍ عليه، وهو المطلوب.

قصر الرئيس

صعدت إلى سطح الدار الذي تركها الوالد قبل مغادرته الدنيا، أردتها باقية لذكراه ولمن تخذله دنياه، تلك التي شهدت جل الطفولة وردحًا من الشباب، نظرت إلى بستان الرهيمية لم أجد نخلتيّ البربن المطلتين على البيت، ولا بقايا الناعور، لقد تحولت

جميعها والبساتين المجاورة بيوت عامرة بعد التاسع من نيسان 2003 عندما ظن الأهل سقوط دولتهم وسنوح الفرصة مناسبة للتمرد على القانون، نزلت محملًا بمزيد من الأسى، مررت بالغرفة الصغيرة التي بنيت لي فوق الحمام، لقد تهدم سقفها، فمن سكن البيت من الأخوة لم يضيفوا لها طابوقة، بل ولم يصلحوا أخرى زلت من مكانها فتكدس الضرر وسقط السقف وتهدم دوار السطح، هي هكذا عادة أهل الريف وربما البعض من أهل المدن لن يديموا ما يبنوه إلى يوم الهدم. تركته نصف مهدم، وسلكت الطريق منه عبر مجاز الوزون إلى العجد فباب السور، ذات الطريق الذي اعتدت أخذه مجالًا للقراءة أيام الدراسة المتوسطة والثانوية، يوصل ببستان الملة نشمية مع تلال (يشن عمران) فمقام الامام، ومنه أخذت الطريق النيسمي باتجاه بابل الأثرية.

شارع الموكب والجنائن المعلقة والأسد البديل بقيتْ كما هي، شوهت قيمها الترميمات التي فعلها محافظ بابل ابن عم الرئيس قبل تنحية الرئيس، فعرجت منها إلى قصر الرئيس أو ما تبقى من بقاياه، معلم أقامه فوق تل اصطناعي وسط الآثار مخالفًا قواعدها في البناء، هكذا كان الرئيس هو القانون، شيد قصره على ارتفاع يفوق تلال المنطقة والتل الذي أخذ منه الإمام عمران مرقدًا، يبدو أنه وفي أيام عليائه قد وضع نفسه بموازاة حمورابي ونبوخذ نصر في الحكم، غير بفعلته معالم الآثار الأصلية وحفر بحيرات، وشق قنوات ماء، لم يعر اهتمامًا لاحتجاجات اليونيسف على التغيير الساذج بالآثار. بنى القصر من الحجر خلافًا لحضارة بابل المبنية

من الطين المفخور. زيّدَ من ارتفاعه عن ارتفاع الجنائن المعلقة، فتسبب في تشويه العمارة البابلية والتاريخ، أراد لقصره عمارة مزجت بين الماضي البعيد لبابل وآشور وبين الحاضر القائم لأهل العراق، كمن يريد مناداة القادمين إلى بابل، زوّارًا وآثاريين أن يتفرّجوا على إنجازاته فقط من دون غيرها من معالم آثار انشغل بها العالم وما زال لآلاف السنين، فلم يجد في نهاية الأمر أحدًا ينصفه من القادمين، جعله يشاطئ نهر الحلة، يحتضنه عاشق يائس، أزال قرية كويرش من مكانها، ووضع قرية الجمجمة تحت مدّ بصره نسرًا بجناحين مفتوحتين وعينين ثاقبتين، وصيّرَ من بابل عروسًا فقدت عذريتهما خارج فراش الشرعية، وكأنّه أراد القول إنّه أكبر منهم جميعًا ومن نبوخذ نصر وآشور، ومثلهم سيخلده التاريخ.

أتممتُ الصعود إلى أعلى التل، حيث يقيم القصر بأركانه الأربعة وإطلالته الواسعة على عموم المنطقة وأبعد منها بقليل. تَوَقّفَتُ عند الباب التي لم يبقَ منها سوى الفتحة والإطار، أخذتني الرهبة إلى داخلها مبهورًا، اتلمّس المرمر الأبيض، وقد شوّهته كتابات عن ذكرى لقاء بين حبيب وحبيبة لم يكملا المشوار، وبيت شعرٍ عن خضراء الدمن سقط شطره الثاني، وطلبة مدرسة ثانوية من بغداد، جاؤوا بسفرة تاريخية إلى المكان، خطّوا أسماءهم وعبارات جدل عن أحقية الخلافة في الإسلام. تابعت نقوشًا مغربية طالتها أيدي الغلّ ونفث فيها العث سمومه، وأمورًا أخرى تتفرق بين الجدران. توقفت ثانية في باحة القصر الداخلية

لأرى شيئًا مختلفًا ونقشًا مختلفًا، وخدشًا متعمّدًا، وباباً مخلوعة، وكومة أسلاك شائكة وضعت على السلالم النافذة إلى الطابق العلوي، أريدَ لها أن تمنع الصعود إمعانًا بالنهب والتخريب، يتبيّن من طريقة وضعها وكأنّ صاحب الفكرة أو منفّذها عسكري خاض حروبًا تقليدية، بقيتْ في ذاكرته منها، سبل استخدام الأسلاك الشائكة في تحصين المواضع الدفاعية. صنابير المياه والمغاسل الخزفية المذهبة اقتلعت معًا، ومن أبى منها الاستجابة لمعول الهدم حصل على ضربة بمفك حديدي ضخم حولها إلى أشلاء. لم أقوَ على الاستمرار في داخل قصر كان قصرًا قد تشوّه، خلافًا لرغبة صاحبه في الخلود.

خرجتُ وفي نفسي خواء لم أعهده، وجدت أنابيب السقي بالتنقيط قد تقطعت أوصالها، وأشجار منتقاة استوردت خصيصًا للقصر باتت ميتة وأخرى تنتظر الموت، وشوارع غطّاها التراب تتصدّع بالتدريج، كأنّها تتسابق مع الزمن في سعي محموم لأن تعود إلى سابق عهدها ترابية تتخللها الحفر، وحدائق غنّاء ارتفعت فيها الحشائش عن المألوف، خلافًا لما كانت عليه الجنائن المعلّقة دون حشائش وبقايا تراب. كل شيء في هذا القصر تعرّض إلى التخريب إلا ما كان بعيدًا عن المنال، أو عصيًا على القلع، ومن كان كذلك قُذِفَ بحجرِ محتجٍ على الدولة أو عاتِب على الوطن أو بدوي نهّاب حطّم بعضه ليحصل على البعض، ولربّما معارض على مسّ كرامة التاريخ ببناء هذا الصرح الحديث.

خرجت من مداره والآثار، سرت عائدًا باتجاه القرية، دفعني

ألم الصداع من هول الخراب إلى المرور على المستوصف، كان باق في مكانه القديم بأحد الدور التي شيدت سكنًا للمعلمين جوار المدرسة يوم كان القوم يقومون إليه تبجيلًا، ويقولون كاد أن يكون رسولا، مفتوحٌ بابه رغم حلول الظهر، تسلحت منه بست حبات مدورة على شكل أقراص بيضاء، لاحظني المضمد الصحي أضحك رغم الألم، سألني:

لم تضحك؟

فأجبته «أضحك على قمع الدواء المستخدم، لقد تغيّر الكون مرارًا طوال السنين التي غبتها عن القرية، والقمع باقٍ كما هو لم يتغيّر». ضحك هو أيضًا، وردّ السبب إلى الحكومة.

كان علي بالانتظار، مادًا جسده الطويل على الكنبة قلت له: «لنأخذ ساعة من الوقت تكفي المرور على بيوت أخوة لي وأخوات، كي أودعهم هم أيضًا، فقد يكون طوافي هنا هو الأخير»، وعلى الرغم من إنه وبسبب الحذر المتكرر للطبيب قد يكون الأخير، إلّا أنّ ما بقي من هذه القرية على لساني وفي عقلي، لا يمكن أن يكون الأخير. فالذي حملته من قيمها والذكريات، وما أسعدني من رفقة أهلها والأقارب والأصدقاء، لا يمكن أن يكون الأخير.

* * *

المحتويات

البداية 5

بين البصرة وبغداد: رحلات وحكايات 11

بعد أربعين عامًا 11

رصيف الشط 20

اختفاء الجزيرة 24

فاتحة العريف جبار 28

ليلة عيد عراقية 35

خيالات من الماضي 35

غربة عيد 38

باريس المحطة الأخيرة لقطار اليورو ستار 43

عودة مجد القطار 43

باريس قوس النصر 46

باريس: اللوفر والسين 50

برلين في الحاضر والماضي 55
واجهة برلين 55
بوابة بندنبرغ 59
عشاء برليني 62
قصة برلين في الحرب 65
تايلاند بنسختها الآسيوية 69
لقاء في مطار أرلاندا 69
الطريق إلى بانكوك 73
معبد بوذا 74
بتايا (Pattaya) الجزر المتناثرة 76
ساحر بتايا العجيب 78
جزيرة جيمس بوند 80
مسدس ماء في عيد الماء 82
بوذا Buddha إبن الإله 84
نبيذ الثعابين 86
سوق الأحد 89
ريف بريطانيا وصيفها 93
سواد الطبيعة 93
ويموث المنتجع والساحل 97
تووركوي Torquay المدينة الأجمل 100
حكايات من بريستول وساحلها العريق 102
في قلب كهف الأساطير 105

من أبراج دبي إلى قلب واشنطن..... 109
القلعة الطائرة 109
في شوارع واشنطن العريضة..... 114
واشنطن: في أحضان التاريخ والسياسة 117
ليل واشنطن الجميل..... 120
بين واشنطن ونيويورك: رحلات وانطباعات 123
نيويورك: المدينة لا تنام..... 125
رئة نيويورك..... 128
رحلة إلى قلب الحضارة 131
متحف الشمع، تجربة فريدة..... 134
تامبا بين سحر الطبيعة ومتعة الاكتشاف 136
مغامرات في أحضان الطبيعة 140
في الطريق إلى آيسلندا..... 143
ظلم الشيطان 143
مطبات فوق المحيط..... 145
من ضباب لندن إلى سحر فينيسيا 151
فيكتوريا المحطة والملكة 151
ماركو بولو التاجر الفينيسي..... 154
فينيسيا العائمة 156
فينيسيا حكاية صنع الزجاج 159
رحلة قطار عبر الزمن 161

موسكو من الماضي والحاضر 165
العوم بين شظايا الماضي والحاضر 165
قدرة الاحتفاظ بالذاكرة الحية 168
موسكو في التاريخ 171
أنطاليا، مدينة الشمس 177
ذكريات وطموحات 177
هلال البحر الأبيض المتوسط 179
تجربة الريف الأنطالي، لا تُنسى 182
أنطاليا بين الماضي والحاضر 185
مصر في ذاكرة الأيام 189
مصر قبل وبعد 189
مدينة ذهب: بين الصحراء والبحر 196
بائعو الوهم 201
تاريخ الدير 205
سحر الغردقة ومرحها 208
أكسفورد، المدينة الجامعة 213
صروح العلم 213
أكسفورد: بين ماضي العلم وحاضره 216
لقاء على ظهر قارب 220
مرابع نوبل 227
جولة في مدينة أوربرو السويدية 227
متحف نوبل 229
جوائز نوبل 231

عرس عراقي أمازيغي 235
أغادير: حلم مغربي 235
أغادير: بنت المحيط 238
يوم في ضيافة الأمازيغ 241
عرس تتمازج فيه الثقافات 245
جُزر الكناري 249
رحلة محفوفة بالتحديات 249
رياح تينيريفي العاتية 252
جزيرة تينيريفي: خضرة ورمال 256
سانتا كروز: العاصمة الثانية 259
احتفالات الجزيرة برأس السنة 263
بابل آخر المشوار 267
لزوم تغيير الوجهة 267
قرية الجمجمة 274
قصر الرئيس 280

• سيكون هذا الكتاب في متناول الباحثين والمتخصصين في أنحاء العالم كافة، وعلى الخصوص مراكز الابحاث العلمية والتوثيقية في بريطانيا.
كان التميز والانجاز ثمرة الاتفاقات الموقعة بين دار لندن للطباعة والنشر والمؤسسات الثقافية والتعليمية في اقتناء منشورات ما يصدر عنها، مما يتيح للمؤلف والكتاب اثراء المكتبات والاستفادة منه عالمياً، ويكون محفوظاً لقرون عدة.

ـ المكتبة البريطانية في لندن	The British Library
ـ المكتبة الوطنية في ويلز	The National Library of Wales
ـ المكتبة الوطنية في اسكوتلندا	National Library of Scotland
ـ مكتبة جامعة اوكسفورد	University of Oxford, Bodleian Libraries
ـ مكتبة جامعة كامبردج	Cambridge University Library
ـ مكتبة جامعة ترينيتي في دبلن	Trinity College Dublin

UK & Europe Branch:
282 Harrow Road, Paddington, London W2 5ES,
United Kingdom. **Tel:** 00447709555334
Email: info@londonbook.uk

UAE Branch: Golden Book Publishers
Sharjah Publishing City (SPC) Free Zone, Sharjah,
United Arab Emirates
Email: sharjah@londonbook.uk

Iraq Branch:
Al-Mutanabbi Street, Al-Warraqoon Arcade,
Baghdad, Iraq **Tel:** 009647865147533
Email: baghdad@londonbook.uk

جمهورية العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي ـ قيصرية الوراقين

الكتاب متوفر على المواقع الألكترونية

www.londonbook.uk
www.amazon.co.uk (covers 14 countries)
www.waterstones.com
www.ebay.co.uk